



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا - فرع الأدب

الفروسية في الشعر

بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ

(دراسة موازنة)

رسالة مقدمة لإكمال متطلبات الماجستير (في الأدب)

إعداد الطالبة

منى بنت بخيت بن عوييد اللهيبي

الرقم الجامعي (٤٢٤٨٠٠٥٨)

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد الله بن أحمد باقازي

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : الفروسية في الشعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ (دراسة موازنة) .

الدرجة العلمية : الماجستير في الأدب والبلاغة والنقد .

إعداد الطالبة : منى بنت بختيت بن عوييد اللهيبي .

تناول البحث شعر الفروسية بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ ، وقد انحصر في فصلين ، وتحت كل فصل ثلاثة مباحث ، يتقدمها تمهيد يوضح العلاقة التي تربط الفروسية بالشعر ، وبعدها خاتمة .

◀ أما الفصل الأول : وعنوانه (مضامين الفروسية) ، فهو على ثلاثة مباحث ؛ ففي المبحث الأول تعرّضت فيه لإبراز صورة الفارس الذي هو أساس العمل البطولي من خلال ذكر الصور المتعددة له في شعرهما ، والمبحث الثاني : تعرّضت فيه لذكر أدوات الحرب عندهما ، والمتمثلة في : الفرس ، والسيف ، والرمح ، والسهم ، والمبحث الثالث : تطرقت فيه لذكر المعارك التي خاضها الفارسان ، وكيف عبّر عنها في شعريهما .

◀ وأما الفصل الثاني : وعنوانه (الخصائص الفنية لشعر الفروسية) ، وهو على ثلاثة مباحث أيضاً ؛ فالمبحث الأول : وهو عن الصورة الشعرية ، فوقفت على صورهما الحسية ، فهي الأقرب للفروسية والفرسان ، والمبحث الثاني : ذكرت فيه أهمّ الفنون البديعية التي تميز به شعرهما البطولي ، أما المبحث الثالث والأخير : فقد تعرّضت فيه إلى لغة الشعر أو المعجم الشعري عندهما .

◀ وأما الخاتمة : فقد انتهت فيها إلى أنّ الفروسية غرض أصيل في الشعر يكاد يتخلل جميع الأغراض الشعرية . كما أظهرت الدراسة قلة الشعراء الفرسان بعد العصر الإسلامي ، وكذلك أظهرت الدراسة - بعد الموازنة بين أبي فراس الحمداني وأسامة ابن منقذ - ظاهرة التأثير والتأثير بينهما .

كما ذيلت البحث بفهارس عامة شملت فهرس الآيات القرآنية ، وفهرس الأحاديث النبوية ، وفهرس الشعراء ، وفهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأن يكون خير شفيع لي يوم الدين ، إنه سميع مجيب الدعاء .

المشرف

الطالبة

أ.د. عبد الله أحمد باقازي

منى بنت بختيت اللهيبي

Abstract

The title of the research : Horsemanship in the poetry between Abi Firas and Usamah Bin Mongith (balance study) .

Scientific Degree : Master degree in literature eloquence and criticism .

Prepared by : Mona Bint Bokhait Bin Oyabid AL-Lihiby .

The research discussed the poetry of horsemanship between Abi firas AL-Himdany and Usamah Bin Mongith in two chapter , each chapter has three sections preceded by preface that clarifies the relation between Horse man ship and poetry and at the end there is a conclusion .

The first chapter : Its title (content of horsemanship) , includes there sections ,

The first section discussed the character of horseman who was the basis of hero work by explaining the pictures of the horseman in the poetry of the both poets .

The second section : I explained the tools of the war represented in the horse the sword , the spear and the arrow .

In the third section : I mentioned the battles in which the two horsemen took part and how did they express them in their poetry .

The second chapter : its title (the artistic characteristics of the poetry of horsemanship) . It has three sections , too .

The first section : is about the poetic picture , I showed their sensitive configuration as it is the nearest to the horsemanship and the horsemen .

The second section : I mentioned the most important arts that distinguished their pomes . The first section : I explained the poetry language and the terms and expressions that distinguished two poets .

The conclusion : I concluded my research by confirming that the horsemanship is an originated purpose in poetry that may penetrate all purpose of poetry .

The study also showed the lack of horsemen poets after the Islamic age .

The study also showed the phenomenon of effect between the two poets . After the comparison performed between Abi firas AL- Himdany and Usmah Bin Mongith .

I ended my research with general indezes including the index of Quranic verses , the indez of prphet's saying (Hadith) the index of poets , the index of resources and references and the index of subjects .

I beg Allah to accept this work and make it useful during my life and after my death .

The female student
Mona Bint Bokhait Al-Lihiby

supervisor
Professor :
Abdullah Ahmed Bagazi

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي فرض الجهاد في سبيله ، ووعد عباده المجاهدين بالأجر العظيم ، والنصر الممين ، والصلاة والسلام على خير عباده وأكرم خلقه وخاتم أنبيائه ورسله محمد الأمين ، القائل : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »^(١) .

أما بعد ..

تحتلّ الفروسية مكانة عالية عند العرب ، والفارس مقدم على الشاعر عندهم ، فالفروسية كانت ولا زالت معيناً عذباً للشعراء يستقون منه موضوعاتهم ومعانيهم ، لذلك وقع اختياري مع سعادة المشرف على موضوع هذه الدراسة ، له صلة وثيقة بالفروسية ، فكان عنوانه : **(الفروسية في الشعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ)** .

وقد وجدتُ في شعرهما تمثيلاً صادقاً للفروسية بكلّ ضروبها وخلالها ، فالفروسية تمثل الكثير من حياتهما ، ولقد منحهما الله ﷻ قوة البأس ، وفصاحة القول . فكلاهما (أمير ، فارس ، شاعر) ..

أمير : لم تمنعه المنزلة العالية من خوض المعارك ومحاربة الفرسان .

فارس : قاتل قتال الفرسان الشجعان ، وخاض معارك كثيرة . وكان له منزلة كبيرة فيها .

شاعر : عبّر عن فروسيته تعبيراً صادقاً ، فوصف المعارك التي خاضها ، ووصف الخيل ، والسيوف ، والقنا .. كما صور لحظة الضعف وانكسار الفارس خير تصوير .

وقد نشأ الشاعران في بيتين بينهما تشابه كبير ، فعصر أبي فراس يكاد يكون هو نفسه

(١) صحيح البخاري ، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ضبطه ورقمه : د. مصطفى ديب البغا ،

دار ابن كثير ، دمشق ، ط ٥ ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ، باب الجهاد ، ص ١٠٢٨ .

العصر الذي ضمّ أسامة بن منقذ ، فالشام موطنهما ، والإسلام دينهما ، والروم أعداؤهما ،
والملك والسيادة لهما ، والشعر والفروسية سلاحهما ..

وقد سجّل الشاعران لنا الفروسية في شعرٍ يُحفظ ويُردّد ، ويكون فيه عبرة وعظة ،
ومدعاة فخر واعتزاز لكلّ مسلم ومسلمة .

ولهذا سأعمل بمشيئة الله تعالى على الموازنة بين هذين الشاعرين ، وتقوم هذه الموازنة
على جمع الشعر الذي يتعلق بمضامين الفروسية عندهما .

وقد عمدتُ ابتداءً إلى تتبع نتاجهما الشعري ، والانتقاء منه قدر ما وسعني الجهد ،
حتى تبرز الصورة الحقيقية التي تركها هذان الفارسان للفروسية الحقة . ولم أقصد من وراء
هذه الموازنة إظهار البراعة والغلبة لأحدهما على الآخر ، فلستُ أنصب نفسي قاضية بينهما ،
وإنما ما أرومه وأصبو إليه من هذه الدراسة هو إثبات مدى اتصال الفروسية بشعرهما ،
ومدى التشابه الكبير بينهما ، ومقدار التأثير والتأثير بينهما .

هذا ، وقد أهملت الدراسة حياة الشاعرين ، فتجنّبت التكرارَ بذلك ، وابتعدت عن
الدراسة التقليدية ، واكتفت بذكر تعريف موجز مكثّف عنهما في حاشية الدراسة .

فهما شاعران مشهوران قد درسا من قبل دراسة علمية مستقلة لكلّ منهما ، لكن لم
يُجمع بينهما بحثٌ علمي سابق - على حدّ علمي - .

ومن أهمّ هذه الدراسات ما يلي :

- ١- أبو فراس الحمداني : حياته وشعره . إعداد : عبد الجليل حسن المهدي .
- ٢- الاتجاه الوجداني في روميات أبي فراس الحمداني . إعداد : إلهام عبد العزيز الغنام .
- ٣- أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني - مظاهره وسماته الفنية . إعداد : الجوهرة
عبد العزيز عبد الكريم المعيوف .
- ٤- أسامة بن منقذ : حياته وآثاره مع تحقيق كتاب العصا . إعداد : حسن عبد العال عباس .
- ٥- أسامة بن منقذ : حياته وشعره . إعداد : محمد عبد الله الجمال .

- ٦- المتنبى الإنسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس . إعداد : نورة صالح الشمالان .
- ٧- دراسة أسلوبية في شعر أبي فراس الحمداني . إعداد : فهيل فتحي أحمد كتانة .
- ٨- شعر أبي فراس الحمداني : دلالاته وخصائصه الفنية . إعداد : عبد اللطيف عمران .
- ٩- شعر أسامة بن منقذ : دراسة أسلوبية . إعداد : أمجد ضيف الله حمد الصانع .
- ١٠- شعر أسامة بن منقذ : دلالاته وخصائصه الفنية . إعداد : رولا ناصر سليمان .
- ١١- شعر الأسر بين أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد : دراسة موازنة . إعداد : عبد الرحمن بن رجاء الله السلمي .

وحاولت الأخذ من كل مرجع وجدت السبيل إليه ، واجتهدت برأيي ، وكانت دراستي قائمة على الانتقاء ، بعيدة عن الاستقصاء ، وارتأيت أن الأهم يغني عن المهم ، وأكثرت من ذكر الشواهد ؛ لتقوم الدراسة على الحجة واليقين ، فموضوع الدراسة موضوعٌ قديم متشعب .

ومن أبرز الصعوبات التي واجهتني في هذه الدراسة : هي صعوبة الفصل بين مضامين الفروسية . لذلك آثرت أن أذكر الغالب منها ؛ حتى لا أقع في التكرار .
وانحصرت الدراسة في فصلين ، وتحت كل فصل ثلاثة مباحث يتقدمها تمهيد يوضح العلاقة التي تربط الفروسية بالشعر .

◀ أما الفصل الأول : وعنوانه : (مضامين الفروسية) :

ففي المبحث الأول منه : سوف أتعرض لإبراز صورة الفارس الذي هو أساس العمل البطولي من خلال ذكر الصور المتعددة له في شعرهما .

والمبحث الثاني : سأعرض فيه لذكر أدوات الحرب عندهما ، والمتمثلة في : الفرَس، والسيف ، والرمح .. وسأحاول الوقوف على علاقة الفارس بها ، وسبب إغفاله لأدواته الدفاعية .

والمبحث الثالث : سأطرق فيه لذكر المعارك التي خاضها الفارسان ، ونتائجها .

◀ وأما الفصل الثاني : وعنوانه : (الخصائص الفنية لشعر الفروسية) :

وهو على ثلاثة مباحث أيضاً :

فالمبحث الأول : وهو عن الصورة الشعرية ، وسوف أقف فيه على صورهم الحسية، فهي الأقرب للفروسية والفرسان .

والمبحث الثاني : أذكر فيه الفنون البديعية التي تميز به شعرهما البطولي .

أما المبحث الثالث والأخير : فسأتعرض فيه إلى لغة الشعر أو المعجم الشعري ، وسأقف فيه على أبرز ما يجمع بينهما في كيفية استخدام اللغة .

ثم أختتم الدراسة بعرض موجز لأهم موضوعاتها ، وأشير إلى النتائج التي أسفرت عنها ، وأذكر بعض الاقتراحات بهذا الشأن .

وفي الختام الشكر ثم الشكر لله جل جلاله على منه وعونه وتيسيره وتوفيقه ثم لا يفوتني أن أُقبّل يدي من رعتي ورعت ابني وكان لسانها عذباً رطباً بذكر الله تدعوه أن يوفّقني في بحثي ويجعل لها حظاً من القبول ، أمي التي أبتهل إلى المولى أن يلبسها العافية حلة لا تبلى ويكسوها الصحة دوماً وأبداً وأن يرزقها أعلى الدرجات في الجنة .

أما شكري لوالدي رحمه الله فإني أثنه دعاءً له بالرحمة والغفران وسكني فسيح الجنان .

كما يطيب لي أن أتوجه بأجزل الشكر والعرفان إلى كلية اللغة العربية عامة وإلى قسم الدراسات العليا خاصة ، وأتقدم بوافر الشكر إلى سعادة الدكتور عبد الله أحمد باقازي المشرف على الرسالة الذي رعى البحث منذ أن كان فكرة حتى استوى على سوقه وكابد معي قراءته ومتابعته وأفاض علي من آرائه السديدة وتوجيهاته القيمة فجزاه الله عني خير الجزاء وأمد الله في عمره ونفع به وبعلمه إنه سميع الدعاء .

كما أتقدم بالشكر إلى الأستاذين الكريمين عضوي لجنة المناقشة سعادة الأستاذ الدكتور حسن باجودة وسعادة الأستاذ الدكتور ظافر العمري ، فلهما من الله الأجر الجزيل ومني الشكر والوفاء .

كما يطيب لي أن أقدم شكري وعرفاني إلى زوجي الكريم الذي شاركني لحظات هذا البحث بسرائها وضرائها .

وحاول دوماً تذليل الصعاب وتخفيف المعاناة فبارك اللهم فيه وأجزل له المثوبة والعطاء كما أتقدم بالشكر إلى إخوتي حفظهم الله ورعاهم وإلى ابني فارس الذي أسأل الله أن يجعل له من اسمه نصيباً .

كما أخص بالشكر سعادة الدكتورة أمل العميري التي كانت لي بمثابة الأخت الكبرى فاحتضنت بداياتي ، ولم تبخل علي بعلمها ونصحها فلها دعائي الخالص بموفور الصحة والعافية .

وأشكر كل من أسدى إلي نصحاً أو قدّم لي مساعدة برأيٍ أو مشورةٍ أو توجيهٍ أو دعوةٍ صادقةٍ بظهر الغيب فلهم جزيلُ الشكر والتقدير ومن الله تعالى أعظم الثواب والأجر .

وبعد أسأل الله عز وجل أن يتم عملي بالقبول وأن يعفو عن الزلل وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

علاقة الفروسية بالشعر

الفروسية^(١) لفظة تدلّ على القوّة والشجاعة ، ونجد كلّ عربيّ يتمنى أن يتصف بها ، وتصبح صفةً ملازمةً له ، وهي ميدان للتنافس ، يتنافس فيها الفرسان على البقاء ، وإثبات الذات لإظهار قوتهم وبراعتهم ؛ إذ إنّها تحتلّ مكانةً عاليةً عند العرب ، والفراس مقدم على الشاعر عندهم غالباً ، وهذا التقديم نابع من طبيعة النفس البشرية المجبولة على حبّ الشجاعة والإقدام . والفروسية ثابتة ومثبتة في الشعر ، فلا يكاد يخلو ديوان شاعر قديم منها ، فإما أن يكون هو مدارها ، أو يتحدث عنها كصفة لاقت صدقاً في نفسه ، فأراد الإشادة بها في شعره ، ولا غرابة في ذلك ، فالفروسية صفة تمثل الشخصية العربية المتكاملة التي استطاع الشعر أن يتوجّها ويخلد ذكرها ، فهو لسانها الناطق لحالها ، الواصف لفعالها ، المجد لها . كما أنه يعتبر ملاذها الآمن ، فقد قال اليعقوبي^(٢) : " ولم يكن لهم شيء يرجعون إليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر ، فبه كانوا يختصمون ، وبه يتمثلون ، وبه يتفاضلون ، وبه

(١) " الفرس : واحد الخيل ، والجمع فراس ، الذكر والأنثى في ذلك سواء . والفراس : صاحب الفرس على إرادة النسب ، والجمع فرسان ، وفوارس ...

والفرسان : الفوارس ؛ قال ابن سيده : ولم نسمع امرأة فارسية ، والمصدر الفراسة والفروسة ، ولا فعل له . وحكى اللحياني وحده : فرس وفرس : إذا صار فارساً ، وهذا شاذ . وقد فارسه مُفارسه وفراساً ، والفراسة - بالفتح - : مصدر قولك : رجل فارس على الخيل . الأصمعي : يقال : فارس بين الفروسية والفراسة والفروسيّة ، وإذا كان فارسياً بعينه ونظره فهو بين الفراسة - بكسر الفاء - ، ويقال : إن فلاناً لفراس بذلك الأمر : إذا كان عالماً به ... " . لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور ، دار بيروت ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ، ١٦٠/٦ ، مادة (فرس) .

فروسية : " ١/ مصدر فرس ، ٢/ فن ركوب الخيل ، ٣/ اتصاف بالشجاعة والدفاع عن الحقّ ومناصرة الضعيف " . معجم اللغة العربية المعاصرة ، أحمد مختار عمر ، القاهرة ، عالم الكتب ، ط ١ ، ٢٠٠٨م ، ١٦٩٠/٣ .

(٢) هو أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ، كاتب عباسي معروف ، من مؤلفاته : أسماء البلدان ، أخبار الأمم السالفة ، توفي سنة (٢٨٤هـ) .

ينظر في ترجمته : معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مكتبة المتنبّي ، بيروت ، ودار إحياء التراث العربي ١٦١/١ .

يتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعيبون" (١).

هذا ، وقد كان الشعر ملازماً للإنسان يتوج بطولاته على مرّ الأزمان ؛ قال الجاحظ :
" فكلّ أمة تعتمد في استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل
من الأشكال . وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد في ذلك على
الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها " (٢).

وقال أبو هلال العسكري : " لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا
من جملة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب ، وخزانة حكمتها ، ومستنبت آدابها ، ومستودع
علومها " (٣).

ويحتلّ شعر الفروسية مكانةً عاليةً عند العرب ، وصورةً مميزةً ؛ " فهو لسانهم المعبر عن
حالهم في أفراحهم وأتراحهم ، ومنعتهم المفضلة ، ووسيلة التثقيف الأولى لديهم ،
والسلاح المؤثر الذائد عن القبيلة الذي لا تقلّ فاعليته عن أدوات الحرب وفرسانها " (٤).

وقد ارتبطت الفروسية بالشعر ارتباطاً وثيقاً ، لذلك تُعدّ عاملاً وقرصاً رئيساً في الشعر
منذ نشأته إلى عصرنا الحاضر ، فالنفس البشرية تميل وترتاح لشعر البطولة والحرب ، ترى
فيه نصراً وعزاً ومجداً ، وعلاقتها بالشعر علاقة ترابط في الأفكار والمفردات ، فهما توأم
يصعب الفصل بينهما ، فترابطهما ممتدّ عبر الجذور التاريخية ، والعصور الأدبية ؛
إذ اتخذ الفرسان من الشعر لغةً لهم ، فالشاعر الفارس كان فارساً قبل أن يكون
شاعراً ، فسبقت فروسيته شعره ، وليس بمستغرب أن يجمع الفارس بين الفروسية
والشعر ، فاجتماعهما دليل على اكتمال القوة الحركية والفكرية لديه .

(١) تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م ، ٢٦٢/١ .

(٢) الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مصر ، ط ١ ، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م ، ٧١/١ وما بعدها .

(٣) كتاب الصناعتين ، تحقيق : علي محمد الجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر ، ١٩٧١م ، ص ١٤٤ .

(٤) مفهوم الصدق في النقد القديم ، د. حمود بن محمد الصميلي ، من إصدارات نادي جازان الأدبي ، ط ١ ،

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، ص ١٥ .

" فالفروسية فروسيّتان : فروسية العلم والبيان ، وفروسية الرمي والطّعان " (١).

ويقول عبد الله الطيب : " فالفروسية بعد أن صارت مذهباً معروفاً وأدباً محذواً ، ومنهجاً في الحياة ذا طقوسٍ ورسوم ، برز فيها رجال لم يكونوا شعراء خُلصاً ، وإنما تعاطى من تعاطى منهم الشعر ؛ ليتّم به آلة الفروسية ومظهرها ؛ إذ يبدو أن الشعر لطول ارتباطه بالفروسية قد صار يُعدّ من متمّماتها ، من شواهد ذلك : ما يروى عن عنترة أنه لما فخر بكمال الفروسية تحداه عائبوه بأنه لا يقول الشعر ، واتفق أن كان هو شاعراً سليقةً ، فأجابهم بمعلّته المشهورة ... " (٢).

ولن تظهر مدى قوّة العلاقة بين الفروسية والشعر إلا من خلال التعمّق في أبيات الشعر التي قالها الشعراء الفرسان ، وأخصّ بالقول الفرسان ؛ لأنّ الفارس الشاعر هو الأقرب والأجدر بإدراك هذه العلاقة ، فالشاعر غير الفارس عندما يعبر أو يصف لنا حدثاً بطولياً يعايشه ، فإنه مهما برع في هذا الوصف ، لن يصوره كما فعل الفارس الذي خاض الحروب وكان أحد قوادها .

فهو شاعر تحرّكت شاعريّته لهذا الفنّ وأبدع فيه ، مثله مثل غيره من الشعراء الذين خاضوا في فنّ فأبدعوا فيه ، وليس معنى هذا أن ننقص من قدر هؤلاء الشعراء الذين جعلوا من فنّ الفروسية فناً أصيلاً في قصائدهم ، فقد عرفوا قيمة هذا الفنّ ، ونظموا فيه ، وتغنّوا بما وهبهم الله تعالى من ملكة في الوصف ، وإجادة في الشعر ، فكان لهم أجمل القصائد فيه ، من أمثال : حسان بن ثابت (٣) ، الذي قال (٤) :

(١) الفروسية ، لشمس الدين أبي عبد الله ، تحقيق : أبي عبيدة مشهور ، دار الأندلس ، ط ٢ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص ١٥٧ .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، تأليف : عبد الله الطيب ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٠هـ ، ٣/٨٥٥ وما بعدها .

(٣) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري ، شاعر الرسول ﷺ .
ينظر في ترجمته : الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، الناشر : دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٥م ، ٤/١٣٨ ؛
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٣٨٦هـ -
١٩٦٧م ، ١/٢٢٣ ، والإصابة ١/٣٢٥ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق : د. سيد حنفي حسين ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، ص ٧٣ وما بعدها .

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
يُبَارِينِ الْأَسِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّراتٍ
فِيمَا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا
وَالْإِ فَاصُّبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدِّ
فُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا
تُشِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
عَلَى أَكْتَفَاهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ^(١)
تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ
وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
هُمُ الْأَنْصَارُ عَرَضَتْهَا اللَّقَاءُ
قَتَالٌ أَوْ سَبَابٌ أَوْ هَجَاءُ
وَنَضْرِبُ حَيْثُ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

فعند تأملنا لهذا الشعر الصادق المعبر لا نستطيع إلا الإعجاب به وبقائله ، على الرغم من أن قائله ليس من الفرسان^(٢) ، لذلك لا نقلل من شأن هؤلاء الشعراء ، أو نحذف بحقهم بمثل ما ذكر بعض كتابنا ، بأن حسان بن ثابت بطل في الجين ، فهو وإن لم يخض المعارك بسيفه ، فقد خاضها بلسانه ، ولو كانت القصة التي وردت عن الصحابي حسان بن ثابت

(١) متمطرات : متعطشات ، الأسل : الرماح .

(٢) قال ابن عباس : لا تسبوا حسان بن ثابت ؛ فإنه ينصر رسول الله ﷺ بيده ولسانه . وهذا يدل على أنه كان يقاتل ، وأن ما يروى عنه من الجين باطل . والدليل على ما قلنا أنه قد هاجى شعراء قريش وشعراء العرب قاطبة ، فما عيره شاعر من شعرائها بالجين ، بل عيرهم هو بالجين .

ينظر : الإكليل ، لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، تحقيق : محمد بن علي الأكوخ ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠ م ، ٢/٢٠٨ وما بعدها .

ويقول ابن الكلبي : " إن حسان بن ثابت كان لسنًا شجاعًا ، فأصابته علة أحدثت فيه الجين ، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا يشهده " . تاريخ مدينة دمشق ، تصنيف الإمام أبي القاسم علي بن الحسن ، المعروف بابن عساكر ، دراسة وتحقيق : عمر بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ، ١٢/٤٣٣ .

ويقول الدكتور محمد الخطراوي : " إن الناس كانوا يعرفون هذا المرض فيه ، ولهذا السبب لم يكن رسول الله ﷺ يؤاخذه على تخلفه " .

ينظر : المدينة في العصر الجاهلي الحياة الأدبية ، د. محمد العيد الخطراوي ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٥١٥ .

من أنه لم يدافع عن الصحابية التي استنجدت به ، خوفاً وجُبناً من المواجهة الحربية ، فإن له العذر في ذلك ؛ فهو كبيرٌ في السنّ ، بدليل قوله لها : " ليست لي به قوة " ^(١) .

أعطى الشعر للفارس القدرة على إبراز فروسيته ، فكثير من الفرسان لم يشتهروا ؛ لأنّهم فرسان فقط ، بل لأنّهم شعراء فرسان ، وعند ذكر هذه الفئة من الشعراء يتبادر إلى الذهن عدد غير قليل منهم ، فهم شعراء استطاعوا أن يصلوا بشعرهم الصادق إلى أعماق نفوسنا ، وأن يغمدوا سحر بياهم في أعماقنا ، مثلما أغمدوا سيوفهم في صدور أعدائهم ، فكانت مواجهتهم لأعدائهم بالفعل والقول معاً . لهذا نخصّهم بالذكر في هذا المدخل دون غيرهم من الشعراء ، فهم حملة السيوف والأقلام ، المدافعون بأرواحهم قبل أشعارهم ، الذين يكابدون المعارك ويخوضونها مثل الأسود ، ولا يرضون بأقلّ من النصر الذي يعقبه تفجير لينايب البيان عندهم ، تلك الينايب التي ما زالت تندفق مياهاها إلى يومنا هذا ، وتروينا بشعرها العذب الخالد ؛ ليكون خيراً معين - بعد الله - على نصرة الإسلام .

لقد عُرف عن العصر الجاهلي كثرة الشعراء الفرسان ، وهذه الكثرة تعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة الحياة ، فحياة الجاهلي قائمة على الحروب . ولقد قرن ابن سلام كثرة الشعر بالحروب بقوله : " وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائر ، ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف " ^(٢) .

فقد كانت الحروب سبباً في ازدهار الشعر وانتشاره ، وهيأت للشعراء " المجالات الواسعة للانطلاق بمواهبهم الشعرية بشتى نواحيها ومختلف اتجاهاتها ، فكانت حافزاً قوياً ، ومصدراً خصباً من مصادر الإلهام ، أثارت في نفوس الشعراء مختلف الأحاسيس والعواطف " ^(٣) .

(١) ينظر : في الأدب والحرب ، حسين سرحان ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي ، ١٣٦٢هـ -

١٩٤٣م ، ص ١٠ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ، تأليف : محمد بن سلام الجمحي ، قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر ٢٥٩/١ .

(٣) شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، د. نوري حمود القيسي ، عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية ،

ط ١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ص ٥٧ .

وحبّ الحرب نابع من النشأة البدوية ، فقد كان البدوي يحرص على تعليم أبنائه الفروسية ؛ ليعدهم للحياة ، وليكونوا عوناً له على دحر الأعداء ، فهم فخرٌ له ولقبيلته .

ولقد كان العرب لا يهنتون بعضهم إلا في ثلاث ؛ منها : نبوغ أبنائهم في الشعر ؛ يقول ابن رشيّق في ذلك : " كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر ، أتت القبائل فهنّأها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ؛ لأنّه حمّاية لأعراضهم ، وذبّ عن أحسابهم ، وتخلّيد لمآثرهم ، وإشادة بذكورهم ، وكانوا لا يهنتون إلا بغلامٍ يولد ، أو شاعرٍ ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج " (١) .

وفي ذلك دليل حبهّم للفروسية وتعلّقهم بها ، فلقد جمع ابن رشيّق في عبارته مقومات الفروسية عند العرب ، فهي قائمة على ثلاثة محاور :

أولها : الغلام ، وهو الذي تستبشر القبيلة بمقدمه لكي يكون أحد فرسانها المدافعين عنها ، فهو الفارس المرتقب .

وثانيها : الشاعر المتحدث ، والناطق باسم القبيلة ، المجد لها والمدافع عنها ، ففي نبوغه نبوغ لهم على أعدائهم .

وأخرها : الفرس التي هي خير معين للفارس في حروبه ، ومن أهمّ أسلحة النصر عندهم .

وللفروسية حضور حتى في أسواقهم ؛ " قال أبو عبيدة : اجتمع العكاظيون على أن فرسان العرب ثلاثة ، ففارسٌ تميمٌ عتيبةٌ بن الحرث بن شهاب ، أحد بني ثعلبة بن يربوع بن حنظلة ، صيادُ الفوارس ، وسَمّ الفرسان ، وفارسٌ قيس عامرٌ بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وفارسٌ ربيعة بسطامٌ بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ، أحد بني شيان بن ثعلبة بن عكابة بن صعّب بن علي بن بكر بن وائل . قال : ثمّ اختلفوا فيهم حتى نَعوا عليهم سقطاتهم " (٢) .

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيّق ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجليل ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٢ م ، ٦٥/١ .

(٢) الكامل في اللغة والأدب ، لأبي العباس محمد بن يزيد ، المعروف بالمبرد ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ٩٠/١ وما بعدها .

فلا عجب أن تكثر الحروب بينهم بعد كل هذا الاحتفاء بالفروسية وفرسانها ، وكثرة الحروب نتيجة طبيعية لكثرة أسبابها ، فمن أهم تلك الأسباب : الغارة على القبائل للاستيلاء على مواطن الماء والعشب .

يقول عامر بن الطفيل^(١) في غارة لهم على همدان بعد أن كانوا قاصدين بني نهد^(٢) :

لِللّهِ غَارَتْنَا وَالْمَحَلُّ قَدْ شَجِيَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ فَصَارَ الْأُفُقُ عُرْيَانًا^(٣)
سَرْنَا نُرِيدُ بَنِي نَهْدٍ وَإِخْوَتَهُمْ جَرْمًا وَلَكِنْ أَرَادَ اللَّهُ هَمْدَانَا

وفي ذلك دليل على أن غاراتهم كانت عشوائية تقودها غريزة الوجود وحبّ البقاء .

كما صور لنا وذاك المازني^(٤) اقتتال تميم وشيبان على ماء (سَفَوَان)^(٥) ، فقال مفتخرًا^(٦) :

رُؤِيدًا بَنِي شَيْبَانَ بَعْضَ وَعِيدِكُمْ تُلَاقُوا غَدًا خَيْلِي عَلَى سَفَوَانَ

ومن أسباب الحروب أيضاً : العصبية القبلية ، فلقد عرف عن القبائل العربية التعصب الأعمى

لبعضهم البعض ، يقول دريد بن الصمة^(٧) مظهراً ذلك التعصب لقبيلته^(٨) :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَدَ غَزِيَّةٌ أُرْشَدُ

(١) عامر بن الطفيل ، أحد شعراء الحماسة في الجاهلية .

ينظر في ترجمته : الأغاني ١٥/١١٤ ، وديوانه ، ص ٧ .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ، دار بيروت ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م ، ص ١٣٧ وما بعدها .

(٣) المحل : ضدّ الخصب . شجيت : حزنت .

(٤) لم أقف على ترجمة له في : معجم شعراء الحماسة ، د. عبد الله بن عبد الرحيم عسيان ، دار المريخ ،

الرياض ، طبعة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٥) سفوان : اسم ماء على بعد أميال من البصرة .

(٦) الحماسة ، تأليف : أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، تحقيق : د. عبد الله بن عبد الرحيم عسيان ، إدارة

الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، ٨٣/١ .

(٧) دريد بن الصمة ، فارس شجاع ، شاعر فحل ، وجعله ابن سلام أول شعراء الفرسان ، وكان أطولهم غزواً .

ينظر في ترجمته : الأغاني ٣/١٠ ؛ وديوانه ، ص ١١ .

(٨) ديوان دريد بن الصمة الجشمي ، قدم له الدكتور : شاكر الفحام ، جمع وتحقيق : محمد خير البقاعي ،

دار قتيبة ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، ص ٤٧ .

كما يعبر قريظ بن أنيف^(١) عن ذلك التعصب بقوله^(٢):

قَوْمٌ إِذَا الشَّرِّ أَبَدَى نَاجِدِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَفَاتٍ وُوحَدَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهِمَ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

وتقوم الحروب كذلك طلباً للثأر ، فمن ذلك ما حدث بين قبيلتي بكر وتغلب في حرب البسوس ، التي كان سببها مقتل كليب بن ربيعة التغلبي على يد ابن عمه ، فجد أخوه بطلب الثأر ، " ودامت الحرب بينهما أربعين سنة "^(٣).

ولقد كان أخذ الثأر سبباً في تغير مجرى حياة شاعر ، فقد أصبح امرؤ القيس^(٤) فارساً بعد مقتل أبيه بعد أن كان غارقاً في لذته ولهوه ، حيث نجده يقول : " ضَيَّعَنِي صَغِيرًا وَحَمَلَنِي دَمَهُ كَبِيرًا . لَا صَحُو الْيَوْمَ وَلَا سُكَّرَ غَدًا . الْيَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا أَمْرٌ "^(٥) ، وَأَقْسَمَ أَنْ يَثَارَ لِأَبِيهِ ..

ويلاحظ على ديوان الشاعر ذلك التغيير في حياته ، ففي ديوانه تفاوت كبير بين قصائده في مرحلة لهوه ، وقصائده البطولية الداعية إلى طلب الثأر ، فقد جعلت الحروب منه فارساً بعد أن كان ماجناً .

وكان الشاعر أعلن الحرب على نفسه أولاً ، يقول^(٦):

أَتَانِي وَأَصْحَابِي عَلَى رَأْسِ صَيْلِعٍ حَدِيثٌ أَطَارَ النَّوْمَ عَنِّي فَأَنْعَمَا
فَقُلْتُ لِعَجَلِي بَعِيدٍ مَابَهُ أَبْنُ لِي وَيَبِينُ لِي الْحَدِيثُ الْمُجْمَعَمَا

(١) قريظ بن أنيف من بلعبر ، ذكر العيني أنه شاعر إسلامي .

ينظر في ترجمته : معجم شعراء الحماسة ، ص ١٠٠ .

(٢) الحماسة ، ص ٤٣ وما بعدها .

(٣) ينظر : الكامل في التاريخ ، للإمام عمدة المؤرخين ، أبي الحسن علي الشيباني ، المعروف بابن الأثير ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ١/٣٢٣ .

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث ، من شعراء الطبقة الأولى عند ابن سلام .

ينظر في ترجمته : الأغاني ٧٦/٩ ؛ ديوانه ، ص ٧ .

(٥) الأغاني ٨٦/٩ .

(٦) شرح ديوان امرئ القيس ، تأليف : حسن السندي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٩٣٩م ، ص ١٨١ .

فَقَالَ أَيْبَتَ اللَّعْنِ عَمْرُوٌ وَكَاهِلٌ أَبَاحُوا حِمَى حُجْرٍ فَأَصْبَحَ مُسْلِمًا

فخبر مقتل أبيه أطار النوم عنه وأبعده حتى أصبح لا يعي ما يُقال له .

وقد يسبق طلبَ الثَّارِ الحَرْبُ لردِّ الظلم ، فنرى عبيد بن الأبرص^(١) يفخر بأيام قبيلته وبتقدرتهم على ردِّ ظلم حجر والد امرئ القيس بقتله حينما فرض عليهم إتاوة كبيرة بقوله^(٢):

وَلَقَدْ أَتَانَا عَنْ تَمِيمٍ أَنَّهُمْ ذَرَوْا لِقَتْلَى عَامِرٍ وَتَغَضَبُوا
سَأَلَ بِنَا حَجْرَ بَنِ أُمَّ قَطَامٍ إِذْ ظَلَّتْ بِهِ السَّمَرُ النَّوَاهِلَ تَلْعَبُ
صَبْرًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَلْفَانَا مِسْكٌ وَغَسَلٌ^(٣) فِي الرَّؤُوسِ يُشِيبُ
فَلِيَبْكِهِمْ مَنْ لَا يَزَالُ نَسَاؤُهُ يَوْمَ الْحِفَاظِ يَقْلَنُ : أَيْنَ الْمَهْرَبُ

وتقام الحروب للأنفة والحمية ، فالعربي لا يرضى بالذل والإهانة ، وخير مثال على ذلك : عمرو بن كلثوم^(٤) ، الذي قتل عمرو بن هند ؛ لأنه أساء معاملة الضيف النازل عنده^(٥):

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا وَنُصَدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا
وَسَيِّدٍ مَعَشَرَ قَدْ تَوَجَّوَهُ بَتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِي الْمُحْجَرِينَا

(١) عبيد بن الأبرص : شاعر فارس ، جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية .

ينظر في ترجمته : الأغاني ٤٠٤/٢٣ .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ، دار المعارف بمصر ، د.ت ، ص ٦ .

(٣) غَسَلٌ : هو الغسول وما يغسل به كالصابون .

(٤) عمرو بن كلثوم بن مالك ، شاعر فارس .

ينظر في ترجمته : الأغاني ٤٦/١١ ؛ وديوانه ، ص ١٧٣ .

(٥) وقصة قتله لعمرو بن هند ذكرت في : الأغاني ٤٧/١١ وما بعدها .

ديوان عمرو بن كلثوم ، تحقيق : أيمن ميدان ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ط ١ ، ١٤١٣هـ —

١٩٩٢م ، ص ٣١٨-٣٢٢ .

نزلتم منزل الأضياف منا فأعجلنا القرى أن تشتمونا

وكما صاحب الشعر الحروب ، صاحب أيضاً الدعوة إلى تركها ، فعلى الرغم من ولع العرب بالحروب وحرصهم عليها ، إلا أن بعضهم يحاول أن يتجنبها ؛ لما تجرّه من ويلاتٍ وحسراتٍ عليهم ، وخصوصاً الحروب التي تحدث فيما بينهم .

فقد عبّر المهلهل عن ذلك الحزن والأسى الذي سببته الحروب بقوله^(١) :

بُكَرَهُ قُلُوبِنَا يَا آلَ بَكْرٍ نُعَادِيكُمْ بِمُرْهَفَةِ النَّصَالِ
لَهَا لَوْنٌ مِنَ الْهَامَاتِ جَوْنٌ وَإِنْ كَانَتْ تُفَادَى بِالصَّقَالِ
وَبِكِي حِينَ نَذْكُرْكُمْ عَلَيْكُمْ وَنَقْتُلْكُمْ كَأَنَّا لَا بُدَّ لِي

بل إن من الشعراء الفرسان من صورّ الحرب بأشبع الصور ، رغم حرصه على خوضها ، فعنترة^(٢) يصورّها بصورة مرعبة كريهة ليبين مقدار شجاعته وإقدامه وذلك بقوله^(٣) :

أَعَادِلُكُمْ مِنْ يَوْمِ حَرْبِ شَهْدَتِهِ لَهُ مَنْظَرٌ بَادِي النَّوْاجِدِ كَالْحُجِّ

فهو يوم عابس بدت أضراسه لشدّته وفضاعته .

كما يصورّها ابن الأسلت^(٤) بتلك الصورة البشعة بعدما أنكرته زوجته^(٥) :

(١) كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية المخضرمين ، للخالدين : أبي بكر محمد ، وأبي عثمان سعيد ابني هاشم ، تحقيق الدكتور : السيد محمد يوسف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ٤/١ .

(٢) عنترة بن شداد ، من أشهر الشعراء الفرسان في الجاهلية .
ينظر في ترجمته : الأغاني ٢٣٥/٨ ؛ ديوانه ، ص ١٤ .

(٣) ديوان عنترة ، تحقيق وشرح : عبد المنعم عبد الرؤوف شلي ، وقدم له : إبراهيم الأبياري ، طبع شركة فنّ الطباعة بالقاهرة ، د.ت ، ص ٤٢ .

(٤) أبو قيس صيفي بن الأسلت ، شاعر فارس جاهلي .
ينظر في ترجمته : الأغاني ٦٧/١٧ ؛ ديوانه ، ص ٣ .

(٥) ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي ، دراسة وجمع وتحقيق : د. حسن باجودة ، مكتبة التراث ، ١٩٧٣ م ، ص ٧٨ .

قالت ولم تقصد لقيلاً الحنا
أنكرته حين توسمته
من يذق الحرب يجد طعمها
قد حصت البيضة رأسي فما
مهلاً فقد أبلغت أسماعي
والحرب غول ذات أوجاع
مرّاً وتبسسه بجمعجاع^(١)
أطعم غمضاً غير تهجاع

ولم يقف الشعر عند حدّ التعبير عن تلك البطولات والمفاخرات ، بل تعدّاه إلى أن يكون أحد أسبابها ، وذلك مثل ما حدث في بني سليم ، حيث " كان العباس^(٢) يهاجي خُفاف بن ندبة السلمي^(٣) ، ثم تبادى الأمر بينهما ، إلى أن احتربا ، وكثرت القتلى بينهما "^(٤) .

ولقد حذر دريد بن الصمة قبيلة سليم من هذه الحرب التي لن تجرّ عليهم سوى الويلات^(٥) :

سليم بن منصور ألمّا تخبروا
وما كان من حرب اليحابر من دم
وما كان من حرب بني سليم وقبلهم
تسافهت الأحلام فيها جهالة
فكفوا خُفافاً عن سفاهة رأيه
والا فأنتم مثل من كان قبلكم
بما كان من حرب بني كليب وداحس
مباح وجذع مؤلم للمعاطس
بحرب بُعات من هلاك الفوارس
وأضرم فيها كل رطب ويابس
وصاحبه العباس قبل الدهارس
ومن يعقل الأمثال غير الأكاسيس

فنجد الشاعر الفارس يتعجب من إقدامهم على الحروب ، رغم كل تلك العير التي

(١) الجمعجاع : الموضع الضيق الخشن .

(٢) العباس بن مرداس ، شاعر فارس مخضرم ، أمّه الخنساء الشاعرة .

ينظر في ترجمته : الأغاني ٢٨٥/١٤ ؛ الإصابة ٢٧٢/٢ ، وديوانه ، ص ١ .

(٣) خُفاف بن عمير بن الحارث ، وندبة أمّه ، وهي أمة سوداء ، وهو شاعر من شعراء الجاهلية ، فارس من فرسانها ، وجعله ابن سلام في الطبقة الخامسة من الفرسان .

ينظر في ترجمته : الأغاني ١٨/٥ ؛ الإصابة ٤٥٦/١ .

(٤) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ٧٤٦/٢ .

(٥) المصدر السابق ٧٤٦/٢ ؛ ديوانه ، ص ٨٨ وما بعدها .

شاهدوها في حروب القبائل السابقة ، ويدعوهم إلى وقف الحرب .

ونجح الشاعر الفارس في مهمته تلك ، فأحمد الحرب التي كان سبب اشتعالها فارسين شاعرين .

فعبّر العباس عن ندمه فقال : " جزى الله خُفَافاً وَالرَّحِمَ عَنِّي شَرًّا ، كُنْتُ أَحْفَ سُلَيْمٍ مِنْ دِمَائِهَا ظَهْرًا ، وَأَخْمَصُهَا مِنْ أَمْوَالِهَا بَطْنًا ، فَأَصْبَحْتُ ثَقِيلَ الظَّهِرِ مِنْ دِمَائِهَا ، مُنْفَضِّجَ البَطْنِ مِنْ أَمْوَالِهَا ، وَأَصْبَحْتُ الْعَرَبَ تُعَيِّرُنِي بِمَا كُنْتُ أَعْيَرُهَا بِهِ مِنْ لَجَاجِ الْحَرْبِ ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ أَصَمَّ عَنْ جَوَابِهِ ، أَخْرَسَ عَنْ هِجَائِهِ ، وَلَمْ أَبْلُغْ مِنْ قَوْمِي مَا بَلَغْتُ " (١).

ثم أنشد أبياتاً تترجم ذلك الندم ، منها (٢):

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كَرِهْتُ الْحُرُوبَ وَأَنْتِي نَدِمْتُ عَلَى مَا مَضَى
نَدَامَةً زَارٍ عَلَى نَفْسِهِ لِنَلِّكَ الَّتِي عَارَهَا يُتَّقَى

فأجابه خُفَافٌ (٣):

أَعْبَاسُ إِمَّا كَرِهْتَ الْحُرُوبَ فَقَدْ دُفْتُ مِنْ عَضِّهَا مَا كَفَى
أَأَلْفَحْتَ حَرْبًا لَهَا دَرَّةٌ زُبُونًا تُسَعِّرُهَا بِاللَّظَى
فَلَمَّا تَرَقَّيْتَ فِي غِيَّهَا دَحَضْتَ وَزَلَّ بِكَ الْمُرْتَقَى
فَأَصْبَحْتَ تَبْكِي عَلَى زَلَّةٍ وَمَاذَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْبُكَى

ثم قبل منه السلم على أن يترك الديار ، وبذلك انتهت حربهما التي بدأت بالشعر ، وتوسّطت وختمت به كذلك ..

ولم تقتصر الفروسية والشعر على أبناء القبائل الأحرار في هذا العصر ، بل شملت كلَّ

(١) الشعر والشعراء ٧٤٦/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٧٤٧/٢ ؛ ديوانه ، ص ٢٩ وما بعدها ؛ ديوان العباس بن مرداس ، جمعه وحققه : د. يحيى

الجبوري ، دار الجمهورية - بغداد ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

(٣) الشعر والشعراء ٧٤٧/٢ .

طبقاته الاجتماعية بما فيهم الصعاليك^(١)، فلقد كان لهم نصيبٌ كبير من الشجاعة والإقدام، والتي توجوها بشعرهم، فنجد عروة بن الورد^(٢) يدعو على الصعاليك الذين رضوا بالبقاء وترك الشجاعة، كما يصف انبهار أعدائه بشجاعته بقوله^(٣):

لَحَى اللهُ صُعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مَضَى فِي الْمَشَاشِ آفَا كُلِّ مَجْزَرٍ^(٤)
وَلَكِنَّ صُعْلُوكًا صَحِيفَةً وَجْهَهُ كَصَوِّءِ شِهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ
مُطْلًا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشَهَّرِ

فهو هنا يصوّر مشهداً من حياة الصعلوك الحربية جرأة وإقداماً .

ويوجّه السليك^(٥) إلى محبوبته نصيحة، فيحذرها من الاتصال بالصعلوك الخامل الذي يعدّ من العيال؛ لاعتماده على غيره، وأن عليها الاتصال بالصعلوك الفارس، فهو الأفضل لفعاله الحربية^(٦):

فَلَا تَصَلِي بِصُعْلُوكِ نَوُومٍ إِذَا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ الْعِيَالِ
إِذَا أَضْحَى تَفَقَّدَ مِنْكَبِيهِ وَأَبْصَرَ لَحْمَهُ حَذَرَ الْهُزَالِ
وَلَكِنَّ كُلَّ صُعْلُوكٍ ضَرْوبٍ بِنَصْلِ السَّيْفِ هَامَاتِ الرَّجَالِ

(١) الصعلوك: الفقير الذي لا مال له. لسان العرب، مادة (صعلك)، وزاد أبو زيد القرشي: "وهو أيضاً

المتفرد للغارات". جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تأليف: أبي زيد القرشي، تحقيق: علي

محمد البجادي، دار نهضة مصر - القاهرة، ط ١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، ص ٥٦٥.

(٢) عروة بن الورد، شاعر جاهلي، فارس جواد مشهور.

ينظر في ترجمته: الأغاني ٣/٧٠.

(٣) ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت، حققه: عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد

القومي، د.ط، ص ٧٠-٧٣.

(٤) مضى في المشاش: أي مضى له مؤثراً للأكل.

(٥) السليك بن عمرو، والسلكة أمّه، وهو من شعراء الصعاليك في الجاهلية.

ينظر في ترجمته: الأغاني ٢٠/٣٤٦.

(٦) ديوان السليك بن السلكة، شرح: د. سعدي الضناوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١،

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص ٨٨ وما بعدها.

ويرسم تأبط شراً^(١) الصورة المثالية للصلعوك الفارس بقوله^(٢):

لَكِنَّمَا عَوِيَّ إِن كُنْتَ ذَا عَوَلٍ عَلَى بَصِيرٍ بِكَسْبِ الْحَمْدِ سَبَاقِ
سَبَاقِ غَايَاتٍ مَجْدٍ فِي عَشِيرَتِهِ مُرْجِعِ الصَّوْتِ هَدَاً بَيْنَ أَرْفَاقِ
عَارِي الظَّنَائِبِ مُمْتَدِّ نَوَاشِرُهُ مَدْلَاجِ أَدْهَمَ وَاهِي الْمَاءِ غَسَاقِ^(٣)
حَمَّالِ أَلْوِيَةِ شَهَادِ أُنْدِيَةِ قَوَالِ مُحْكَمَةِ جَوَابِ آفَاقِ
فَذَاكَ هَمِّي وَعَزْوِي أَسْتَغِيثُ بِهِ إِذَا اسْتَعْتَتْ بِضَافِي الرَّأْسِ نَعَّاقِ

فهو صلعوك يتصف بسبقه إلى المحامد في عشيرته ، جهوري الصوت ، لا يهمله بطنه ، ولا يخشى الأهوال ، فيقتحم الليالي المظلمة والممطرة ، وفي الحروب يكون المقدم فيها الذي يحمل لواءها ، وهو صاحب الرأي السديد ؛ لما يتميز به من راحة العقل .

فعندما جاء الإسلام تغيرت المفاهيم ، واختلفت الغايات عند هؤلاء الفرسان الشعراء ، فأصبح الجهاد شغلهم الشاغل ، وغاية حربهم هي الشهادة في سبيل الله ، حيث وجدوا طعماً لفروسياتهم ؛ طعماً حلوا يقودهم إلى الجنان .

قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ ﴿١١٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۗ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٨﴾ ﴾^(٥) .

(١) ثابت بن جابر بن سفيان ، وتأبط شراً لقبٌ لُقِّبَ به ، وهو من شعراء الصعاليك في الجاهلية .

ينظر في ترجمته : الأغاني ٢١/١٤٤ .

(٢) ديوان تأبط شراً وأخباره ، جمع وتحقيق : علي ذي الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ١٣٥-١٣٧ .

(٣) الظنابيب : جمع ظنوب ، وهو حرف عظم الساق . والنواشر : عروق ظاهر الذراع .

(٤) سورة آل عمران : الآيات (١٦٩-١٧٠) .

(٥) سورة الحديد : الآية (١٩) .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١).

ولهذا استمرَّ حبُّ الفروسية عندهم مع اختلاف الدافع وراء هذا الحبِّ ، فقد ساروا متبعين لمنهج القرآن في فروسيتهم وشعرهم ، مقتدين بخير الخلق ﷺ ، الذي حَبَّب إليهم الجهاد ورغَّبهم به ، وذلك بقوله ﷺ : « ما من عبدٍ يموت له عند الله خيرٌ يسره أن يرجع إلى الدنيا أن له الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد ؛ لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى » (٢).

وفي رواية عن أبي موسى الأشعري أن أعرابياً قال للنبي ﷺ : (الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ») (٣).

ولم يعد الفارس المسلم يخاف القتل أو يخشاه ، بل يقبل عليه إقبال الحبِّ المتشوق للقائه ؛ قال المغيرة بن شعبه لرستم لما خوِّفه القتال : " يدخل من قتل منّا الجنة ، ومن قتل منكم النار ، ويظفر من بقي منّا على من بقي منكم " (٤).

ولقد ترجم الشعراء الفرسان هذا الحبِّ في أشعارهم .

يقول كعب بن مالك (٥) في فتح خيبر (٦) :

(١) سورة التوبة : الآية (١١١) .

(٢) صحيح البخاري ٢٠/٤ .

(٣) صحيح البخاري ١٧/٤ .

(٤) الطبري ٥٢٥/٣ .

(٥) كعب بن مالك : شاعر فارس وصحابي من شعراء النبي ﷺ .

ينظر في ترجمته : الأغاني ١٦٤/١٦ ؛ وديوانه ، ص ٥٢٠ .

(٦) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، دراسة وتحقيق : سامي مكّي العاني ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ط ١ ،

١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م ، ص ١٩٦ .

وَنَحْنُ وَرَدْنَا خَيْرًا وَفُرُوضَهُ
جَوَادِ لَدَى الْغَايَاتِ لَا وَاهِنِ الْقَوَى
عَظِيمِ رَمَادِ الْقَدْرِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ
يَرَى الْقَتْلَ مَدْحًا إِنْ أَصَابَ شَهَادَةً
يَذُودُ وَيَحْمِي عَنِ ذِمَارِ مُحَمَّدٍ
بِكُلِّ فِتْيَ عَارِي الْأَشَاجِعِ مَذُودٍ^(١)
جَرِيءٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
ضُرُوبِ بِنَصْلِ الْمَشْرِفِيِّ الْمُهْتَدِ
مَنْ اللَّهُ يَرْجُوهَا وَفَوْزًا بِأَحْمَدِ
وَيَدْفَعُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ

وهذا عبد الله بن رواحة^(٢) يحث نفسه على طلب الشهادة وهو على فرسه في غزوة مؤتة^(٣):

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ
طَائِعَةً أَوْ فُلْتُكْرَهِنَّ
إِذْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّتَّةَ
مَالِي أَرَاكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ
وَطَالَمَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً
هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةَ

وعبر عروة بن زيد الخير^(٤) عن الرغبة الحقيقية للفراس المجاهد - وذلك في معركة نهاوند - بقوله^(٥):

- (١) الفروض: المواضع التي يشرب منها من الأنهار. والأشاجع: جمع الأشجع، وهو العصب الممدود فوق السلامي من بين الرسغ إلى أصول الأصابع فوق ظهر الكف.
- (٢) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي، شاعر مشهور. ينظر في ترجمته: الإصابة ٣٠٦/٢؛ ديوانه، ص ١.
- (٣) ديوان عبد الله بن رواحة، دراسة وجمع وتحقيق: د. حسن محمد باجودة، دار التراث، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، سنة ١٩٧٢م، ص ١٠٨ وما بعدها.
- (٤) عروة بن زيد الخير الطائي، صحابي مشهور، شاعر فارس، قيل: إنه عاش إلى خلافة علي، وشهد معه صفين.
- ينظر في ترجمته: الأغاني ١٨٤/١٧؛ الإصابة ٤٧٦/٢.
- (٥) الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، مطبعة السعادة - مصر، ط ١، ١٣٣٠هـ، ص ١٣٩ وما بعدها.

ولو شهدت يومِي جُلُولاءِ حربنا
إذا لَرأتُ ضَرْبَ امرئٍ غيرِ خاملٍ
وقد أضحت الدنيا لديّ ذميمةً
وأصبح همّي في الجهادِ ونيتي
فلا ثروة الدنيا تُريدُ اكتسابها
ويومَ نهاوندَ المَهولِ استهلتِ
مُجيدٍ بطعنِ الرُمحِ أروعِ مِصَلتِ
وسَلّيتُ عنها النفسَ حتى تسَلتِ
فَللهِ نفسٌ أدبَرَتِ وتولّتِ
ألا إنهما عن وفْرِها قد تجلّتِ

فكما كانت الحروب سبباً في كثرة الشعر والشعراء الفرسان في العصر الجاهلي ، كانت أيضاً سبباً في كثرة شعر وشعراء العصر الإسلامي ، فعندما جاءت الفتوح الإسلامية أمدت الشعر وغذته ، فاستمرت الكثرة المعهودة له منذ العصر الجاهلي .

" وإذا كانت الحرب منبغاً خصباً فاض منه الشعر الجاهلي ، وكاد يتحوّل هذا الشعر في بعض مراحلها إلى شعر معارك وحروب ، فقد ظلّ هذا النبع يمدّ الشعراء على مدى العصور الآتية . ويملك ديوان الشعر العربي قصائد غزيرة تحكي في صدق بطولات الإنسان العربي في سوح القتال . ففي الفتوح الإسلامية وجد الشعر مجالاً رحباً أمدّه بفيضٍ وفير ، حيث كانت موضوعات المعارك والوقائع هي الموضوعات المركزية والسائدة في القصيدة آنذاك ؛ إذ شغلت الفتوح الإسلامية المسلمين عن كلّ شيء في حياتهم ، إلا الفروسية والشعر ، ولا نكون مغالين إذا قلنا : إن الفتوح لم تقم إلا بهذين المظهرين من مظاهر الحياة العربية ، فكانت الفروسية سبباً في نجاح الفتح ، وكان الشعر نتيجة للفتوح^(١) .

ويرى الدكتور أحمد أحمد بدوي أن كثرة الحروب كانت سبباً في كثرة شعر الحماسة في العصرين الجاهلي والإسلامي ، وذلك بقوله : " وكانت الشجاعة من أرفع الصفات عند العرب في ذلك العصر ، مجدوها ، وقدروها حقّ قدرها . وكانت الخصومات لا تكاد تنقطع بينهم ؛ فكثر لذلك شعر الحماسة في العصر الجاهلي ، كما أن الظروف كانت تستدعي هذا الشعر في العصر الإسلامي على ألسنة الخوارج وغيرهم ، عندما شبت الحروب والخلافات بين عليّ ومعاوية والخوارج .

(١) شعر الفتوح الإسلامية في عصر صدر الإسلام ، النعمان عبد المتعال القاضي ، مصر ، ١٩٦٥م ، ص ١٧٣ .

وكان الشعراء الذين يقولون الشعر ممن يخوضون معارك القتال ، ويذوقون حرج مواقفها ، فخرج شعرهم قوياً ، صادق العاطفة ، مؤثراً في نفوس من يصغي إليه ^(١).

وكثر الشعراء الفرسان في العصر الإسلامي مقرونة بكثرة نتاجهم الشعري ، وهذا بخلاف قول ابن سلام : " فجاء الإسلام وتشاغلته عن الشعر العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت (العرب) عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمن ، راجعوا الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير " ^(٢).

ويقول الدكتور عبد الرحيم زلط معترضاً على هذا القول : " حسب الباحث أن يجد من عداد الشعراء الذين ذكروهم كتب التاريخ والتراجم ، والذين أرخوا لعصر صدر الإسلام ومجالس الرسول ﷺ والفتوحات الإسلامية ، حسبه أن يجد منهم على سبيل المثال لا الحصر من عاشوا تلك الفترة ، وكانت لهم قدم راسخة في النظم والإشادة بالمواقف الإسلامية العديدة ، ومنهم : حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ، وعباس بن مرداس ، وأبو محجن الثقفي ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم .. وهؤلاء استطاعوا بنظمهم الوفير أن يردوا على ابن سلام من أن الفتوح لم تشغل العرب عن النظم ، ولكنها كانت من أهم أسباب كثرة شعر العصر ؛ لأن الشعر مما يوجب الحروب ، ويمكن أن تكون الحرب من عوامل ركود أي فن آخر ، كالكتابة مثلاً ، ولا تكون في الشعر وحماسته وأناشيد الدعوة لخوض المعارك " ^(٣).

ولقد صدق في ذلك ؛ لأن في إشعار الفرسان ما يثبت حقاً كثرة الشعر في ذلك الوقت ، فالشعر واكب الأحداث التاريخية ، ولا سيما معارك الرسول ﷺ ضد المشركين ، فقد كان

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب ، تأليف : أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، ط ٣ ، ١٩٦٤م ، ص ٢٨٦ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ٢٥/١ .

(٣) التأثير النفسي للإسلام في الشعر ودوره في عهد النبوة ، د. عبد الرحيم محمود زلط ، دار اللواء ، ط ١ ،

١٤٠٣هـ ، ص ٦٦ .

لها نصيبٌ وافر من نتاج الشعراء^(١).

ومن الغريب أن يجعل ابن سلام الفتوحات سبباً في ركود الشعر ، وهو الذي علل قلة شعر قريش وعمان وأهل الطائف بأنهم لم يكن بينهم ثأر ولم يجاربوا ، مع أن الشواهد على عدم صدق هذا الرأي أو القول عديدة ، كما أشير إلى ذلك .

ولقد صورّ الفرسان الشعراء في صدر الإسلام الحربَ بصُورٍ متعدّدة ، فمنهم من يراها عوان ضروس ؛ يقول كعب بن مالك^(٢):

وأبقت لنا جَلَمَات الحرو	ب ممن نوازي لَدُن أن بُرينا
معاطن تهدي إليها الحقو	ق يحسبها من رآها الفتينا
نخيس فيها عتاق الجمما	ل صحما دواجم همرا وجونا
ودفاع رجل كموج الفرا	ت يقدم جلواء جولاً طحونا
تري لوها مثل لون النجو	م رجراجة تبرق الناظرينا
فإن كنت عن شأننا جاهلاً	فسل عنه ذا العلم ممن يلينا
بنا كيف نفعل إن قلصت	عواناً ضروساً عضوضاً حجونا
ألسنا نشدّ عليها العصا	ب حتى تدر وحتى تلينا

ومنهم من يراها عاملاً سلبياً في تحويل العمر الحقيقي للإنسان ؛ إذ تحول الشاب إلى شائب بما توقعه من تغير ، سواد الشعر إلى ابيضاضه ، وذلك من جراء ما يراه المحارب في المعارك من أهوال ومهالك ، وهذا ما نلاحظه في قول عبيد الله بن قيس الرقيات^(٣) ، الذي يصور فيه ما تركته الحرب من آثار عليه^(٤):

(١) ينظر على سبيل المثال : شعر العباس بن مرداس في غزوة القادسية .

(٢) ديوان كعب ، ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات بن شريح بن مالك .

ينظر في ترجمته : الأغاني ٦٤/٥ ؛ وديوانه ، ص ١ .

(٤) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق وشرح الدكتور : محمد يوسف نجم ، دار بيروت ، ١٣٧٨هـ -

١٩٥٨ م ، ص ١١٣ .

إِنْ تَرَيْنِي تَغَيَّرَ اللَّوْنُ مَنِّي وَعَا الشَّيْبُ مَفْرَقِي وَقَذَالِي
فَظَلَالُ السُّيُوفِ شَيِّنَ رَأْسِي وَطَعَانِي فِي الْحَرْبِ صُهْبَ السَّبَالِ
وَاعْتَرَابِي عَن عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ بِيَلَادِ كَثِيرَةِ الْأَقْتَالِ
وَمُلُوكِ فَارَقَتْهُمْ أَفْرَدُونِي وَصُرُوفِ الْأَيَّامِ بِي وَاللِّيَالِي

إذاً ، فإن لشعر الفروسية في العصرين (الجاهلي والإسلامي) حضوراً ظاهراً ، كما أن للفارس الشاعر مكانة عالية وصوتاً مسموعاً ، فقد أضحى للشعر دورٌ بارزٌ في رصد الحروب والمعارك التي دارت ، فالحق يقال : إنه لولا شعر الحرب لَمَا استطعنا الإلمام بجميع المعارك التي سكت عنها المؤرخون ، وتحدث عنها الشعراء بكل فخر . ولا يخفى على أحد ما قام به الشعر من دورٍ عظيمٍ في تخليد تلك الوقائع والحروب ، وتصويرها تصويراً واقعياً ، حتى كثر الاستشهاد به في كتب التاريخ والمغازي^(١).

فقد أظهر " الشعر سيطرته على مجرى التاريخ إبان اشتداد الأزمات وتفاقم الحوادث وقيام الحروب ، ولذلك يُعدّ مصدراً من مصادر التاريخ المهمة ، لا يستغني عنه المؤرخ الذي ينشد الدقة والموضوعية في تاريخه "^(٢).

ويرى بعض الدارسين أن شعر الحرب عند العرب يُشكّل نوعاً من الملاحم ؛ يقول الدكتور بلاشير : " ويؤلف شعر الحرب في أخبار (أيام العرب) جزءاً من الخبر ، كما يشكل شعر الحرب إلى حدٍّ ما ، عناصر نوع من الشعر الملحمي (geste) مركزة الصدامات المشهورة كيوم رحران حوالي سنة (٥٨٠م) في أواسط شبه الجزيرة ، أو يوم ذي قار حوالي سنة (٦٠هـ) بين عرب الفرات والفرس . ونشأ عند التوسع الإسلامي نوع من الشعر الملحمي بمناسبة انكسار الفرس وانهمزامهم في القادسية حوالي سنة (٦٣٦م) "^(٣).

(١) ينظر على سبيل المثال : الكامل في التاريخ ، تاريخ الأمم والملوك للطبري ، تاريخ الإسلام .

(٢) دراسات ومقالات في الأدب العربي ، د. حمد بن ناصر الدخيل ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، ص ٣٠ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ، د.ر. بلاشير ، ترجمة الدكتور : إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ -

١٩٨٤م ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

فقد كان من المتوقع من الشعراء العرب في ظلّ هذا الترابط المتين بين الفروسية والشعر أن يؤلفوا ملاحم لهذه البطولة ، ويقفوا عليها مثل غيرهم من الأمم ؛ لتوفّر مقومات هذا البناء الفني (الملحمي) ؛ يقول الدكتور جورج غريب في ذلك : " ولكنهم في كلّ ذلك لم يستسيغوا هذا النوع من الأدب ولم يقلّدوه ، فظلوا في معزل عنه ، فلا عجب أن يتهمهم ابن الأثير بالتقصير في مدى الإطالة الشعرية ، وهم أبناء بطولة وفروسية وفيض شعري ، لا شكّ أن لذلك أسباباً وعللاً يقف عليها من يماشى أطوار الشعر العربي وسجل تاريخ العرب . ومما لا ريب فيه أن الجاهلية كانت خير بيئة مهياً لنشوء الملاحم ، بفضل ما فيها من أحداث ، وبطولات ، وأساطير ، وفروسية ، وعصبية ، وغزوات ، ومفاخرات ، ومنافرات ، وأسواق للشعر والخطب ، وحروب ، وأحاديث ، وخوارق ، وتبجح بالأنساب ، ووصف لميادين القتال . ومع هذا خلت من الفنّ الملحمي . قد تكون أسباب هذا الإغفال كثيرة ، ولكن يمكن حصرها على وجه الإجمال في البيئة ، والاجتماع ، وطبيعة العيش"^(١).

ويبالغ بعض الدارسين في إيجاد هذا الفنّ في الشعر العربي بقوله : " وإذا كان الأدب العربي قد خلا من الملحمة كما رأيناها عند الأمم الأخرى ، فإن شعر العرب في الحماسة يشكل ملحمة مقطعة الأوصال قد اشترك في وضعها شعراء لا يحصى عددهم ، فلو أتيح لشاعرٍ كبير أن يجمع شتات الشعر الحماسي عند شعراء الجاهلية وأخبار حروبهم وأيامهم ، لكان له من قصائد عنتره وأخباره ، ومن شعر المعلقات ، ومن سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، ومن أخبار حساس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، وغيرهم ملحمة متكاملة الأجزاء ، تكون ملحمة عربية جاهلية ، تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها ، وتؤرخ لشعب كان القتال حبه اليومي . كذلك لو نظرنا إلى تاريخ العرب منذ فجر الإسلام ، مروراً بالفتوحات ، ووصولاً إلى حرب العرب والروم في العهود العباسية ، لكان لنا من شعر أبي تمام ، والبحثري ، والمنبني ، وغيرهم .. ما يشكل أروع الملاحم"^(٢).

فعدم وجود الملاحم في الشعر العربي لا ينقص من قدرهم ولا من قدر فروسيّتهم ، فلقد

(١) الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه ، جورج غريب ، دار الثقافة ، ط ٣ ، ١٩٧٩م ، ص ٩ وما بعدها .

(٢) أروع ما قيل في الفخر والحماسة ، إعداد : إميل ناصف ، دار الجيل ، ط ١ ، ١٤١٣هـ ، ص ٩ .

سجل لنا الشعراء روائع الفروسية العربية .

" وجملة القول : إنّ الأدب العربي يخلو تماماً من شعر الملاحم بصفاته وشروطه وقواعده المعروفة له ، وإنّ شعر الحماسة ... لا يدخل في هذا الضرب من الشعر لمجرد كونه شعراً حربياً ، يعني بتصوير المعارك والالتحام ، كما أنه لا ترتبط بهذا الضرب صلة ما تخول لبعض الدارسين أن يفترضوا أن أشعار العرب المفرقة في أيامهم ومعلقاتهم ، وغزوات نبينهم وفتوحاتهم تكون ملحمة كبرى للعرب ؛ ذلك لأنّ هذه الأشعار في مجموعها تدخل في باب الشعر الغنائي ، الذي يعنى الشاعر فيه بتغني عواطفه ووجدان قومه وجماعته كما يشعر به ، ويصور أحداثاً يعيشها ، بينما يعنى شعر الملاحم باستدعاء أحداث خارقة عظيمة قديمة ومغرقة في القدم ؛ ليحكىها في إطار من التلفيق والخرافة والتهويل ، ويشيع فيها جواً أسطورياً يصور طفولة الأمة في فجر الإنسانية"^(١).

ومن خلال الاطلاع على كتب التراجم والتاريخ والأدب نجد عدداً غير قليل من الشعراء الفرسان في العصر الجاهلي ، والإسلامي ، ولكن هذا العدد أخذ يقلّ تدريجياً مع مرور الزمن ، فكثرة الشعراء الفرسان لم تدم طويلاً ، حيث بدأت أعدادهم تتضاءل في العصر الأموي والعباسي وما بعده من عصور ، إلى أن أصبحت قلتهم ظاهرة واضحة في الشعر العربي ، ولهذا القلة أسباب ، نحاول الوقوف على بعض منها :

● البعد عن النشأة البدوية التي كانت من أهمّ مقومات الفروسية ، والاتجاه إلى المدينة وحضارتها ، والانشغال بالحياة وملذاتها ؛ فإنّ " طبيعة البيئة وطبيعة الحياة الاجتماعية جعلت العربي فارساً بالضرورة ؛ لأنّ الفروسية ... عنصر مهم من عناصر حياة العربي ، بل تمثل العنصر الحيوي ، فتكون بذلك الفروسية ظاهرة طبيعية في حياة العربي ينشأ عليها ويعايشها طيلة حياته"^(٢).

ولكن مع تغير هذه الحياة تغيرت مفاهيم الفروسية لدى الشعراء .

(١) شعر الفتوح الإسلامية ، ص ٢٦ .

(٢) مفهوم الفروسية في التراث العربي وأثره في فروسية القرون الوسطى في أوروبا ، فوزية بومزار ، الموسوعة الصغيرة ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق ، ١٩٨٦ م ، ص ٣٠ .

● اندماج العرب بغيرهم من الأمم أضعف لديهم بعض القيم أو طمسها ، فقد انبهروا بكلّ جديد وأظهروا له الولاء ، وأهملوا كلّ قديم وأظهروا له البراء . فعلى الرغم من كثرة الفتوحات التي خاضها العرب بعد العصر الإسلامي ، إلا أنهم لم يتركوا في الأدب إلا أثراً ضئيلاً ، " وذلك أنهم لم يتعودوا الفخر بالأعمال القومية ، التي يشترك في فخارها المصري والبيكري والتغلي ، ولم يتعودوا أن ينظموا القصيدة في الفخر على أعجمي ، وإنما هم كانوا يترفعون على الأعجمي ترفعاً بدهياً بسيطاً لا يتكلفون له عناء النظم ، ولا يحتفنون بالقول .

ولقد أصبح حكم العرب بيد غيرهم بعد أن كانوا هم القواد والسادة ، وبعد أن كان السبب في رئاسة القبيلة في الفروسية ولا شيء غيرها ؛ يقول عامر بن الطفيل^(١):

فإني وإن كنتُ ابنَ فارسِ عامرٍ وفي السرِّ منها والصريحِ المَهْدَبِ^(٢)
فما سَوَدَّتْني عامرٌ عن ورائةٍ أبى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ
ولكنِّي أحمي حماها وأتقي أذاها وأرْمِي مَنْ رَمَاهَا بِمِقْنَبِ^(٣)

ويقول المتنبي^(٤) بعد أن أصبح أمر العرب بيد العجم^(٥):

وإنما الناسُ بالملوكِ وما تفلحُ عربٌ ملوكهم عجمُ
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمُّ

(١) ديوانه ، ص ٢٨ .

(٢) الصريح المهدب : الصافي الأصل ، النقي من العيوب .

(٣) المقنب : جماعة الخيل تجتمع للغارة .

(٤) أحمد بن الحسين ، المعروف بالمتنبي ، الشاعر الحكيم .

ينظر في ترجمته : الأعلام ١/ ١١٥ ؛ يتيمة الدهر ١/ ١٣٩-٢٧٤ ، معجم المؤلفين ١/ ٢٠١ .

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح أبي البقاء العكبري ، المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣ م ، ٥٩/٤ .

ولم يتغير نظم السيادة عندهم ، بل حتى " في المدح تغيرت المثل العليا تبعاً لتغير الحياة الاجتماعية ، والمعايير الخلقية ، فبعد أن كانت الشجاعة والكرم وحماية الجار هي أهم ما يدور على ألسنة المادحين ، صرنا نرى أوصافاً أخرى ترسم لنا شخصية مثالية غير تلك التي رسمها العصر الجاهلي لنفسه على ألسنة شعرائه ، شخصية تتحلّى برقة الحاشية وعدوبة الروح والظرف ، وغير ذلك من الصفات التي يطلبها مجتمع متحضّر" (١) .

فلم يعد للفروسية ذاك البريق الذي كان يلمع ؛ حتى إنّ النقاد أنفسهم أغفلوا باب الحماسة ؛ يقول الدكتور أحمد بدوي : " غير أنّ نقاد العرب أغفلوا هذا الباب إغفالاً تاماً ، فلم يذكروه بين أغراض الشعر العربي ، ولعلّ سرّ هذا الإغفال يعود إلى أن الحماسة وشعرها لم يعد لهما مكان في العصر الذي كتبوا فيه أسس نقدهم لأغراض الشعر العربي ، فإنّ العنصر العربي كان قد تراجع عن مكان الصدارة في قيادة الجيوش ، وحلّ محلهم منذ قامت الدولة العباسية أجناسٌ أخرى ، كالفُرس ، والترک ، والديلم ، والأكراد ، والشراكسة ، ولم يعد الشعراء يخوضون غمرات القتال ، فيصفون إحساساتهم في ميادين الحروب . وإذا مجدّ الشعراء قتالاً أدخلوا هذا التمجيد في أغراضهم الأخرى من مدحٍ وثناء . ولهذا لم يكن شعر الحماسة متميزاً بين فنون الشعر ، ولكنه مندمج فيها ، فلم يفردّه النقاد ببابٍ خاصّ يتحدّثون عنه" (٢) .

فنتيجة تغير الحياة حرص العربُ على مزاولة الأعمال الحرفية ، والصناعية ؛ لأنّ فيها استقراراً وابتعاداً عن المخاطر التي كانت تلوح لهم في كلّ معركة . وهذا الاستقرار يقود الفروسية إلى الفناء ، فهم ليسوا بحاجة إلى فرسان بقدر حاجتهم إلى عمال . ولعلّ استشعار الفارس الشاعر بهذا الخطر هو الذي جعله يمدح قومه بأنهم ليسوا

(١) الشعر العربي بين الجمود والتطور ، تأليف : محمد عبد العزيز الكفراوي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ،

ط ٢ ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م ، ص ١٣٨ وما بعدها .

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ، ص ٢٨٦ وما بعدها .

بأصحاب مزارع ولا أبقار ؛ لما تجرّه هذه الحرفة على شجاعتهم من دمار ؛ يقول
العباس بن مرداس^(١) :

واذْكَرَ بلاءَ سُلَيْمٍ في مواطنها وفي سُلَيْمٍ لأهلِ الفَخْرِ مُفتخِرُ
قوم هم نصرُوا الرَّحْمَنَ واتَّبَعُوا دينَ الرِّسُولِ وأمرُ الناسِ مُشْتَجِرُ
لا يَغْرِسونَ فسيلَ النَّخْلِ وسَطَهم ولا تَحاورُ في مَشتاهمُ البقرُ
إلاَّ سَوابِحَ كالعِقبانِ مَقْرَبَةً في دارَةٍ حولها الأخطارُ والعَكْرُ

فهم فرسان لا يبدلون فروسياتهم بالحرف التي تدفعهم إلى ترك الجهاد ، والتهاون في تلبية دعوته لارتباطهم بهذه الحرف . ولكن مع مرور الوقت اتجه الناس إلى مزاولة الحرف بحثاً عن الاستقرار ، وبعداً عن الأهوال .

● انصراف بعض المجاهدين إلى القتال وخوض المعارك وتركهم للشعر ؛ لحرصهم على الجنة وبعدهم عن بلاط الحكام ، وخير شاهد لبيد . وأصبح الشعراء في الغالب من غير الفرسان ، " فالشاعر العباسي ليس فارس حلبة ، فقد ودّع الشعراء هذه المزية منذ أن انتهى عصر الفتوح الأولى ، عندما كان جميع أبناء العرب يتحمّلون عبء الجهاد ، وعندما كان الشاعر أحد تلك الأمة ، فهو مجاهد أولاً ، وشاعر ثانياً ، أو هو فارس شاعر يخوض غمار الحرب ، فتتهيج المعركة الشعر ، ويكون فيه رهج الحرب وحميّاها .

ولكنّ حال الشاعر تغيرت منذ العصر الأموي ، فلم يعد مكلفاً بالقتال ولا كلفاً به ؛ فالقتال أصبح له رجاله ، ولهم أعطيات من بيت المال "^(٢) .

إضافة إلى النظرة المتعالية عند بعض الفرسان ، حيث يرون أن الشعرَ عاجزٌ عن تصوير براعتهم وشجاعتهم ، فلم يهتموا لأمره ، بل لقد تغيرت المفاهيم الشعرية عندهم ؛ لأنّ الشعر أصبح حرفة للتكسب ، وهم يترفعون عن التكسب بشعرهم في الغالب .

(١) ديوان العباس بن مرداس ، ص ٥٤ .

(٢) شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ (العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع) ، تأليف : د. نصرت

عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط ١ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ، ص ٧٩ .

ولعلّ هذا السبب من أهمّ الأسباب ؛ لأنّ أغلب الشعراء اكتفوا بالمال عن الجهاد ، فأصبحت الفروسية عند أكثرهم رمزاً للبطولة أكثر من كونها واقعا لا بدّ له من أن يخوض غمارها ، واكتفى بالإشارة إليها في شعره بدل أن يلتمسها ، فقد غدت الفروسية مثل الشمس التي يصفها الشعراء ولا يستطيعون الوصول إليها ، فهي عندهم مثل وقيم يلتزمون بها في أشعارهم دون الحرص على التحلي والامتثال بها في أرض المعركة ، وأصبح جلّهمم الشعر دون القتال ، والمال دون التضحية والفداء ، وهذا ما أفقد شعر الفروسية قوته السابقة ، وترتّب على ذلك قلة الشعراء الفرسان ؛ لأنّ كثرتهم وقتلتهم مرتبط بمدى التمسك بالفروسية والحرص على الامتثال بها في واقعهم قبل أشعارهم . إضافة إلى أنه لم يعد للشعر تلك المكانة المعهودة التي عرفت في العصور السابقة ؛ يقول الأديب الغزّي^(١) في فضيلة الشعر : " إن الشعر زُبدة الأدب وميدان العرب ، كانوا في جاهليتهم يعظّمونه تعظيم الشرائع ، ويعدّونه من أعلى الذرائع . وجاء الإسلام فأجراه على الرسم المعهود في قطع لسان قائله بالجوّد . وإذا طالعت الأخبار ، وصحّ عندك ما فاض من إحسان النبي ﷺ على حسّان ، وثابت بن قيس ، وخلعه البردة على كعب بن زهير ، واهتزازه للشعر الفصيح ، وقوله : « إن من الشعر لحكماً » ، علمت أنّ إكرام الشعراء سنّة ألغاهها الناس لعمى البصائر ، وتركيب الشحّ في الطباع . وقد كنتُ في عنفوان الصبا ألمّ بخزامي الرُّبا ، وأنظّمه في غرض يستدعيه ، لأذنّ تعيه ، فلما دُفعتُ إلى مضايق العُربة جعلته وسيلةً تستحلبُ أخلاف الشيم ، وتستخرج دُرر الأفعال من أصداف الهمم ، حتى إذا خلا الزمان من راغبٍ في منقبةٍ تُحمد ، ومأثرةٍ تخلد ، وثبت من الانزواء على فريسةٍ لا يزاحمي فيها أسد ، ولا يرضى بها أحد ، على أن من ساله الزمان أجنانه ثمر الإحسان ، ومن ساعدته الأيام أعثرته على الكرام .. " ^(٢) .

هذا ومع قلة الشعراء الفرسان ، إلا أن الفروسية دائمة ومتجددة في الأذهان ؛ لأنّ

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي ، المعروف بالغزي ، شاعر من شعراء الشام . ينظر في ترجمته : خريدة القصر وجريدة العصر ، للعماد الأصفهاني ، قسم شعراء الشام ، تحقيق : د. شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية بدمشق ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م ، ٥/١ .

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر ٣/١ - ٥ .

العرب قد شغفوا بها منذ قديم الأزمان ، وأظهروا لنا هذا الشغف والولع في أشعارهم التي ما زالت تردُّ على الأذهان وتستقرُّ في النفوس ، فقد ذهبت فروسيّتهم الحقيقية وبقيت فروسيّتهم المعنوية المتمثلة في أشعارهم ، وهذا ما ميّز الشعراء الفرسان على غيرهم من الفرسان ، الذين لم يدُم لهم ذكر ، ولم يخلد لهم فعل ، ليس لعدم مقدرتهم القتالية ؛ بل لأنّه لم تقترن تلك المقدرة البطولية بالمقدرة القولية التي تضمن لهم الحضور المعنوي في كلّ محفل بطولي على مرّ التاريخ .

هذا ، وقد ظهر تأثير الشعر الفروسي على النفس البشرية منذ القدم ، فمن المواقف التي تدلّ على ذلك التأثير : " يروى أنّ ابن سيرين قال : بينما رسول الله ﷺ في سفره قد شقّ ناقته بزمامها حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرّحل ؛ إذ قال : يا كعب بن مالك : احدُ بنا ! فقال كعب :

قَصِينَا مِنْ تَهَامَةٍ كُلِّ حَقٍّ وَخَيْرَ ثَمِّ أَجْمَمِنَا السِّيُوفَا
تَخِيرَهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لِقَالَتْ قَوَاطِعَهُنَّ دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا

فقال السّكيتي : « والذي نفسي بيده لهي أشدّ عليهم من رَشَقِ النَّبْلِ ! » . ويقال : إنّ دوساً أسلمت فرقاً من كلمة كعب هذه ، وقالوا : اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان من قبل أن يتزل بكم ما نزل بغيركم " (١) .

كما كانت أبيات قالها أبو محجن^(٢) سبباً في فكّ أسره ، وذلك عندما كان محبوساً عند سعد ، وطلب من زوجة سعد أن تفكّ وثاقه ليقاتل مع المسلمين في معركة القادسية ، وأقسم لها أن يرجع ، فرفضت رجاءه ، " فقال :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيَا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصاريع دوبي قد تصمّ المناديَا

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ، لأبي إسحاق الحصري ، ضبط وشرح : د. زكي مبارك ، دار الحيل ، بيروت ، ط ٤ ، ٦٥/١ .

(٢) أبو محجن عبد الله بن حبيب الثقفي ، شاعر فارس ، من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام . ينظر في ترجمته : الأغاني ٢٨٩/١٨ ؛ والإصابة ١٧٣/٤ .

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
ولله عهد لا أخيس بعهدِه لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

فلما سمعت سلمى شعره رقت له وأطلقته ، فاقتاد البلقاء^(١) ، وركبها وعليه سلاحه ، وانطلق يقصف الأعداء بسيفه قصفاً منكراً ، وسعد يقول : لولا محبس أبي محجن لقلت : هذا أبو محجن^(٢) .

ثم عاد إلى وثاقه وأخبرت زوجة سعد زوجها ، فأطلق سراحه ، وبذلك انتهت معاناة ذلك الفارس الذي لا يجد طعاماً للسعادة إلا في ظل فروسيته .

كما قد يمنع الفارس عن التولي يوم الزحف قول بيت من الشعر ، وذلك مثلما حدث مع معاوية^(٣) ؛ إذ يقول : " اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتني ليلة الهريير بصفين ، وقد أوتيت بفرس أغرّ محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملني على الإقامة إلا أبيات لعمر بن الإطنابة^(٤) :

أبت لي همّتي وأبي بلائتي وأخذني الحمد بالثمن الريح
وإقحامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعدُ عن عرض صحيح

(١) البلقاء : هي فرس سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه .

(٢) عيون الأخبار ، تأليف : أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، المجلد الأول ، كتاب الحرب ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م ، ٢٩٦/١٨ .

(٣) معاوية بن أبي سفيان ، صخر بن حرب بن أمية ، أسلم بعد الحديبية ، وكنم إسلامه حتى أظهره عام الفتح . ينظر في ترجمته : الإصابة ٤٣٣/٣ .

(٤) هو عمرو بن الإطنابة ، نُسب إلى أمّه ، وأبوه عامر بن زيد ، شاعر فحل وفارس شجاع من فرسان الجاهلية . ينظر في ترجمته : الأغاني ١٢١/١١ .

العمدة ٢٩/١ . والغرض من ذكر هذا الشاهد هو إثبات مدى تأثير الشعر على النفس دون التطرق إلى ما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

ولقد استطاع عبد الله بن المبارك^(١) أن يؤثر في عابد بأبيات من الشعر أرسلها إليه .
 " عن محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة قال : أملى عليّ ابن المبارك سنة سبعين ومائة ،
 وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض من طرسوس :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لَو أَبْصَرْتَنَا	لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بِدُمُوعِهِ	فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ	فَخِيُولُنَا يَوْمَ الصَّيْحَةِ تَتْعَبُ
رِيحَ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا	رَهَجَ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الْأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِينَا	قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي	أَنْفِ امْرئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا	لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم ، فلما قرأه ذرفت عيناه ، ثم قال : صدق أبو
 عبد الرحمن ونصح " ^(٢) .

وعليه فإنّ الفروسية كانت وما زالت فتناً قائماً في شعر العرب ، قد نشأت على
 خصائص ، وثوابت لا تحيد عنها ولا تميل ، فهي كلمة جامعة لكل أخلاق العرب
 وفضائلهم ، ولقد استطاع الشعر أن يقف بنا على خصائص الفروسية . وقد استنتج
 الدكتور محمود أبو ناجي خصائص الفروسية من واقع شعر الفرسان في الجاهلية والإسلام^(٣) ؛
 لأنّ ذلك العهد هو عهد الفروسية وأوج ازدهارها .

(١) عبد الله بن المبارك ، أبو عبد الرحمن الحنظلي ، شاعر مُحسن .

ينظر في ترجمته : سير أعلام النبلاء ، تصنيف : شمس الدين محمد الذهبي ، تحقيق : نذير حمدان ، مؤسسة
 الرسالة - بيروت ، ط ١١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ٣٧٨/٨ .

(٢) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، للحافظ المؤرخ : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، حوادث
 ووفيات (١٨١هـ - ١٩٠هـ) ، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ ،
 ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٣) ينظر : شعراء العرب الفرسان في الجاهلية و صدر الإسلام ، تأليف الدكتور : محمود حسن أبو ناجي ،
 مؤسسة علوم القرآن ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ ، ص ٢٩-٤٨ .

كما يعتبر بطرس البستاني التكاثر والغلو من خصائص شعر الفروسية ، " فإن الموقعة الصغيرة تبدو ملحمة كبرى ، والعدد القليل يجرّ جيشاً عرمرماً ، ونفيراً من القتلى يعدّ بالمئات والألوف . على أن غلوهم لا يأتي مستقبحاً ، وهو وليد العاطفة المتحمسة تجعله قريباً إلى النفس ، والفطرة الساذجة تمسحه بجمالها الجذاب يخالف الحقيقة ، ويصدق في شعوره الفني . يجري مع الطبع في نشوة خاطر المتدفق ، لا يهيئه العقل في يقظة الفكر المتكلف" (١).

فمبالغات الفرسان مبالغات مقبولة ؛ لأنّ الفارس تمنعه فروسيته بأن ينسب لنفسه ما ليس فيه ، ولكن قد يتمادى قليلاً في مباهاته بتلك الفروسية ، كقول عنتره (٢) :

إِنَّ لِي هِمَّةً أَشَدَّ مِنَ الصَّخْرِ رِ وَأَقْوَى مِنْ رَاسِيَاتِ الْجِبَالِ

وقول المتنبي (٣) :

أمثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إليّ شخصاً لحضب شعر مفرقه حسامي
إذا امتلأت عيون الخيل مّني فويل في التيقظ والمنام

وتعتبر الفروسية والشعر شيئاً واحداً لا يفصل بينهما ، فمتى ما وُجد الشعر نجد للفروسية ذكراً فيه ، ولو كان عارضاً ؛ لأنّ الفروسية ومضامينها جزء من حياتهم ، تتجلى لهم في كلّ وقتٍ ومكان ، فهي مغروسة في نفوسهم ، اتخذت من الشعر جذوراً لها .

فلقد ارتبطت الفروسية بالفخر ارتباطاً كبيراً جعلها تحتلّ جزءاً كبيراً من دواوين الشعراء الفرسان ، وخصوصاً فخرهم بإقبالهم على الموت في ساحات الحرب .

(١) الشعراء الفرسان ، بطرس البستاني ، دار الكشوف ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٤٤م ، ص ٢٩ .

(٢) ديوان عنتره ، ص ١٣٦ .

(٣) ديوان المتنبي ٤/٤٥ .

يقول السمؤال بن عاديا^(١):

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سَبَةً
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَاتِ^(٢) نَفُوسُنَا
ويقول بشامة^(٣) بن حزن النهشلي^(٤):

وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا
إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوْعِ أَنْفُسَنَا
بِيضٌ مَفَارِقُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُنَا
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَا
إِذَا الْكِمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَصِيْبَهُمْ
وَلَا تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مَصِيْبَتُهُمْ
إِلَّا افْتَلِينَا غَلَامًا سَيِّدًا فِينَا
وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أُغْلِينَا
نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا
مَنْ فَارَسٌ خَالَهُمْ إِيَاهُ يَعْنُونَا
حَدُّ الطُّبَاتِ وَصَلْنَا بِأَيْدِينَا
مَعَ الْبِكَاةِ عَلَى مَنْ مَاتَ يَكُونَا

كما افتخر الفرسان بحروهم ، فمن ذلك قول بشر بن أبي خازم^(٥):

سَائِلٌ تَيْمًا فِي الْحُرُوبِ وَعَامرًا
وَهَلِ الْمُجْرَبُ مِثْلُ مَنْ لَمْ يَعْلَمِ

(١) السمؤال بن عاديا ، شاعر جاهلي ، اشتهر بوفاته حتى ضُرب به المثل في ذلك ؛ لأنه أسلم ابنه حتى قتل .

ينظر : معجم شعراء الحماسة ، ص ٥٤ ، ديوانا عروة بن الورد والسمؤال ، دار بيروت ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ، ص ٩١ .

(٢) الطُّبَاتِ : السيوف .

(٣) بشامة النهشلي ، لم يقف صاحب معجم شعراء الحماسة على ترجمة له ، ص ١٤ .

(٤) الحماسة ١/ ٧٨ .

(٥) بشر بن أبي خازم ، شاعر جاهلي من بني أسد ، من شعراء الطبقة الثانية عند ابن سلام .

ينظر في ترجمته : ديوانه ، ص ١٦ .

ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، تحقيق : د. عزة حسن ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ، ص ١٨٠ وما بعدها .

غضبتُ تميمٌ أن تقتلَ عامرٌ
كُنّا إذا نَعَرُوا حَرْبَ نَعْرَةٍ
نَعْلُو القَوَانِسَ بالسِّيَوفِ وَنَعْتَزِي
يَوْمَ النَّسَارِ فَأَعْتَبُوا بالصَّيْلِمِ
نشفي صُداعَهُمْ برَأْسِ مِصْدَمِ
والخيلُ مُشْعَلَةُ النَّحُورِ مِنَ الدَّمِ

ويعلن المتنبي حقيقة المجد المنشود الذي يجعل لصاحبه دويًا على مرّ الأزمان بقوله^(١):

ولا تحسبنّ المجدَ زَقاً وَقِينَةً
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأن تُرى
وتركك في الدنيا دَويًّا كأنما
فما المجدُ إلا السيفُ والفتكَةُ البَكْرُ
لك الهبواتُ السَّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ
تداولُ سَمْعِ المرءِ أنمْلُهُ العِشْرُ

ولقد ظهرت فنون شعرية متصلة اتصالاً مباشراً بالفروسية ، مثل : الحماسة ، والمنصفات ، والمندرات ، والنقائض الجاهلية .

فالحماسة تحتلّ جزءاً كبيراً من شعر العرب ، ولقيت اهتماماً من الشعراء والكتاب في جمعها^(٢).

أما المنصفات فهي تلك القصائد التي " يمدح فيها الشاعرُ أعداءه ، ويذكر ما أوقعوا بقومه ، وما أوقع بهم إنصافاً وعدلاً " ^(٣).

والإنصاف دليل على الفروسية المتمثلة فيهم قولاً وفعلاً ، " ولطالما أولع العرب بالإنصاف في شعرهم وحرّهم وسلّمهم وتحاكمهم ، فمن إنصافهم في الشعر : الصدق في التعبير عما تكّنه نفوسهم ، والصدق في ذكر الوقائع والأحداث والعواطف ، فالصدق أظهر سمة من سيماء المنصفات أو هو لبّها " ^(٤).

(١) ديوان المتنبي ١٤٩/٢ .

(٢) مثل الحماسة لأبي تمام ، والحماسة للبحثري ، والحماسة الشجرية ، للشريف ضياء الدين ، المعروف بابن الشجري ، والحماسة البصريّة ، لصدر الدين بن الحسن البصري ، وغيرها .

(٣) طبقات فحول الشعراء ، حاشية ١/١٤٥ .

(٤) المنصفات في الشعر الجاهلي ، دراسةً ونقداً ، إعداد : ثابت محمد صغير ، إشراف : فتحي محمد أبو عيسى ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ص ١٩٢ .

وقد ظهرت النقائص منذ العصر الجاهلي ، وكان السبب في نشأتها تلك الحروب التي دارت بين القبائل ، وخصوصاً بين الأوس والخزرج . وقد اعتبر الدكتور حسن باجودة شعر عبد الله بن رواحة الجاهلي كله في النقائص ، وذلك في قوله : " وبتأمل شعره الجاهلي القليل الكمية ، تبين أنّ كله من النقائص ، ذلك النوع من الشعر الذي كان مزدهراً في بيئة يشرب قبل الإسلام ، بحكم الصراع العنيف الدامي بين الأوس والخزرج . وقد نظم ابن رواحة ذلك الشعر في جملته رداً على قيس بن الخطيم ، الشاعر الأوسي الجاهلي " ^(١) .

كما ارتبطت الفروسية بالغزل ؛ وذلك لأنّ المرأة العربية على وجه الخصوص تفضل الفارس على غيره ، فهو القادر على حمايتها والذود عنها ، فهي تطلب عنده الأمان والحماية ، ففي ذلك تمام الرجولة وكمالها ، ولهذا ربط فارس الفرسان عنترة بن شداد فروسيته بغزله ؛ لعلمه بأهمية ذلك الربط ، والذي له وقع كبير في نفس محبوبته ، فهو يظهر لها بأنّه يستحقّها ؛ لبراعته وفروسيته وشجاعته في الحروب . ولقد سار الشعراء الفرسان على هذا النهج الشعري .

وعموماً اتسمت الفروسية بالشمول ، فلم تقتصر على فنّ واحد ، بل تجاوز ذلك إلى أن شملت جميع الفنون الشعرية تقريباً ، وما ذلك إلا نتيجة الالتحام والاتصال الوثيق بينها وبين الشعر ؛ يقول الدكتور وليد خالص : " ولم يقتصر ذكر الحرب على مواضعها الخاصة بها ، ومناسباتها بين الحين والحين ، بل كان أمرها من الشمول والاتصال والحضور في أذهان الناس ، بحيث تسرّب ذكرها في شتى أبواب الأدب ، واستعيرت صفاً وأحوالها لمختلف الأغراض ، ففي النسيب استعيرت السيوف والسهام للحفون واللواحق ، والقتل لشدة التّيم ، وبالسيف شبه الممدوح صقلاً ومضاً ، وبه جرّت الأمثال " ^(٢) .

(١) ديوان عبد الله بن رواحة ، ص ٩ .

(٢) أوراق مطوية من تاريخ الأدب ، ص ٢٧٠ .

وبذلك ندرك أنّ الفروسية كانت ملازمة للشعر ؛ لأنّها جزء أساس من حياة العرب ، وكان السبيل الوحيد إلى إظهارها هو الشعر ؛ " فهم لذلك إذا اعتزّوا بمكرمة أو نصر أو حادث ، سجلوا ذلك في قصيدة ، فهي أبقى على الدهر من كل عمل ، وأخلد من كل أثر ، وهذه سُنّة العرب في تخليد ماآثرهم "(١).

ومن الكتاب من يؤكّد على أن العرب أمّة حرب ، وأنهم برعوا في شعر الحرب ووصف آلتها ، حتى إنه احتلّ شطراً كبيراً من شعرهم قبل الإسلام وبعده (٢).

" وإذا جاز لبعضهم أن يعتبر شعر الرثاء هو أخلد الفنون الشعرية عند العرب ، وأصدقها عاطفة ؛ لأنّهم كانوا يقولونه وقلوبهم موحجة ، فإن من المؤكّد أن شعر الحرب هو أقوى ما نظم الشعراء العرب وألصقه بنفسية العربي ، وأوشجه بوجدانه ؛ لأنّ العرب أمّة فطرت على الحرب وجُبلت على حُبّ البطولة والأبطال ، حتى ليصبح أن نقول : إن الأمة العربية أمّة حرب "(٣). بل الأصح أنّها أمة فتح .

فقد حرص الشاعر الفارس على أن يكون الشعر مرآة لحياته تعكس آماله وآلامه ، فيعرض ويصور ، ويصف فيها تلك الحياة البطولية بما تجود به قريحته من أبيات صادقة يعرضها بشيء من التفصيل حيناً ، والإيجاز حيناً آخر بعيداً عن التكلف والغلوّ في الأغلب .

فالعلاقة التي تربط بين الفروسية والشعر علاقة قوية قائمة على الرغبة في اكتساب المجد ؛ مجد الفروسية أولاً ، ثم مجد الشعر ثانياً . ولا يدوم المجد الأول إلا بالثاني ، كما لا يقوى الثاني إلا بالأول .

فهناك روابط وقواسم مشتركة بينهما تجعل كلّ واحد منهما متمماً للآخر ، فقد كان

(١) الشعر الجاهلي ، يحيى الجبوري ، بيروت ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ١٣٠ .

(٢) ينظر : شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأمويّ والعباسي إلى عهد سيف الدولة ، د. زكي المحاسني ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، سنة ١٩٧٠م ، ص ٤٦ .

(٣) شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج ، د. محمد العيد الخطراوي ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص ١٨٢ .

للشعر دورٌ بارزٌ في إظهارها لنا في أكمل صورة ، وخير شاهد على هذا الدور : رصده لأيام العرب^(١) ، وكذلك كانت الفروسية بدورها الملهم للشعراء ، فأكسبت شعرهم القوّة والمتانة هنا . وما زال لها حضورٌ في الشعر العربي على مرّ العصور ، فالشجاعة والإقدام والنخوة العربية متأصلة ، لا يستطيع أحد أن يحوّها ولو تغيّرت الطباع ، وأبدلت بالخيول والسيوف والرماح أدوات الحرب الجديدة ؛ من دبابات ، وصواريخ ، وغيرها .. ولكنها تحتاج إلى صحوة توقظها من غفلتها ، وتبعد عنها التخاذل والجبن ، وتعود بها إلى سالف عصرها الزاهر .

وهكذا نستطيع القول : إنّ الفروسية تغلّغت في أعماق الشعر ، وجرّت فيه وانتشرت ، إلى أن أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مادة الشعر ، فهي المحور الأساس الذي يدور حوله شعر الفرسان ، فقد جرت في شعرهم كما جرى حياها في دمائهم .

وهذا ما سترصده هذه الدراسة في شعر أبي فراس الحمداني^(٢) ، وأسامة بن

(١) ينظر : أيام العرب في الجاهلية ، تأليف : محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ط ١ ، ١٣٦١هـ - ١٩٤٢ م .

(٢) الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي ، أمير ، شاعر ، فارس ، وُلد على الأرجح بالموصل سنة ٣٢٠هـ - ٩٣٢ م ، قُتل أبوه وهو في الثالثة من عمره ، فرعاه ابن عمه سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، له وقائع كثيرة قاتل فيها مع سيف الدولة ، وكان سيف الدولة يحبه ويحبّه ، ويقدمه على سائر قومه ، ونصبه أميراً على منبج ، وتعرض أبو فراس للأسر ، وقد اختلفت الروايات في مرات أسره ، ذكر الثعالبي في يتيمة الدهر أنّ أبا فراس أُسر مرّة واحدة ، فحمل إلى خرشنة ، ومنها إلى القسطنطينية .

ويذكر ابن خلّكان أنه أُسر مرتين : مرة بمغارة الكحل ، وسجن في خرشنة ، ومرة في منبج وهو والٍ عليها ، ونقل إلى القسطنطينية وبقي فيها أعواماً ، ثم فداه سيف الدولة عام ٣٥٥هـ ، وقُتل عام ٣٥٧هـ - ٩٦٩ م .

ينظر في ترجمته : موسوعة شعراء العصر العباسي (٣٥١هـ - ٩٦١م) ، إعداد : عبد عون الروضان ، دار أسامة ، ٥٩-٥٥/٢ ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأبي العباس شمس الدين بن خلّكان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ٦٥-٥٨/٢ ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ٨٨-٣٥/١ .

منقذ^(١)، اللذين كان شعرهما مثالا للفروسية العربية .

(١) أسامة بن منقذ بن مرشد بن علي بن منقذ بن قحطان ، وُلد سنة ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م في قلعة شيزر قرب حماة ، فارس ، شاعر ، أمير ، شارك نور الدين زنكي في حروبه ضدّ الفرنج ، انتقل إلى مصر ثم عاد إلى الشام ، واتصل بصلاح الدين الأيوبي ، عانى من الغربة في حياته ، فقد أهله في الزلازل التي أصابت شيزر ، أفرغ نفسه في آخر حياته إلى التأليف ، حيث استقرّ في حصن كيفا ، له عدّة مؤلفات ، منها :
١/ البديع في نقد الشعر ، ٢/ ديوان أسامة بن منقذ ، ٣/ كتاب الاعتبار ، ٤/ كتاب العصا ، ٥/ لباب الآداب ، ٦/ المنازل والديار .. توفي بعد سنة (٥٨٠هـ - ١١٨٤م) .
ينظر في ترجمته : كتاب الاعتبار ، لأسامة بن منقذ ، حرّره : فليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠م ، ص - أ - ؛ خريدة القصر ١/٤٩٧-٥٤٧ ، ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق : د. أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٤٩-٤٩ ؛ موسوعة شعراء العصر العباسي ٢/٨٤-٨٦ ، وفيات الأعيان ١/١٩٥-١٩٩ .

الفصل الأول

مضامين الفروسية

ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : صورة الفارس .

المبحث الثاني : أدوات الحرب (الفرس - السيف - الرمح - السهم) .

المبحث الثالث : المعركة ونتائجها .

الفصل الأول

مضامين الفروسية

المبحث الأول : صورة الفارس :

يُعدّ أبو فراس الحمداني وأسامة بن منقذ من فرسان العرب المعدودين ، المبدعين في الفروسية قبل الشعر ، وهبهما الخالق رَجَبُكَ قوّة البأس ، وقوة اللسان ، وسلاح الحرب ، وسلاح القافية ، فأظهرها البراعة في كلتا القوتين ، فللفروسية حضوراً بارزاً في شعرهما ، فهي تحتلّ الجزء الأكبر من ديوانيهما ، وهذه نتيجة طبيعية لحياة الشاعرين ، فهما فارسان قبل أن يكونا شاعرين .

وأول مظاهر الفروسية في شعرهما تتجلى في الفارس الذي هو أساس الفروسية ومنشئها ، فمن خلاله نلتمس المعنى الحقيقي للفروسية ومضامينها ، فعند قراءة ديوان أحدهما نلتمس فيه صورة ذلك الفارس الذي أعدّ نفسه للقتال والمبارزة ، وتخلق بأخلاق الفرسان الشجعان ، وناضل من أجل النصر ، بل نلتمس فيه صورة أعمق ، وهي تلك الصورة المؤلمة للفارس العاجز الذي حال بينه وبين فروسيته حائلٌ منعه من الاستمرار فيها والنضال من أجلها ، فغدت مصدر حزن وحسرة بعد أن كانت مصدر عزٍّ وفخر ، غير أن أبا فراس لم يرضَ أن يكون من الشعراء ، وذلك بقوله^(١) :

فحم الغبيُّ وقلتُ غير مُدلجَلِجٍ إني لمشتاقٌ إلى العلياءِ
وصناعتي ضربُ السيوفِ وإني متعرِّضٌ في الشعرِ بالشعراءِ

فالشاعر الفارس يودّ لو تنفى عنه صفة الشعر ، وتثبت له صفة الفروسية ؛ لأنها هي التي يجيدها ويريد أن يقترب اسمه بها .

فقد استخدم الشعر وسيلة للتعبير عن بطولاته وتجاربه ، حتى أصبحت " تجربة شعر الفروسية والإمارة عند أبي فراس من التجارب الفريدة في الشعر العربي ، إن لم تكن أفضل

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق : سامي الدهان ، المعهد الأفرنسي بدمشق ، بيروت ، ١٣٦٣هـ —

تجربة ، فقد كان الحارث بن سعيد شاعراً احتوى شعره على قوة الفروسية وأخلاقها وعزة الإمارة وهيبتها ، كما عرف في حياته حلاوة النصر ومرارة الهزيمة ، وشموخ الملك البطل ، وضعف الأسير الذليل ، يضاف إلى هذا القيم الجمالية التي أوجدها التعبير الفني عن أحاسيس متناقضة ، منها : الحماسة والألم ، المدح والعتاب ، والبطولة واليأس ، والالتزام بالآخرين والغربة عنهم^(١).

واعتبره ابن خلدون من الشعراء الفحول بقوله : " اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً ؛ أولها الحفظ من جنسه ، أي من جنس شعر العرب ، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحرّ النقي الكثير الأساليب ، وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين ، مثل ابن أبي ربيعة ، وكثير ، وذو الرمة ، وجريز ، وأبي نواس ، وحبیب ، والبحثري ، والرضي ، وأبي فراس .. " ^(٢).

وتلك المكانة العالية لشعر أبي فراس لم تأت من فراغ ، فعلى الرغم من حرصه على أن لا يكون من الشعراء ، إلا أن أبياته تبين القيمة الحقيقية للشعر في حياة الفارس ، وكثيراً ما مزج أبو فراس بين الفروسية والشعر .

يقول مفتخراً بشعره^(٣):

هذي مجبرةٌ يُشاكلُ نظمها عقداً عليه لؤلؤٌ وزبرجدُ
لو كان شاهداً (حبيبٌ) لم يقل [رَدَّتْ إليه الجاهليّة مهْدَدُ]

ويقول أبو فراس معترفاً بقوة شعره ، وأنه لا يقل عن شجاعته^(٤):

جناني ما علمت ولي لسان يقعد الدرع والإنسان غضب

(١) شعر أبي فراس الحمداني دلالاته وخصائصه الفنية ، د. عبد اللطيف عمران ، دار الينابيع ، دمشق ، ط ١ ،

١٩٩٩م ، ص ١١٣ .

(٢) مقدمة العلامة ابن خلدون عبد الرحمن ابن خلدون ، ط ٤ ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ، ١/٥٧٤ .

(٣) ديوان أبي فراس ١٨٩/٢ .

(٤) المصدر السابق ٢٨/٢ .

ويقول^(١):

فَإِذَا بَطَشْتُ بَطَشْتُ لَيْشًا بَاسِلًا وَإِذَا نَطَقْتُ نَطَقْتُ عَن تَبِيَانِ

وعندما يخوف أعداءه لا يقتصر على أفعاله في الحروب ، بل على مقاله أيضاً^(٢):

أَلَا هَلْ مِنْكَرِيَا ابْنِي نَزَارٍ مَقَامِي يَوْمَ ذَلِكَ أَوْ مَقَالِي

إلى جانب أنه استخدم الشعر في هجاء أعدائه ؛ إذ يقول^(٣):

عُلُوجَ بَنِي كَعْبٍ بِأَيِّ مَشِيئَةٍ تَرُومُونَ يَا حُمْرَ الْأَنْوَفِ مَقَامِي ؟
نَفَيْتُكُمْ مِنْ جَانِبِ الشَّامِ عَنُوءَةً بِتَدْبِيرِ كَهْلٍ فِي طَعَانِ غَلَامِ
وَفَتِيَانِ صَدَقٍ مِنْ غَطَارِيفَ وَائِلِ خِفَافِ اللَّحَى شَمِّ الْأَنْوَفِ كِرَامِ

فقد استطاع إبراز صورة الفارس المقاتل في هذه الأبيات عن طريق الهجاء الذي أنكره^(٤)، ولكنه لم يكثر منه ، ولعل ذلك ما قاد النقاد إلى نفي الهجاء عنه ، وحكموا على شعره أنه صورة لشخصيته : " ترتبط الموضوعات التي تنوع شعر أبي فراس ارتباطاً وثيقاً بشخصيته وبموقفه من الوجود ، وبرؤيته الفنية كذلك ، فهو إن كان شاعراً ، فهو فارس وأمير وقائد ، ومن شأن هذه الشخصية أن تنزع إلى أغراض شعرية بعينها تعبّر من خلالها عن تجربتها الذاتية الفريدة .

وشعر أبي فراس يثبت أنه لم يُعَنَّ من الشعر إلا بما يعبر عن نفسه ويفصح عن مشاعره ، ويعرب عن أحاسيسه ليس غير ، ومن ثمّ فإنّ أغراضاً شعرية معينة لا وجود لها في شعره كالمدح - إلا لآبائه وآله وأقرانه - ؛ إذ لم يكن يتفق ومكائنه المرموقة التي حظي بها في مجتمع الحمدانيين فارساً وأميراً وقائداً ، وكذلك لا نجد للهجاء والمجون ظلاً في شعره لنفس الأسباب"^(٥).

(١) ديوان أبي فراس ٤١٥/٣ .

(٢) المصدر السابق ٢٨٣/٢ .

(٣) السابق ٣٦٤/٣ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه ١٠/٢ .

(٥) أبو فراس الحمداني ، الموقف والتشكيل الجمالي ، تأليف : د. النعمان القاضي ، دار الثقافة ، د.ط ،

د.ت ، ص ٢٢٩ .

في حين أن أسامة يخالف أبا فراس في نظرتة للشعر ، فهو يعدّ ذلك من المآثر ؛ يقول في مدح صلاح الدين^(١) :

فلأهـدين إلى علاهـ مدائحـا تُبقي على الأحقاب والأزمان
مدحاً فوق بها زهيراً مثلما فاق المليك الناصر ابن سنان

ولا يعني ذلك أن أسامة من الشعراء الذين تكسبوا بالشعر وجعلوا منه حرفة لهم ، " فإنه لم يمدح من حكام عصره الذين اتصل بهم إلا من كان يستحق المدح والثناء ، وخاصة أولئك الذين تصدّوا للغزاة ، وكانوا مثلاً صادقاً للفروسية والشجاعة والدفاع عن حمى الإسلام"^(٢).

ويرى كذلك : " أن شعره حقيق بالخلود والذيوخ"^(٣) ، وذلك في قوله^(٤) :

واجتـلها بنت يومها ثم عمـر الدَّ هر حتّى يفنى لها عمـر
يصوغ منها في كل قطر من الأز ض ثناء كآئه قطـر
ولو رأى الجوهري ألفاظها العـر لـما شك أنها دـرر
هذا وفيها إن رمت شـكراً لانـعا مك أو حصر بعـضه حـصر

فنى أسامة يشبه شعره بالعود والدرر ، فيريد بذلك أن يثبت لنفسه الصنعتين (الشعر والفروسية) ، بخلاف أبي فراس الذي يريد أن يثبت لنفسه صنعة واحدة ، وهي الفروسية .

ومع ذلك فإن أسامة لم يكن راضياً عن شعره الذي قاله في غرة العمر ، لذلك رجع إلى شعره ، واختار واختصر منه ، وجمعه في ديوان ، يقول في مقدمته : " فإني كلفت بنظم

(١) خريدة القصر ٥٣١/١ .

(٢) الغربية في شعر أسامة بن منقذ ، حلمي إبراهيم عبد الفتاح الكيلاني ، مؤتة للبحوث والدراسات ، المجلد الثامن ، العدد الثاني ، ربيع ثاني ١٤١٤هـ - أيلول ١٩٩٣م ، ص ٩٧ .

(٣) أسامة بن منقذ حياته وآثاره ، تأليف : حسن عباس ، تقديم : محمد مصطفى هدارة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط ، ١٩٨١م ، ٢١٤/١ .

(٤) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٢٣ .

الشعر في غرة العمر ، أظنه من المآثر والمناقب ، وأعدده من الذخائر للعواقب ، فلما علت سنِّي ، وانجلت جاهليةً باطلاً عني ، ووضح لي أن الشعر لهوٌ وهون ، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون ، أكبرتُ خطي وأعظمتُهُ ، وندمتُ على تفريطي فيما نظمته ... فحاولت أن أغسل عني وضره ، أو عفي أثره ، فعصاني منه ما شاع ، وملئت به الأفواه والأسماع ، فعدتُ إلى تقليله وتمحيصه ، وقمتُ بتنخيله وتلخيصه "(١).

وبذلك فقد لقي شعر أسامة من العناية من صاحبه ما لم يلقه شعر أبي فراس .

ومع أن أبا فراس لم يُعنَ بشعره ، ولم يرضَ أن يقترن اسمه بالشعراء ، إلا أنه جعل من الشعر الوسيلة العظمى لإبراز الفروسية التي تحلّى بها فحلّى بها شعره ، حتى لتكاد تشمل جلّ شعره .

وبذلك يتضح موقف الفارسيين من الشعر ، فأبو فراس وإن أظهر أنه ليس من الشعراء في بعض قصائده ، فقد أثبت هذه الصفة لنفسه في قصائد أخرى . وأما أسامة فقد أظهر حبه للشعر والشعراء .

يقول العماد عنه : " أسامة كاسمه ، في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه أمانة الإمارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارةً العبارة ، نُشر له عَلمُ العلم ... معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف "(٢).

ويقول ابن عساكر عنه : " له يد بيضاء في الأدب والكتابة والشعر ... وكان فارساً شجاعاً "(٣).

كما يذكر رأي محمد بن الحسن بن الملحّي في أسامة : " الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ شاعر أهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة أبيه ، ليس يُستقصى وصفه بمعانٍ ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، فقصائده الطوال لا

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٤٧ .

(٢) خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٤٩٨/١ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٩٠/٨ .

يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد^(١) ... ، غير محتفل في طولها ، ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من فصولها ، والمقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد طول السهر ، في كل معنى غريب وشرح عجيب"^(٢).

ويقول ابن كثير عنه : " أحد الشعراء المشهورين ، المشكورين ، بلغ من العمر ستاً وتسعين سنة ، وكان عمره تاريخاً مستقلاً وحده ، وكانت داره بدمشق ، مكان العزيزية ، وكانت معقلاً للفضلاء ، ومنزلاً للعلماء ، وله أشعار رائقة ، ومعان فائقة ، ولديه علم غزير ، وعنده جود وفضل كثير ، وكان من أولاد ملوك شيزر ... "^(٣).

يقول حسن عباس في فخر أسامة : " ... وهكذا نحسُّ ونحن نقرأ شعر أسامة في الفخر ، روح الفارس ، وتغلب الإباء والشمم على الإحساس بالعظمة . ولا نجد في شعره ذلك التبجح بالنفس والتعظيم المنفر الذي قد نجده عند غيره من شعراء الفخر ، فأسامة لم يمدح نفسه بما ليس فيها ، ولم يشتمط أو يُغالِ في الاعتداد بذاته ، بل نجد عنده نوعاً من التواضع والبُعد عن التبجح بالنفس"^(٤).

ويقول عمر باشا : " يمثل شعر أسامة الذروة التي بلغها الشعر الوجداني المطبوع بالطابع الذاتي في هذا العصر ؛ إذ استطاع من خلاله أن يعرض لنا صورتين رائعتين : صورة توضح لنا حياته الأسطورية الخاصة ، وتبرز ما فيها من انفعالات وجدانية ، وصورة ثانية توضح لنا الأحداث الكبرى التي مرّت فيها"^(٥).

وأسامة في شعره يتعمد السير على نهج الشعر القديم ، مخالفاً بذلك شعراء عصره ، ويقول الدكتور أحمد بدوي في ذلك : " هذا وإن بين الشعر الحماسي الذي ظهر في عصر

(١) ابن الوليد : مسلم بن الوليد .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٩٠/٨ وما بعدها .

(٣) البداية والنهاية ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٦ م ، ٣٣١/١٢ .

(٤) أسامة بن منقذ (حياته وآثاره) ٢٢٣/١ .

(٥) أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ، د. عمر موسى باشا ، دار الفكر الحديث ، د. ط ، د. ت ، ص ٢٨٧ .

الحروب الصليبية والشعر الحماسي الذي قاله العرب أنفسهم في جزيرتهم العربية ، لفرقا في الباعث ، والهدف ، والروح ، والاتجاه ، فإذا كان الباعث قبل هذا العصر في أكثر الأحوال قبلياً ، أو حوادث لا يسيطر عليها الدين سيطرة كاملة ، فإن الباعث على الشعر الحماسي في هذا العصر هو الدين وحده ، ولم يعد ثمة ظهور لنغمة القبيلة ، ولا التعصب الجنسي . أما الروح السائدة في الأديين فإن البساطة والطبيعية تسودان أدب العصور العربية الأولى ، بينما تجد لبعض المبالغة نصيباً في عصرنا الصليبي .

أما الاتجاه فأغلبه في الشعر القديم تمدح بالشجاعة الفردية ، ووصف لها ، وحديث عنها ، ويشبه هذا الاتجاه أسامة .

أما معظم شعر الحماسة في عصر الحروب الصليبية ، فلا يتجه أكثر اتجاه إلى هذه الناحية ، بل يتجه إلى التمدح بقوة الجيوش ، وحسن إعدادها ، وشجاعة أبنائها ، وما أصابته من عدوها^(١) .

وبذلك يتضح أن أسامة كان يتعمد السير على خطا أبي فراس والمتنبي ، ويخالف شعراء عصره .

يقول د. مسعد العطوي : " وشعره يمثل حياته ، فهو أمير فارس ، أبي النفس ، له مكانة عالية عند علية القوم ، ليس بالمدح ، لكن بسجل الأحداث ، ولاسيما في مكاتباته مع الصالح طلائع بن رزيك^(٢) ، وله ديوان شعر مطبوع ...

وقد اقتنى بشعره آثار أبي فراس ، والمتنبي ، وأبي تمام ، وغيرهم من شعراء العربية^(٣) .

وهكذا نلاحظ من خلال تتبع نظرة القدامى والمحدثين في شعر هذين الشاعرين أن

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، تأليف : أحمد أحمد بدوي ، ط ٢ ، دار نهضة مصر ، د.ت ، ص ٥٠٦ .

(٢) طلائع بن رزيك : الملقب بالملك الصالح ، أبو الغارات ، وُلد سنة (٤٩٥هـ) ، وُلِّي وزارة مصر لمغائر الفاطمي ، قتله جماعة من السودان ، كان شاعراً جيد الشعر ، شجاعاً ، حازماً ، توفي سنة (٥٥٦هـ) . ينظر في ترجمته : وفيات الأعيان ٢/٥٢٦ .

(٣) الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ، د. مسعد بن عيد العطوي ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ص ٢٨٤ .

للفروسية لديهما مكانة لا يستهان بها ؛ لذلك سأحاول - بمشيئة الله تعالى - الوقوف على صورة الفارس في شعرهما ، وهي صورة ظهرت في كل أغراضهما الشعرية تقريباً ، تلك الصورة المثالية والمتكاملة التي تركز على إبراز الصفات التي تحلى بها الفارس ؛ من كرم ، وشجاعة ، وإقدام ، وحزم ، وتواضع ، وعفو عند المقدرة .

فهذه الصفات هي التي تعدّ الفارس المناضل القادر على خوض المعارك ، وتجعل منه مثلاً يُحتذى ، لذلك حرص أبو فراس وأسامة على إبرازها وإظهارها في مواضع متفرقة من شعرهما .

- صورة الفارس المحارب :

وقف الدكتور عبد الله باقازي على العلاقة التي تجمع أسامة بأبي فراس ، فكان في مقدمتها : " معادلة : الفارس ، الشاعر ، عند الفارسين الشعارين " ^(١) .

فأبو فراس يبالغ في تمدحه بشجاعته وشجاعة قومه ، حيث جعل لهم صفات تميزهم دون غيرهم ، وذلك بقوله ^(٢) :

يَلُوحُ بِسَيْمَاهُ الْفَتَى مِنْ بَنِي أَبِي وَتَعْرِفُهُ مِنْ غَيْرِهِ بِالشَّمَائِلِ
مُفْدَى ، مُرْدَى ، يَكْثُرُ النَّاسُ حَوْلَهُ طَوِيلُ نِجَادِ السَّيْفِ سَبْطُ الْأَنَامِلِ

فمقومات الفروسية هي التي تميزهم عن غيرهم .

ويقول ^(٣) :

لَنْ خُلِقَ الْأَنَامُ لِحَسْوِ كَأْسٍ وَمُسْمَعَةٍ ، وَطُنْبُورٍ ، وَعُودِ
فَلَمْ يُخْلَقْ (بَنُو حَمْدَانَ) إِلَّا لِمَجْدٍ ، أَوْ لِحَمْدٍ ، أَوْ لِحُودِ

(١) ينظر : ملامح في شعر أسامة بن منقذ ، تأليف : د. عبد الله أحمد باقازي ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، د. ط ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، ص ٥٥ .

(٢) ديوان أبي فراس ٣٣٨/٢ .

(٣) المصدر السابق ٩٤/٢ .

ويقول فيهم^(١):

إني امرؤ (ببني حمدان) مُفْتَخِرٌ
إني لمن معشرٍ ما ضيم جارهم
إن حالفنا المعالي فهي قد علمت
من كل مشتمل بالصبر مُدْرِعٍ
مستقبلاً لوجوه القوم يطعنهم
كأن آدم أوصى قبل ميته
خير البرية أجداداً وأسلافاً
ولا رأى عندهم بؤساً ولا خافاً
كانت لأبائنا من قبل أحلافاً
ما خاف قط ، ولا والى ، ولا صافى
حتى يُيحوه أصلاباً وأكتافاً
بأن يكون عليه الناس أضيافاً

ويقرن الشاعر عزه وعزّ قومه بشجاعتهم ، وأنها هي السبب في سيادتهم^(٢):

ولقومي الشرف الميعة محلّة
ورثوا الرئاسة كابرًا عن كابر
نحن البحار بل البحار مياهاها
فوق الجرة والسماك المرزم
من عهد (عاد) في الزمان و (جرهم)
ملح ، وموردنا لذيذ المطعم

يؤكد أن إتقاهم للفروسية ، وتمكنهم منها هو الذي أوصلهم إلى المكانة العالية ، بل يذهب إلى أعمق من هذا . إن إتقاهم للفروسية وأدواتها جعلهم يتفردون بأوساط المعالي ، فمن ذلك قوله^(٣):

بأطراف المثقفة الطوال
وما تخلو مجاني العزّ يوماً
ونلقى دونها شعث المنايا
كذا دأبي ، ودأب سرة قومي
تفردنا بأوساط المعالي
إذا لم تجنّها سُمر العوالي
بمُرّ الطعن في مُرّ المَجَالِ
على العلات في شرف الفِعالِ

والرئاسة تكون مقصورة على الفارس الذي يخوض غمرات الحرب ، مثل سيف

(١) ديوان أبي فراس ٢/٢٦٠ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٧٦ وما بعدها .

(٣) السابق ٣/٣٣٨ .

الدولة^(١) الذي كان رمزاً للفارس المناضل^(٢):

لمثلها يستعد البأس والكرم
هي الرئاسة لا تُقنى جواهرها
تقاعس الناس عنها فانتدبت لها
ما زال يجحدها قومٌ ويُكرها
وفي نظائرها تُستنفد النعم
حتى يُخاض إليها الموت والعدم
كالسيف ، لا نكل فيه ولا سأم
حتى أقروا ، وفي آنافهم رغم

يفخر بشجاعة قومه وكرمهم ، فيقول^(٣):

لنا بيتٌ على عنق الثريا
تُظللّه الفوارسُ بالعوالي
بعيدٌ مذهب الأطنابِ سام^(٤)
وتفرّشه الولائدُ بالطعام^(٥)

وفخر بكمال أخلاقهم ، فهم يجمعون بين الفروسية والكرم ، حتى أصبحت تلك الصفات وكأنها مقصورة عليهم :

إذا مررت بوادٍ جاشٍ غاربُهُ
وإن عبرت بنادٍ لا تُطيقُ به
وَيُصبحُ الضيفُ أولانا بمنزلنا
فَاعقلُ قَلوصَكَ وانزِلْ ؛ ذاك واديننا
أهلُ السّفاهةِ فاجلسْ ذاك نادينا
نرضى بذاك ويمضي حكمه فينا

فقد اتخذ الشاعر من الوادي الذي فاض بالماء دليلاً يدلّ الضيف على قومه ، ويأمر الضيف بالنزول فيه ، وأن يربط عقل ناقته ، وأن يستمتع بالبقاء عند قومه الذين بلغ بهم الكرم أن يصبح

(١) سيف الدولة ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان ، ابن عمّ أبي فراس الحمداني ، كان أديباً شاعراً ، محباً لجيد الشعر ، وأخباره كثيرة مع الشعراء ، خصوصاً مع المتنبّي والسري الرفاء والنامي وتلك الطبقة . توفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة بحلب .

ينظر في ترجمته : وفيات الأعيان ٤٠١/٢ .

(٢) ديوان أبي فراس ٣٦٦/٣ .

(٣) المصدر السابق ٣٦٤/٣ وما بعدها .

(٤) الثريا : مجموعة من الكواكب .

(٥) العوالي : الرماح .

الضيف أولى منهم بمنزلة ، وليس هذا فحسب ، بل إن حكمه نافذ فيهم عن رضا واقتناع منهم .

ويقول فيهم^(١):

إِنَّا إِذَا اشْتَدَّ الزَّمَا	نُ وَنَابَ خَطْبٌ وَاذْهَم
أَلْفَيْتَ حَوْلَ بِيوتِنَا	عُدَدَ الشَّجَاعَةِ وَالكَرَم
لَلْقَا العِدَا بِيضُ السِّيُو	فِ وَلِلنَّدى حُمُرُ النَّعَمِ ^(٢)
هَذَا وَهَذَا دَأْبُنَا	يُودَى دَمٌ وَيِرَاقُ دَمٌ

فالشاعر يعطي صورة من صور بطولات قومه عند اشتداد الزمان ونزول المصائب ، فهم مستعدون لمواجهة تلك المصائب بكل شجاعة وكرم ، فقد اعتادوا على مثل ذلك ، حتى إن دفع الديات وسفك الدماء أصبح أمراً مألوفاً لديهم .

ويعضي الشاعر في فخره بقومه ، بل نراه يخص بعض الأبطال منهم بالذكر ، فمن ذلك قوله^(٣):

وَأبي (سعيد) فِي المكارمِ أَوْحَدُ	حَمْدَانُ) جَدِّي خَيْرٌ مَن وَطِي الثَّرَى
وَأَنافَ (حَمْدَانُ) وَشَيْدَ (أَحْمَدُ)	أَعْلَى لَنَا (لَقْمَانُ) أَبِيَاتِ العُلا
وَالعَارُ وَالْفَحْشَاءُ مَا لَا يُوْجَدُ	وَالْمَجْدُ يُوجَدُ عِنْدَنَا بِأَرْوَمِهِ
دُونَ البرِّيَّةِ وَالْمَكَارِمِ تَشْهَدُ	وَالفَخْرُ يُقْسِمُ أَنَّنَا أَرْبَابُهُ

ويقول فيهم^(٤):

وَمَن لَّمْ يَشْأَهُ كَرَّ قَوْمِي فِي الوَغَى إِذَا فليشأَهُ كَرَّهَا فِي المَكَارِمِ

والشاعر يرى أنه إذا أراد الفخر فلن يجد أفضل من قومه يفخر بهم ، فهم في نظره أحقّ

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٤١ وما بعدها .

(٢) حمر النعم : النياق الأصيلات .

(٣) ديوان أبي فراس ٢/٨٨ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ٣/٣٨٣ .

بأبيات الشعر التي مضت مما قاله الثقلان^(١):

وإذا فخرتُ فخرتُ بالشُّمِّ الألى
نحنُ الملوكُ بنو الملوكِ أُولي العُلا
وهمُ أحقُّ بيتِ شِعْرِ قَد مضى
[وإذا دعوتُهُمُ ليومِ كَرِهيةِ
ويشبههم بالأسود القوية^(٢):

أُسْدُ قَسَاوِرُ فِي الحُرُو
وإذا رأته عُداثُهُ
ويقول^(٤):

إذا شئتُ أن تلقى أُسوداً قساوراً
يُلاقيكِ مِنَّا كُلُّ قَرَمٍ سَمِيدِ
قَصَدْنَا على الأعداءِ وَسَطَ دِيَارِهِمْ
وكتيراً ما فخر أبو فراس بقبيلته وبفروسيتهم^(٥).

فالشاعر يرى في قومه أنهم بلغوا من العزِّ والفخر ما لم يصل إليه غيرهم ، يقول في ذلك^(٦):

لَمِنَ الجَدودِ الأكرمو
مَن ذا يعد كما أعد
نَ مِنَ الـورىِ إلا لِيه
مِنَ الجَدودِ العالِيه

ويفخر أسامة كذلك بقومه ، فهو لا يقلُّ عن أبي فراس في اعتداده بهم ، ولم يكن

(١) ديوان أبي فراس ٤١٥/٣ .

(٢) المران : الرِّمَّاح .

(٣) ديوان أبي فراس ٣٢٣/٣ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ١٩٧/٢ وما بعدها .

(٥) ينظر : الديوان ١٣/٢ ، ٤٣/٢ ، ٥١/٢ ، ١٨٣/٢ ، ٣٣٨/٣ ، ٤٢٤/٣ ، ٤٢٥/٣ ، وغيرها ..

(٦) ديوان أبي فراس ٤٣٢/٣ .

فخره بقومه نابعاً من فراغ ، فهم حقاً فرسان ، ولقد شهد لهم العماد الأصفهاني بهذه الصفات ، فقال فيهم : " كانوا من أهل بيت المجد والحسب ، والفضل والأدب ، والحماسة والسماحة ، والحصافة والفصاحة ، والفروسية والفراسة ، والإمارة والرئاسة . اجتمعت فيهم أسباب السيادة ، ولاحت من أساريهم وسيرهم أمارات السعادة ، يُخلفون المجد أولاً لآخر ، ويرثون الفضل كإبراً عن كابر . أما الأدب فهم شموعه المشرقة ، ورياضه المونقة ، وحياضه المغدقة ، وأما النظم فهم فرسان ميدانه ، وشجعان فرسانه ، وأرواح جثمانه " (١) .

فمن ذلك قوله فيهم (٢) :

والآمنين معرّة الجُرامِ	النازلين بكلّ ثغر خائفٍ
آوى إلى حرمٍ من الأحرامِ	وإذا أتاهم مُستجيرٌ خائفٌ
عادوا ثقال الظّهرِ بالإنعامِ	وإذا أناخ السائلون بجوهم
لسطاهم الآسادُ في الآجامِ	يتهلّلون طلاقَةً وتخافُهُم

فأسامة يرى في قومه صورة الفارس الحقيقي ، ذلك الفارس الذي لا يهاب الموت ، ويُقبل على خوض المعارك ، الحامي الذمار ، المكرم للضيف ، المخيف للأعداء .

ونراه في نصّ آخر يقول فيهم (٣) :

ملاى من الزوّارِ والطُّراقِ	من آل منقذِ الذين عراضُهُم
ما للمعايبِ غيرها من واقِ	اللابسين من المكارمِ جنةً
يسطون بالإرعادِ والإبراقِ	يتهلّلون لدى النّوالِ وفي الوغى

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ٤٩٧/١ .

(٢) كتاب العصا ، تأليف : أسامة بن منقذ ، تحقيق : حسن عباس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط ،

د.ت ، ص ٤٥٢ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

ويقول مخاطباً والده^(١):

يا ابن الألى جمع الفخار لبيتهم
وتملكوا رِقَّ الأكارم بالذي
ما شتتوه من العطاء وفرقوا
فكّوا به رِقَّ العُناة وأطلقوا

فالشاعر يؤكد على فروسية قومه وعلى كمال أخلاقهم ، حتى نراه يقترب من أبي فراس في وصفهم ، فيقول فيهم^(٢):

خُلِقَ نَمَاهُ أَغْرُ أَرُوعُ مَيْمٍ — مَوْنُ النَّقِيْبَةِ مَا جَدُّ أَنْفُ
مَنْ مَعَشَرَ طَابَتْ مَغَارِسُهُمْ — فَسَمَا لَهُمْ فَوْقَ السُّهَى شَرْفُ
قَوْمٌ إِذَا عُدَّتْ مَنَاقِبُهُمْ — كَادَتْ لَهْنَ الشَّمْسُ تَنْكَسِفُ
لَوْ حَاوَلُوا الْأَفْلَاكَ مَا قَصُرَتْ — عَنْهَا أَكْفُهُمْ وَلَا ضَعُفُوا
لَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ — فِي جُودِهِمْ لِعُفَاتِهِمْ سَرْفُ
أَتْنِي بَعْلَمِي فِيهِمْ وَهُمْ — فَوْقَ الثَّاءِ وَفَوْقَ مَا أَصِفُ

فكلاهما يرى أن قومه وصلوا إلى المكانة العالية ، غير أن أبا فراس أجاد وأبدع ، ولم يدع شيئاً في مدح قومه ، فقد وصل به التعبير عن شجاعة قومه يوم المعركة بأنهم يسدون شعاع الشمس بالرماح ؛ وذلك لكثرتهم وشجاعتهم فقط ، في حين يرى أسامة في قومه أنهم لو عدت مناقبهم لكادت الشمس تنكسف من كثرة تلك المناقب ، فلم يصل بهم إلى ما وصل إليه أبو فراس .

غير أن فخر أسامة فخرٌ عام ، لم يقتصر على قومه فقط ، بل تعداهم إلى قواد المسلمين في عصره ، حيث فخر بجهادهم في سبيل الله^(٣):

بطاعتنا لله أصبح طوعنا الـ — أَنَامُ ، فَمَا يُعْصِي لَنَا فِيهِمْ أَمْرُ
فَأَيَّمْنَا فِي السَّلْمِ سُحْبُ مَوَاهِبِ — وَفِي الْحَرْبِ سُحْبُ وَبُلْهَنَّ دَمَ هَمْرُ

(١) كتاب العصا ، ص ١٧٧ .

(٢) ديوان أسامة ، ص ٢٥٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

وما في ملوك المسلمين مُجاهدٌ سوانا ، فما يُشيه حرٌّ ولا قُرٌّ^(١)
 جعلنا الجهادَ هَمًّا واشتغالنا ولم يُلهنّا عنه السماعُ ولا الخمرُ
 دماءُ العدا أشهى من الراحِ عندنا ووقعُ المواضي فيهمُ النَّأيُ^(٢) والوترُ
 تُواصلهم وصلَ الحبيبِ وهمِ عدا زيارتهم ينحطُ عَنّا بها الوزرُ

فما أروع هذا الفخر ، وما أبلغه ، فالشاعر يعلم علم اليقين أن ما حققه المسلمون من نصر ، نابع من طاعتهم لله ﷻ ، وتليبتهم لدعوة الجهاد الذي أصبح شغلهم الشاغل .

وقد اجتمع الشاعران على إظهار صور متعددة للفارس من خلال شعريهما ، فنجد أبا فراس يعرض صوراً لبطولات فرسان قبيلته ، فذكر منهم والده الذي يقول فيه^(٣) :

غزا الروم لم يقصد جوانب غيرة ولا سبقته بالمراد النذائر
 فلم ترَ إلا فالقاً هاماً فيلق وجرأً له تحت العجاجة ماخر^(٤)

فالفارس يتميز بالشجاعة التي لا مزيد عليها ، حتى إنه يقضي على جيش بأكمله ، ونراه يخترق غبار الحرب كأنه سفينة تحترق موج البحر ، والفارس كالليث في الحروب ؛ لشجاعته^(٥) :

بليث إذا ما الليثُ حاد عن الوغى وغيث إذا ما الغيثُ أكذت سَواجه

ويقول أبو فراس مصوراً شجاعة ابن عمه (أبي زهير)^(٦) :

طُلّت في الضربِ للطلا عن شبيهه وتعاليت في العُلا عن نظير^(٧)

(١) قرّ : برّد .

(٢) النَّأي : بمعنى الآلة الموسيقية .

(٣) ديوان أبي فراس ١١٤/٢ .

(٤) العجاجة : الغبار .

(٥) ديوان أبي فراس ٣٨٢/٣ .

(٦) المصدر السابق ١٧٤/٢ .

(٧) الطلى : جمع الطلية ، وهي الرقبة .

فهو الأسد في الحروب ، قاتل الأعداء ونصير كل طالب عون ومساعدة ، ليس له شبهة في ضرب الرقاب ولا نظير في طلب العلا .

كما جعل للفارس صفات شاملة كاملة ، وذلك في قوله^(١):

يا بني العمّ قد أتانا ابن عمّ	في طلاب العلا صعوداً لجوج
فاضل كامل أديب أريب	قائل فاعل ، جميل بهيج
حازم عازم حروب سلوب	ضارب طاعن خروج ولوج
مخرب هممه حسام صقيل	وجواد مطهّم عنجوج ^(٢)
وخيلول وغلمنة وذروع	وسيوف وضمر ووشيج ^(٣)
لك بحر من الندى كل بحر	من بحار الندى لديه خليج
أنت لجت في المكارم ما كل	ل كريم ، منها له تلجيج

فقد ذكر عدة أسماء وصفات تدل على أنه فارس كثير الحروب ، جامع للفضائل ، حريص عليها .

ويقول^(٤):

لله درك من قوم أخي كرم	لا ينطق المال إلا في تشكيه
فأخيل يمنحها والبيض يثلمها	والسمر يخطمها ، والقرن يرديه ^(٥)

فقد جمع الشاعر في هذين البيتين صفات الفروسية ، فقد أعطى صورة كاملة للفارس ، فهو الكريم الباذل للأموال والخيول ، كثير الضرب بالسيوف والطعن بالرماح الذي يقتل أعداءه الذين لا يقلون عنه شجاعة .

(١) ديوان أبي فراس ٥٨/٢ وما بعدها .

(٢) محرب : شديد الحرب ، كثير الخوض في المعارك . الحسام الصقيل : السيف المصقول . مطعم : ضخم . عنجوج : أصيل جيد .

(٣) غلمنة : غلمان . ضمّر : خيول مضمرة . الوشيج : الرماح .

(٤) ديوان أبي فراس ٤٣٠/٣ .

(٥) البيض : السيوف . يثلمها : يكسر حدّها . السمر : الرماح . القرن : الشبيهة في القتال .

وللقائد مكانة عالية عند جنده ، فقد صورّ أبو فراس طاعة الجند للقائد وسرعتهم في تلبية دعوته والدفاع عنه ، فمن ذلك قوله^(١) :

أمامَ مُشَيِّعٍ سَمَحَ بِنَفْسٍ يَعِزُّ عَلَى الْعَشِيرَةِ أَنْ يُصَابَا
وما ضاقتْ مذاهبهُ ولكنَّ يُهَابُ مِنَ الْحَمِيَّةِ أَنْ يَهَابَا
ويأمرُنَا فنكفيه الأعداي هُمَامٌ لَوْ يَشَاءُ ، كَفَى وَنَابَا

فهم فرسان يعزّ عليهم أن يصاب قائدهم بأذى رغم قدرته على خوض المعارك .

ويصورّ أبو فراس القائد وجيشه بقوله^(٢) :

وأروعَ جيشُهُ ليلَ بهميمٍ وغرَّتُهُ عَمُودٌ مِنْ صَبَاحِ
صفوحٌ عند قدرته كريم قليل الصفح ما بين الصفاح

بل إن الجند يتحوّلون إلى أداة طيعة في يد ذلك القائد العظيم يحركهم كيفما شاء^(٣) :

ولمّا ثار (سيفُ الدين) ثرنا كما هيّجتَ آساداً غضابا
أسننته إذا لاقى طعاناً صوارمُهُ إذا لاقى ضراباً^(٤)
دعانا - والأسنة مشرعات - فكنا عند دعوتِهِ الجوابا
صنائعُ فاقَ صانعها ففاقت وغرسُ طابَ غارسُهُ فطابا
وكنّا كالسهمِ إذا أصابت مراميهَا فراميهَا أصابا

فهم مثل الأسود ، تلك الصورة التي يرى الشاعرُ فيها الهيئة الحقيقية للفراس الشجاع^(٥) :

(١) ديوان أبي فراس ١٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ٦٥/٢ .

(٣) السابق ١٣/٢ .

(٤) الصوارم : جمع صارم ، وهو السيف القاطع .

(٥) ديوان أبي فراس ١٥/٢ .

وَلَمَّا اشْتَدَّتْ الهِجَاءُ كُنَّا أَشَدَّ مَخَالِبًا وَأَحَدًا نَابَا
وَأَمْنَعَ جَانِبًا وَأَعَزَّ جَارًا وَأَوْفَى ذِمَّةً وَأَقْلَّ عَابَا

فالشاعر يريد أن يؤكد على أن الفرسان تميزوا بقوة البنية وضخامتها ، فلقد ارتبطت هذه الهيئة عند الشعراء بهيئة الأسد ، فجعلوا من الفرسان أسوداً ضاريات على أعدائهم ، يرهبونهم ويفترسونهم كما يرهب الأسد بقيّة الحيوانات ويفترسها ، فهم بذلك يثبتون الشجاعة والقوة للفرسان .

ولقد أعجب أبو فراس بطولات القواد من قبيلته ، وكان في طليعتهم سيف الدولة ، حتى إنه " كان دائم الاعتراف بأستاذيته له في الفروسية والشجاعة " (١).

فشجاعة أبي فراس مستمدة من شجاعة ابن عمه الذي تكفل بتربيته صغيراً ، وعشق الفروسية وزرع عشقها فيه ، حتى أصبحت جلّ ما يسمع ، وغدا قراع السيوف موسيقاه التي يتلذذ بسماعها (٢):

وَقَلْبُكَ الرَّحْبُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِلجِدِّ وَالْهَزْلِ بِهِ مَوْضِعُ
رَقَّةً بِقَرَعِ العُودِ سَمْعًا غَدًا قَرَعُ العَوَالِي جُلًّا مَا يَسْمَعُ

وقد تعجز أبيات الشعر عن وصف فروسية هذا الفارس على الرغم مما قاله فيه ، فهو يراه أهلاً لأكثر من ذلك ، فيقرّ أبو فراس بعجزه عن وصف بطولة سيف الدولة بقوله (٣):

كَلِمَا رُمْتُ أَنْ أَجِيءَ بِوصفٍ قَصَّرْتُ عَنْ مَدَى عُلَاكَ صِفَاتِي
أَنْتَ مُرَوِي القَنَا وَمُوتِمٌ أَوْلَا دِ الأَعَادِي وَمُشْكِلُ الأَمّهَاتِ

حيث يرى الشاعر أن أبلغ وصف يستطيع أن يصفه به بعد أن أثبت بفخره وقصور شعره

(١) في صحبة الأميرين : أبي فراس الحمداني ، وعبد القادر الجزائري ، د. أحمد درويش ، مؤسسة جائزة الملك عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، د. ط ، ١٤٢١هـ - أغسطس ٢٠٠٠م ، ص ٨٠١ .

(٢) ديوان أبي فراس ٢/٢٤٣ .

(٣) المصدر السابق ٢/٥٥ .

أنه ذلك الفارس الشجاع الذي يروي الرماح بدماء الأعداء ، وميتم الأولاد بقتل آبائهم ، ومثكل الأمهات بقتل أولادهن ، فتلك أعظم الصفات التي تُحرِّك شاعرية أبي فراس .

ويقول^(١) :

ألا قل لسيف الدولة القرم إني على كل شيء غير وصفك قادر
فلا تُلزمني خطّة لا أطيّقها فمجدك غلابٌ وفضلك باهر
ولو لم يكن فخري وفخرٌ واحداً لما سار عني بالمدائح سائر
ولكنني لا أغفل القول عن فتى أساهم في عليائه وأشاطر

فسبب ذلك العجز أن أبا فراس يرى نفسه من خلال ابن عمه : " صور سيف الدولة في شعر أبي فراس تتوالى مجسدة مفهوم الفارس من منظور الفارس الذي يرى ذاته في مرآة ابن عمه "^(٢) .

فهو يرى فيه " صورة البطل الفارس والأمير الرئيس القرم الجامع لصفات العزّ والمجد والمعروف والفضل والسماحة والحلم وصواب الرأي ، وهي جميعاً صفات يفخر بها الشاعر ويعتدّ بها ، ويرى في الفخر بها فخراً بذاته وبقومه "^(٣) .

لذلك نلاحظ احتفاء أبي فراس بابن عمه ، غير أن " صورة (الفارس النموذج) التي يرسمها أبو فراس لسيف الدولة تأخذ جانباً من بعدها ، من كونه في واقع الأمر كامناً في ظلال الصورة ، ومن هنا فإن فزعه يزداد عندما يتمّ إخراجه من هذه الظلال ، حتى ولو من باب الحرص عليه وادّخاره لمهام أخرى "^(٤) ، فيقول مخاطباً سيف الدولة^(٥) :

أشدّة ما أراه منك أم كرم تجود بالنفس والأرواح تُصطلم

(١) ديوان أبي فراس ١١٥/٢ .

(٢) في صحبة الأميرين ، ص ٨٢ .

(٣) أبو فراس الحمداني ، الموقف والتشكيل الجمالي ، ص ٢٤٩ .

(٤) في صحبة الأميرين ، ص ٨٣ .

(٥) ديوان أبي فراس ٣٥٧/٣ .

يا باذل النفس والأموال مُتَسِمًا أما يَهُولُكَ لا موتٌ ولا عدمٌ

ويخاطب ابن عمّه ويعترف له بفضلته عليه^(١):

وأنتَ أشدُّ هذا الناسِ بأساً وأصبرهمُ على نُوبِ القتالِ
وأهجمهمُ على جيشٍ كثيفٍ وأغورهمُ على حيٍّ حلالِ
وأنتَ أريتنِي خَوْضَ المنايا وضَربي تحت هَبواتِ القتالِ
فَضَربي من قتالكِ لا قتالي وخَوْضِي من فَعالكِ لا فَعالي

فهو يرى في ابن عمه الفارس الشجاع ، الصبور على القتال ، القوي الذي يغشاه الناس ، فيتركون أموالهم وأرضهم ، ثم ما يلبث أن ينسب كل أفعاله هو في القتال لابن عمّه ، فهو المعلم الحقيقي له ؛ لذلك فكل فعل بطولي يقوم به أبو فراس ما هو إلا من أفعال سيف الدولة إن ضرب بالسيف أو خاض المعارك .

ثم وضح الشاعر أسباب هذا الإقدام بقوله^(٢):

علينا أن نُعاوِدَ كُلَّ يَوْمٍ رَحِيصٌ عِنْدَهُ المَهَجُ العَوالِي
فإن عَشنا ذخرناها لأُخْرَى وإن مُتتا فموتاتُ الرِّجالِ

فالشاعر الفارس لا يهاب الموت ، وإنما يُقدم عليه ، فمهجته الغالية ترخص عند لقاء الموت الذي إن حضر في تلك المعركة كان فخراً للفارس ، وإن سلم منه ادخر تلك المهجة الغالية ليوم بطولي آخر ، فذلك التعبير يدل على العزم الصادق في مواصلة القتال والتلذذ بلقاء الأعداء ومواجهتهم بكل شجاعة .

كما عبّر عن قوة مواجهتهم للموت بقوله^(٣):

وفتيانِ صدقٍ من غطاريفِ (وائِلِ) إذا قيل ركبُ الموتِ قالوا له : انزِلِ
يسوسهمُ بالخيرِ والشرِّ ماجدٌ جرورٌ لأذْيالِ الخُميسِ المُذيلِ

(١) ديوان أبي فراس ٢/٢٨٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٨٤ .

(٣) السابق ٢/٢٨٦ .

أحلّهم الجزيرة بعد يأسٍ أخو حلمٍ إذا ملك العقابا

ولقد حذا أسامةُ حذوَ أبي فراس في إعطاء القائد الصورة التي تحمل المعاني الإسلامية القوية للحثّ على الجهاد واستنهاض العزائم^(١):

مثلٌ مُنهلٌ أنعم الملك الصّا لِح يروى دان به وسحقُ
سُحبٌ وبُلها التّضارُّ وللأغـ داءٍ فيها صواعقٌ وحريقُ
ملكٌ زاده التّواضعُ للـ هـ جلالاً يروعُ ثم يروقُ
سَطواتٌ تُخشى وحلمٌ يُرجى ونوالٌ طلقٌ ووجهٌ طليقُ
يا أميرَ الجيوشِ ما زالَ للإسـ لامٍ والدينِ منك ركنٌ وثيقُ
أسمعتُ دعوةَ الجهادِ فلبّا ها مليكٌ بالمكرماتِ خليقُ
ملكٌ عادلٌ أنارَ به الدّيـ نُ فعمّ الإسلامَ منه الشُّروقُ
ما له عن جهاده الكفرُ والعد لٍ وفعلِ الخيراتِ شُغلٌ يعوقُ
هو مثلُ الحسامِ صدرٌ صقيـ ليين مسّه ، وحدٌ ذليقُ
ذو أناةٍ يخالها الغرُّ إهما لا ، وفيها حتفُ الأعادي المُحيقُ
فاسلما للإسلامِ كهفّينِ ما طرّ ز ثوبَ الظّلامِ برقٌ خفوقُ

فقد جعل للقائد أسمى الصفات وأبهاها ، فهو القائد العطوف الرحيم الكريم ، الحليم على جيشه ، المرید الشديد على الأعداء ، أمير الجيوش ، المنشغل بالجهاد ، الذي يشبه السيف في حدّته .

كما يجمع القائد بين إمارة الجيوش والعدل^(٢):

يا أميرَ الجيوشِ يا عدلَ الحُـ كام في فعله وفيما يقولُ
أنتَ تقضي بالحقِّ لستَ وإن زالتْ جبالُ الأرضينَ عنه تَزولُ

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

ويرى أسامة في ممدوحه صورة الفارس المجاهد الكريم العفيف^(١):

ولو لم تُفدَ إلا الجهادَ فإِنَّهُ
فكيف وقد أصبحتَ جاراَ لماجدِ
كريمِ كليلِ الطَّرْفِ عن عيبِ جارهِ
شَرى الحَمْدَ بالأموالِ لا يستقيلُ في

ثوابٌ كما نصَّ الكتابُ جزيلاً
يجودُ على علاته ويُييلُ
وما طرْفُهُ عند السُّؤالِ كليلُ
شِراهُ ، ولا عندَ البِيعِ يُقيلُ

وقال في نصر بن الأفضل^(٢):

ومَن إذا جادَ بالدنيا لآملِهِ
ومَن إذا جرَّدَ البيضَ الصَّوارِمَ في الـ

قالت معا [رفه] حاشاك من بخلِ
هيجاءِ [أسكنها] في الهامِ والقَللِ

فالشاعر يرى فيه ذلك الملك الكريم الشجاع ، الذي ضرباته على الأعداء مصيبة دائماً ،
كما يرى تلك الصفة في الملك الصالح ، وذلك بقوله^(٣):

بنو الحربِ في يومِ الوغى وبنو الندى
إذا ما احتبوا فالرَّاسياتُ رجاجةٌ

إذا ما بلادُ الناسِ جرّدها القحطُ
وإن ركبوا فالأسدُ هيجتُ لها تحطُ

ويقول فيه كذلك^(٤):

أنت حلّيتَ بالمكارمِ أهلَ العَصْـ
وعلاً خاملاً وحامياً جباناً
وقسمتَ الفرنجَ بالغزوِ شطريـ
والذي لم يحنْ بسيفك منْ خوـ

رٍ حتى تعرّفَ المجهولُ
ووفى غادرٌ وجاداً بخيـ
من فهذا عانٍ وهذا قتيـ
فك أمسى وعقله مخبولُ

مثل الخوفِ بين عينيه جيشاً

لك في عُقرِ داره ما يزولُ

ففي الأبيات السابقة رسم صورة رائعة للقائد تصوّر بطولته على أعدائه ، فقد استطاع

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .

(٣) السابق ، ص ٢٢٥ .

(٤) نفسه ، ص ٢٤١ .

بشجاعته أن يقسمهم إلى قسمين : أسير ، وقتيل ، ومن لم يُقتل أمسى من شدة الخوف
محبول العقل ؛ لأن صورة الجيش لم تفارق عقله ، حتى في عقر داره .

يقول أسامة واصفاً ذلك القائد بالجوّد والإقدام^(١) :

من أظهرَ الجودَ والإقدامَ إذْ عُدِمَا إلى الوجودِ بضربِ الهامِ والصفدِ
من يلتقي المذنبين المسلمين بما جنوهُ قصداً بعفو غيرِ مقصدِ
يُسني المواهبَ مسروراً بها جَدلاً فمنه غيرُ ممنونٍ ولا نكدِ
كالمشرفية فيها حسنُ رونقها في السلمِ والحربِ والهلماتِ والغمدِ

ففي الأبيات السابقة يعرض أسامة صورة كاملة للفراس القائد ، لا تختلف عن صور
أبي فراس .

كما يصورُ الفرّاس بالأسد ، وأعداءه باليوم والرخم^(٢) :

توهّموا أن ضاري الأسد ينفرُ عن عرينه لحشودِ البومِ والرخمِ
وما دروا أنه في جحفلٍ لجبٍ من بأسه ، غيرُ هيّابٍ ولا برمِ
مغامرٌ ترهبُ الآجالُ سطوته وتفرّق الأسدُ منه في حمى الأجمِ
يستقبلُ الحربَ بساماً وقد كثرت بها المنيةُ عن أنيابهما الأرمِ

ويرى أسامة أنه إن كان في مدحه يشبه زهيراً ، إلا أن ممدوحه فاق وعلا عن هرم بن
سنان ممدوح زهير^(٣) :

وإن أكنُ كزهيرٍ في الشاءِ فقد علوتَ مجداً وجوداً عن مدى هَرمِ
وإن تكنَ مدحي وقفاً عليك فلا تظنّ أن ثنائي منتهى هممي
ففي يمينك مني صارمٌ خذمٌ يفري إذا كلَّ حدّ الصّارمِ الخدمِ
في حدّه حتفٌ من ناواك وهو لمن والاك مُنبجسٌ بالباردِ الشبمِ

(١) ديوان أسامة ، ص ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٣) السابق ، ص ٢٤٥ وما بعدها .

فمرّ بما شئت ألقى الأمر ممتثلاً
مجرّباً طاعتي تجريباً مُختبراً
فبذل نفسي عندي في رضاك فلا
بهمّة ما اعترتها فترة الهمم
إنّ التجارب تجلو شبهة التهم
حُرمته بعض ما أنويه من خدمي

ويرى الشاعر نفسه سيفاً قاطعاً على الأعداء في يد قائده ، في مقابل أنه خير وبركة على المقربين إليه .

وأسامة لا يختلف عن أبي فراس في نظريته إلى قصور الشعر في الوصف^(١):

فإن يبالغ أناسٌ في الشاءِ علي
أوصافكم قصّروا في كلِّ ما وصفوا
فخذ نظاماً علي قدرِ الذي كتبتُ
يداك إذ عددُ النّظمين مؤتلفُ

فيرى أنه مهما عدّد الشعراء من خصال الفارس ، فلا يستطيع شعرهم أن يبلغ الكمال في وصفه ، فأسامة من الفرسان الذين ينظرون إلى الشعر دون مستوى الفروسية ، فالأصل الشجاعة ، ومن فروعها الشعر .

وذلك يظهر واضحاً بعد حديثه عن صفات الملك الصالح ؛ إذ يقول^(٢):

ما يبلغ الشُّكرُ ما يُؤليه من منن
لكن مواهبه في الخلق شاهدة
كالرّوضِ إن لم يُطقْ شكر السّحابِ إذا
بل نراه يصف شعره فيه بقوله^(٣):

إنعامه فوق ما نُثني وما نصِفُ
بشكرِ إنعامِهِ والشُّكرُ يَخْتَلِفُ
هَمَى فَضْرَتُهُ بِالْفَضْلِ تَعْتَرِفُ

جعلتُ نظمي له ضنّاً بفاخره
لأصرفَ العينَ عنه إنّها أبداً
وقايةٌ ووقاءُ الجواهرِ الصّدْفُ
عن الكمالِ برؤيا النقصِ تنصرفُ

غير أن أسامة أكثر من المعاني الإسلامية في وصف القائد^(٤):

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) السابق ، ص ٢٣٤ .

(٤) نفسه ، ص ٢٤٣ .

وَقَمَّتَ فِي اللَّهِ احْتِسَاباً فَقَدْ
وَأَنْتَ ظَلُّ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ
فَلَا يَشُبُّ أَجْرَ الْجِهَادِ الَّذِي
ويقول^(١):

وما قولنا عن حاجة بل يسوءنا
خزائنا ملأى وما هي ذخرننا الـ
ملكنا الذي لم تحوه كف مالِك
فنحن ملوك البأس والجود سوقة الـ
فما خير ملِك أنت عنه مُحاسَبٌ
فقل لملوك الأرض ما الفخر في الذي

فالشاعر يرى الفخر لا يكون إلا مع الكرم والبأس والتواضع .. وليس كما فعل
أبو فراس .

ولقد ظهر تأثر أسامة بأبي فراس في عرضه لصور الفارس القائد ، فهي صور لم تختلف
عن الصور التي أسبغها أبو فراس على قائده في معانيها ، وإن اختلفت في أهدافها ، فأبو فراس
عند عرضه لصور القائد يرى في نفسه ظلاً لهذا القائد ؛ إذ لم يكن هو نفسه القائد ، بينما
أسامة يعرض تلك الصور للإشادة بقواد المسلمين والاعتراف بعظيم فعالهم ، فنراه يقول في
نصر بن الأفضل^(٢):

يا من يهينُ المالَ في كَسْبِ العُلا
أغرَبْتَ في بَدْلِ التَّوَالِ وخاطبُ الـ
كم من يد أوليتها أثمرت
وكرامة أبداً ، أبوحُ بشكرها

ويرى الثناء أجلّ ذخرٍ يُذخرُ
علياء ليس بضائعٍ ما يُمهرُ
عندي وما كُـلُّ الأيادي تُثمرُ
إنَّ الكريمَ على الكرامة يُشكرُ

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

والشكرُ من مثلي يَزِينُ وإِنَّمَا بَشَاءٍ مِّنْ يُثْنِي عَلَيْهِ يُفَخَّرُ
وصنائعُ المعروفِ كالوسميِّ ذَا من قَطْرِهِ نَبْتُ وَهَذَا جَوْهَرُ

فالشاعر في البيت الثاني يقترب من أبي فراس في معانيه وألفاظه ، فذلك مثل قول أبي فراس^(١) :

تَمُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهَا الْمَهْرُ

فالشاعر يتفق مع أبي فراس ، ولعل ذلك الاتفاق منشؤه تشابه تجارب الحياة التي تعرضا لها في ظلال فروسيتهما .

غير أن صورهما هي صور تقليدية .

أما الأمر الذي يجمع بينهما حقاً فإنه تصويرهما للبطولة الذاتية .

فلقد جسّد أبو فراس وأسامة هذه الحياة البطولية في شعرهما بشكل ملحوظ ، خصوصاً عند إظهار الشجاعة التي تميزا بها ، والتي تعتبر من أبرز صفات الفارس ، فهذه الشجاعة هي التي دفعته لخوض المعارك ومواجهة الموت بلا خوف ولا وجل ؛ لأنه مدرك أن له أجلاً ، وهذا هو سرّ إصراره على القتال واستبساله في الحروب ، فهو الفارس المسلم المصدّق لقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾^(٣) ، وهي أيضاً رغبة منه في الحصول على الشهادة ونيلها ، فهي التجارة الراجعة مع الله وَعَلَيْكَ .

يقول أبو فراس^(٤) :

لَا أَصْحَبُ الْخَوْفَ وَلَا أُرَافِقُهُ وَالْمَوْتُ حَتْمٌ كُلُّ حَيٍّ ذَائِقُهُ
[يَا خَائِفَ الْمَوْتِ وَأَنْتَ سَائِقُهُ] تَفَرُّ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْتَ ذَائِقُهُ]

(١) ديوان أبي فراس ٢١٤/٢ .

(٢) سورة الرعد : الآية (٣٨) .

(٣) سورة آل عمران : الآية (١٨٥) .

(٤) ديوان أبي فراس ٢٦٥/٢ .

ويقول^(١):

مَتَى مَا يَدُنْ مِنْ أَجَلٍ كِتَابِي أَمْتُ بَيْنَ الْأَعْتَةِ وَالْأَسِنَّةِ

ويقول^(٢):

قَدْ عَذَّبَ الْمَوْتُ بِأَفْوَاهِنَا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ مَقَامِ الدَّلِيلِ
إِنَّا إِلَى اللَّهِ لَمَّا نَابِنَا وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرِ السَّبِيلِ

وصور الشاعر نفسه بصورة رائعة ، هي صورة الفارس الجواد الذي يجود بنفسه ،
وذلك من خلال حوارٍ دارَ بينه وبين نساء الحي^(٣):

بَكْرَنَ يَلْمَنِي وَرَأَيْنَ جُودِي عَلَى الْأَرْمَاحِ بِالنَّفْسِ الْمَضْنَةَ
فَقُلْتُ لَهْنٌ هَلْ فَيَكُنُّ بَاقٍ عَلَى نُوبِ الزَّمَانِ إِذَا طَرَقْنَهُ
وَإِنْ يَكُنُّ الْحِذَارُ مِنَ الْمَنَايَا سَبِيلًا لِلْحَيَاةِ فَلِمَ تَمْتِنُهُ؟
سَأَشْهَدُهَا عَلَى مَا كَانَ مِنِّي بِيَسْطِي فِي النَّدَى بِكَلَامِ مَهْنَتِهِ
(وَأَجْعَلُكَ نَّ أَصْدَقَ فِيَّ قَوْلًا) إِذَا وَصَفَ النَّسَاءُ رَجَالَهُنَّ
فَإِنْ أَهْلَكَ فَعَنْ أَجَلٍ مُسَمًّى سَيَأْتِينِي وَلَوْ مَا بَيْنَكُنَّ
وَإِنْ أَسْلَمَ فَقَرَضٌ سَوْفَ يُوفَى وَأَتَّبِعُكَ إِنْ قَدَّمْتُكَ
فَلَا يَأْمُرُنِي بِمَقَامٍ ذُلٍّ فَمَا أَنَا بِالْمَطِيعِ إِذَا أَمَرْتَهُ!
وَمَوْتُ فِي مَقَامِ الْعِزِّ أَشْهَى إِلَى الْفُرْسَانِ مِنْ عَيْشٍ بِمِهْنَتِهِ!

" (فالشاعر الفارس) لا تعني الشاعر المتحدث عن البطولة ، بل لا تعني الشاعر الشجاع فقط ، وإنما تعني - إلى ذلك - كثيراً من الخصائص النفسية ، في قمتها العفة الأخلاقية ، وبخاصة تجاه المرأة والضعفاء ، والنبيل والتسامي عن الدناءة والتعلق بالمثُل العليا والإيثار والرغبة في نفع الآخرين ، إلى جانب هذه البطولة التي هي المنطلق في

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٩٨ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٣٤ .

(٣) السابق ٣/٤١٨ وما بعدها .

تكوين شخصيته" (١).

وتحدث الشاعر عن بطولاته ومدىحه لنفسه ليس عيباً ، وتلك ميزة اختص بها الشاعر عن غيره : " ليس لأحد من الناس أن يطري نفسه ويمدحها في غير منافرة ، إلا أن يكون شاعراً ، فإن ذلك جائز له غير معيب عليه" (٢).

يقول أبو فراس (٣):

أنا الذي لا يُصيبُ الدهرُ عثرتهُ	ولا يبيتُ على خوفٍ مُجاورهُ
يُمسي وكلُّ بلادٍ حلَّها وطنٌ	وكلُّ قومٍ غداً فيهمُ عشائرهُ
وما تمدَّ له الأطنابُ في بلد	إلا تَضَعُ باديهِ وحاضرهُ
لي التَّخِيرُ مُشْتَطاً ومُتَصَفِّاً	وللأفاضلِ بَعْدِي ما أُغادرهُ
إني لأرعى حمى الجبارِ مُقْتَدِراً	وأوردُ الماءَ غصباً وهو حاضرهُ
فكيف تنتصفُ الأعداءُ من رجلٍ	العزُّ أولهُ والمجدُ آخرهُ
زاكي الأصولِ كريمِ النَّبَعَيْنِ وَمَنْ	زَكَتْ أوائلهُ طابتْ أوخرهُ

ويحصر أبو فراس أسباب تفضله على الأنام بست فضائل ، حيث قال (٤):

وأنا الذي فَضَلَ الأنامَ فأصبحوا	طوعاً له قسراً بست فضائل
بصواهرٍ وعواملٍ وقبائلٍ	ومكارمٍ وذوابلٍ ومناصلٍ! (٥)

(١) مقدمة في النقد الأدبي ، د. محمد حسن عبد الله ، مطبعة الحرية ، بيروت ، دار البحوث العلمية ، د. ط ، د. ت ، ص ١٧٦ .

(٢) العمدة ١/١٢ .

(٣) ديوان أبي فراس ١٨٣/٢ .

(٤) المصدر السابق ٣٠٧/٢ .

(٥) الصواهر : الخيول . العوامل : جمع العاملة ، وهي من الرمح أعلاه مما يلي السنان بقليل . الذوابل : الرماح . المناصل : السيوف .

فقد جعل الشاعر الفارس الفروسية ومضامينها هي فضائله التي جعلت منه سيداً مطاعاً .

ويقول متحدثاً عن فروسيته^(١):

لئن أَلْفَيْتَنِي مَلِكاً مُطَاعاً فَإِنَّكَ وَاجِدِي عَبْدَ الصَّدِيقِ
أَخُو الْعَمَرَاتِ فِي جِدٍّ وَهَزَلٍ أَخُو النَّفَقَاتِ مِنْ سَعَةٍ وَضَيْقٍ^(٢)
جَرِيءٌ فِي الْحُرُوبِ عَلَى الْمَنَايَا جَبَانٌ عَنِ مُلَاحَاةِ الرَّفِيقِ

فالشاعر يصور نفسه بعبارات صادقة تمثل معاني الفروسية المتمثلة في شجاعته وتواضعه وسماعته وكرمه ، فقد جمع صفات الفارس القائد ، المقبل على الموت بكل جرأة .

فصورة القتال مسيطرة على عقل الشاعر ومشاعره ، حيث عبر عنها بصورة أعمق من خلال وصفه للحرب وتعلقه بها ، فالحرب التي يخشاها الكثير ويتعد عنها ما هي إلا طعام الفارس وشرابه^(٣):

وَلَا تَصِفَنَّ الْحَرْبَ عِنْدِي فَإِنَّهَا طَعَامِي مُذْ بَعْتُ الصَّبَا وَشَرَابِي
وَقَدْ عَرَفْتُ وَقَعَ الْمَسَامِيرِ مُهَجَّتِي وَشَقَّقْتُ عَنْ زُرْقِ النَّصُولِ إِهَابِي
وَلَجَجْتُ فِي حُلُوِّ الزَّمَانِ وَمُرِّهِ وَأَنْفَقْتُ مِنْ عُمْرِي بِغَيْرِ حَسَابِ

بل يرى في ارتواء الرماح تعويضاً عن شرب الماء العذب :

إِذْ قَالَ : أَسْقُونِي فَعَوْضَ بِالْقَنَا مِنْ شُرْبِ عَذْبِ الْمَاءِ مَا أَرَوَاهُ^(٤)

ومعمعة الحرب وقراع السيوف أحسن عنده من القهوة^(٥):

أَحْسَنُ مِنْ قَهْوَةٍ مُعْتَقَةٍ بَكَفِّ ظَبِيٍّ مُقْرَطِقٍ غَنَجِ
صَوْتُ قِرَاعٍ فِي وَسْطِ مَعْمَعَةٍ قَدْ صَبَغَ الْأَرْضَ مِنْ دَمِ الْمُهَجِ

(١) ديوان أبي فراس ٢٦٩/٢ .

(٢) الغمرات : جمع الغمرة ، وهي الشدة والمكروه .

(٣) ديوان أبي فراس ٢٩/٢ .

(٤) المصدر السابق ٤٢٣/٣ .

(٥) ديوان أبي فراس ٥٧/٢ . والمراد بالقهوة هنا الخمر المعتقة عند الذين يشربونها ويحبونها .

وحبّ الحرب لا يقتصر على الفارس نفسه ، بل يتجاوز إلى ابنه ، فلم يجد أبو فراس غداءً أحبّ لابني سيف الدولة من دماء الدارين ؛ وذلك ليثبت لهما الشجاعة منذ الصغر^(١) :

أَبْنَانِ أُمِّ شَيْبَلَانَ ذَانَ فِإِنِّي لِأَرَى دِمَاءَ الدَّارِعِينَ غِذَاهُمَا
تُنْبِي الفِرَاسَةَ : أَنَّ فِي ثَوْبَيْهِمَا لَيْثِينَ تَحْتَبُّ اللُّيُوثُ حِمَاهُمَا
ويقول^(٢) :

إِذَا وُلِدَ المُولُودُ مَتَا فِإِثْمَا أَلِ أَسِنَّةً ، وَالبَيْضُ الرِّقَاقُ تَمَائِمُهُ

وهذا لا يعني أن كلّ حرب محمودة مرغوبة عند الفارس ، فهناك حروب يتمنى أن لا تقوم ، بل يعمل جاهداً على إخمادها إن شعر بثورانها ، فللشاعر أبيات وجهها إلى قومه يدعوهم فيها إلى الاجتماع وعدم الفرقة ، فهو يقوم بدور الفارس الناصح لهم^(٣) :

بَنِي أَبِي فَرَّقَ مَا بَيْنَكُمْ وَاشِ عَلَى الشَّحْنَاءِ مَطْبُوعُ
عُودُوا إِلَى أَحْسَنَ مَا كُنْتُمْ فَانْتُمُ العُرُّ المَرَابِيعُ
لَا يَكْمُلُ السُّودُّ فِي مَا جَدِ لَيْسَ لَهُ عَوْدٌ وَمَرْجُوعُ
أَبْذَلُ الوُدِّ لِأَعْدَائِنَا وَهُوَ عَنِ الإِخْوَةِ مَمْنُوعُ
أَوْ نَصِلُ الأَبْعَدَ مِنْ قَوْمِنَا وَالتَّسَبُّ الأَقْرَبُ مَقْطُوعُ
لَا يَثْبُتُ العِزُّ عَلَى فُرْقَةٍ غَيْرُكَ بِالبَاطِلِ مَخْدُوعُ

ففي هذه الأبيات يذكرهم بأخلاقهم القتالية التي تميّزوا بها ، ثم أخذ يطرح عليهم استفهامات إنكارية تعجبية .

ويؤكّد على رغبته في عدم نشوب الحرب بين قومه في ندائه لهم^(٤) :

أَيَا قَوْمِنَا لَا تُنْشِبُوا الحَرْبَ بَيْنَنَا أَيَا قَوْمِنَا لَا تَقْطَعُوا اليَدَ بَالِيَدِ

(١) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٥٩ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٩٣ .

(٣) السابق ٢/ ٢٥٠ وما بعدها .

(٤) نفسه ٢/ ٩٨ .

فَيَا لَيْتَ دَانِي الرَّحْمِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِذَا لَمْ يُقْرَبْ بَيْنَنَا لَمْ يُبْعَدِ
[عَدَاوَةُ ذِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهْتَدِ]

يفخر أبو فراس بطولاته ، حتى إنه يأمر قائده بأن يلقي به في وجه الجيوش ؛ لشدة تعلقه بالحروب ، ويرى في نفسه ذلك السيف في معصم قائده ، فهو يعيش في تناقض مع ذاته ، يأمر ويطيع في نفس الوقت ، وذلك بسبب ما أصاب الشاعر الفارس من غرور بشجاعته^(١) :

ارْمِ الْكِنَائِبَ بِي ! فَإِنَّكَ عَالِمٌ أَنِّي أَخُو الْهَيْجَاءِ غَيْرُ مُذَمَّمٍ
وَعَلَامٌ لَا أَلْقَى الْفَوَارِسَ مُعَلِّمًا وَعُلُوُّ جَدِّكَ عُذَّتِي وَعَرْمَرَمِي !
أَنَا سَيْفُكَ الْمَاضِي وَلَيْسَ بَقَاطِعِ سَيْفٌ إِذَا مَا لَمْ يُشَدَّ بِمَعْصَمِ

فهو الفارس الذي يخشاه الناس ، له هيبة بين الفرسان ، يهاجم القبائل المتمردة ، فيتركهم مذعورين خائفين منه وقد تركوا أموالهم^(٢) :

أَحِلُّ بِالْأَرْضِ يَخْشَى النَّاسُ جَانِبَهَا وَلَا أَسْأَلُ أَتَى يَسْرَحُ الْمَالُ
وَهَيْبَتِي فِي طِرَادِ الْخَيْلِ وَاقِعَةٌ وَالنَّاسُ فَوْضَى وَمَالُ الْحَيِّ إِهْمَالُ
كَذَاكَ نَحْنُ إِذَا مَا أَرْمَى طَرَقَتْ حَيًّا بِحَيْثُ يَخَافُ النَّاسُ حُلَالُ

ونراه كثيراً ما يخبر عن تلك البطولات التي حققها ، فمن ذلك قوله^(٣) :

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ سَرَوَاتِ قَوْمِي وَ (سَيْفَ الدَّوْلَةِ) الْمَلِكِ الْهُمَا مَا !
بِأَنِّي لَمْ أَدْعُ فِتْيَاتِ قَوْمِي إِذَا حَدَّثَنَ جَمَجَمَنَ الْكَلَامَا
شَرَيْتُ ثَنَاءَهُنَّ بِيذْلِ نَفْسِي وَنَارُ الْحَرْبِ تَضْطَرُّمُ اضْطَرَامَا

فهو الفارس الذي يشري الثناء ببذل نفسه في الحروب ، ثم أخذ يوضح كيف فعل

(١) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٧٩ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٤٠ .

(٣) السابق ٣/ ٣٦٢ .

ذلك بقوله^(١):

وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ إِلَّا فِرَارًا أَحَدٌ مِنَ الْمَنِيَّةِ أَوْ حِمَامَا
حَمَلْتُ عَلَى وُرُودِ الْمَوْتِ نَفْسِي وَقَلْتُ لِعُصْبَتِي (مُوتُوا كِرَامَا)
وَلَمْ أَلَسْ حِذَارَ الْمَوْتِ لَامَا وَلَمْ أَلَسْ حِذَارَ الْمَوْتِ لَامَا
وَعُذْتُ بِصَارِمٍ وَيَدٍ وَقَلْبٍ حَمَّانِي أَنْ أَلَامَ وَأَنْ أَضَامَا
أَلْفُهُمْ وَأَنْشَرَهُمْ كَأَنِّي بِهِمْ نَعَمًا أَطَارِدُ أَوْ نَعَامَا
وَأَنْتَقِدُ الْفَوَارِسَ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ اللَّوْمَ أَنْ أَلْفَى أَلَامَا
وَمَدَعُوهُ إِلَيَّ أَجَابَ لَمَّا رَأَى أَنْ قَدِ تَذَمَّمَ وَأَسْتَلَامَا
عَقَدْتُ عَلَى مُقَلِّدِهِ يَمِينِي وَأَعْفَيْتُ الْمُثَقِّفَ وَالْحُسَامَا
وَهَلْ عُذْرٌ وَ (سَيْفُ الدِّينِ) رُكْنِي إِذَا لَمْ أَرْكَبِ الْخُطَطَ الْعِظَامَا
وَأَتَّبِعُ فِعْلَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَأَجْعَلُ فَضْلَهُ أَبَدًا إِمَامَا

فقد أظهر الشاعر في هذه الأبيات مقدرته على مواجهة الموت من خلال أدوات الفارس الثلاثة المحققة للشعر ، وهي : السيف ، واليد ، والقلب ، فاجتمعت هذه الأدوات ، وهي مصدر قوته على الأعداء ، فلا يحتاج معها إلى أدوات مساعدة قد يكون وجودها دليلاً على الضعف ، ثم وضع أنه استمد تلك الشجاعة من سيف الدولة الذي كان له فضل تلك النشأة البطولية .

وله قصيدة رائعة قالها في أسره ، صور فيها الفارس والآداب التي يتحلى بها ، حيث بدأ قصيدته متغزلاً كعادة الشعراء الفرسان ، ثم انتقل إلى الفخر بنفسه ، فيقول فيها^(٢):

وَأَيُّ جَرَارٍ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ مُعَوَّدَةٍ أَنْ لَا يُخِلَّ بِهَا النَّصْرُ
وَأَيُّ لَنْزَالٍ بِكُلِّ مَخْوفَةٍ كَثِيرٍ إِلَى نُزَالِهَا النَّظْرُ الشَّرُّ

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٢١٢ .

فَأَظْمَأُ حَتَّى تَرْتَوِي الْبَيْضُ وَالْقَنَا وَأَسْغَبَ حَتَّى يَشْبَعِ الذَّنْبُ وَالنَّسْرُ

يتحدّث الشاعر عن شجاعته في الحروب ، وكيف يقود الكتائب إلى النصر ، ولا يهاب من التّزول بالأرض التي يهاهما غيره ، ويواصل الحرب حتى ترتوي سيوفه ورماحه ، وتشبع الطيور والذئاب من أجساد أعدائه .

ثم بعد ذلك ينتقل الفارس إلى الحديث عن أخلاقه القتالية في مواجهة أعدائه ، فهو الفارس الذي لا يقوم بالغارة حتى تسبقه النذر ، وهو العفيف ، الكريم ، القنوع^(١):

وَلَا أُصْبِحُ الْحَيَّ الْخَلُوفَ بَغَارَةً
وَيَا رَبَّ دَارٍ لَمْ تَخْفَنِي مَنِيعةً
وَحَيٌّ رَدَدْتُ الْخَيْلَ حَتَّى مَلَكْتُهُ
وَسَاحِبَةَ الْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقِيْتُهَا
وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ الْجَيْشُ كُلُّهُ
وَلَا رَاحَ يُطْعِمُنِي بِأَثْوَابِهِ الْعَنِي
وَمَا حَاجَتِي بِالْمَالِ أَبْغِي وَفُورَهُ
وَلَا الْجَيْشَ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبْلِي النَّذْرُ
طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدى أَنَا وَالْفَجْرُ
هَزِيمًا وَرَدَّدْتَنِي الْبَرِاقِعُ وَالْحُمْرُ
فَلَمْ يَلْقَهَا جَهْمُ اللَّقَاءِ وَلَا وَعْرُ
وَرُحْتُ وَلَمْ يُكشِفْ لِأَثْوَابِهَا سِتْرُ
وَلَا بَاتَ يَشِينِي عَنِ الْكَرَمِ الْفَقْرُ
إِذَا لَمْ أَفْرِ عَرَضِي فَلَا وَفَرَ الْوَفْرُ

والأخذ بالثأر عادة جاهلية أبطلها الإسلام ، ولكننا نلمح لها أثرًا في شعر أبي فراس^(٢):

لَقَدْ عَلِمْتَ (قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ) أَنَّنَا
وَأَنَا نَزَعْنَا الْمُلْكَ مِنْ عَقْرِ دَارِهِ
وَأَنَا فَتَكْنَا بِالْأَغْرِّ (ابْنِ رَائِقِ)
أَخَذْنَا لَكُمْ بِالثَّارِ ثَارَ (عُمَارَةَ)
بِنَا يُدْرِكُ الثَّارُ الَّذِي قَلَّ طَالِبُهُ
وَنَتَّهِكُ الْقَرَمَ الْمُمنَعَ جَانِبُهُ
عَشِيَّةَ دَبَّتْ بِالْفَسَادِ عَقَارِبُهُ
وَقَدْ نَامَ لَمْ يَنْهَدْ إِلَى الثَّارِ صَاحِبُهُ

(١) ديوان أبي فراس ٢١٢/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٣/٢ .

ويقول أبو فراس متحدثاً عن بطولاته أيضاً^(١):

هذا ، وكم من غمة كَشَفْتُهَا بِشَبَا الظُّبَا وتوقُّدِ الخِرْصَانِ
مُتَجَرِّدًا فَرْدًا بغيرِ مَسَاعِدِ غيرِ الجَوَادِ ومُرْهَفِ وسِنَانِ
فإذا بطشتُ بطشتُ ليشاً بآسِلًا وإذا نَطَقْتُ نطقتُ عن تَبِيَانِ
وإذا قَصِدْتُ لِحَاجَةٍ لم يُثْنِي خَوْفُ الرَّدَى وتَصْرُفُ الأَزْمَانِ

" فهو يصف نفسه مفتخرًا بأنه كشاف الغم برماحه وسيوفه ، وهو فرد وحيد ، وليس له من مساعدٍ إلا الجواد الذي يمتطي صهوته والسيف يحزّ به الرؤوس ، والرمح يحطم به الضلوع والصدور ، كما يصف نفسه بمنتهى الشجاعة ، فيشبهها بالأسد ، ويمتئى البلاغة ، فهو ينطق عن بيان"^(٢).

وأبو فراس القائد الذي يلتفّ حوله الجند لمواجهة الفرسان في الصباح^(٣):

إذا التفت عليّ سَراةً قَومِي ولاقينا الفوارسَ في الصبَاحِ
أقودُ بهم إلى الغمراتِ سَعِيًا بناتِ السِّبْقِ تحتَ بني الكِفَاحِ
تَكَدَّرَ نَقْعُهُ والجوُّ صَافٍ وأظلمَ وقْتُهُ واليَوْمُ صَاحِ

ففي الأبيات السابقة يوضح الشاعر مقدرته على قيادة الحروب مع المحاربين الأشداء على ظهور الخيول ، حتى ليعكر جوّ المعركة الغبار المثار من شدتها .

ويقول واصفًا شجاعته^(٤):

أبْلَغُ (بني همدان) في بُلْدَانِهَا كَهُولِهَا والغُرِّ من شُبَانِهَا
يَوْمَ طَرَدْتُ الخَيْلَ عن أَطْعَانِهَا وسُقْتُ من (قيس) ومن جيرانِهَا

(١) ديوان أبي فراس ٤١٥/٣ .

(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، تأليف : د. مصطفى الشكعة ، عالم الكتب ، بيروت ، د.ط ، ١٩٨١م ، ص ٢٤٤ .

(٣) ديوان أبي فراس ٦٤/٢ .

(٤) المصدر السابق ٤٠٠/٣ وما بعدها .

ذوي علاها وذوي طعانها
عائرة تعثر في عنانها
وإبلاً تترع من رعيانها
طاردي عنها وعن غشيانها
أسعمل الشدة في أوانها
تركت ما صبحت من فرسانها
ومهرة تمرح في أشطانها
حتى إذا قل غنا شجعانها
حرائر أرغب في صيانها
وأغفر الزلّة في إبانها

كما يتطلع الفارس إلى العلا ، ولا يرضى إلا بالكمال ، وحين يفاخر لا يجد خيراً من الفروسية لفخره ، فذكر شجاعته وإقدام فرسه وأصحابه الشجعان ، بأبيات تسرد أروع الصور لما عليه هؤلاء الشجعان ، حتى عدت الدنيا بأسرها داراً لهم ، وأمسى الناس كلهم عبيداً لديهم ، وفي ذلك مبالغة ، ولكنها ليست بغريبة على أبي فراس الذي اعتاد المفاخرة بنفسه وبقومه^(١) :

أبت لي همّتي وغرار سيفي
ونفس لا تجاورها الدنايا
وقوم مثل من صحبوا كرام
فقد أصبحن والدنيا جميعاً
إذا أمست (نزار) لنا عبيداً
وعزمي والمطيّة والقفار
وعرض لا يرّف عليه عار
وخيل مثل من حملت خيار
لنا دار ومن تحويه جار
فإن الناس كلهم (نزار)

فأبو فراس فارس صاحب همّة عالية لا ترضى بالذل^(٢) :

ولو رضيت نفسي المقام لقصرت
ولو أنها لانت لحفض معيشة
ولكن نفسي لا تحب لي الرضا
ولكنها معقودة بالكواكب
أطاعت مقالات العواني الكواكب
بغير الرضا من عاليات المناصب

(١) ديوان أبي فراس ١٧٩/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٩/٢ .

ويقول الشاعر مصوراً استنجاذاً للنساء به^(١):

فَلَمَّا سَمِعْتُ ضَجِيجَ النَّسَاءِ ءِ نَادَيْتُ (حَارِ) أَلَا فَاقْصِرِ !
أَرَحَارِثُ) مَنْ صَافِحُ غَافِرُ لَهْنٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَغْفِرِ !
رَأَى (ابْنَ عَلِيَّانَ) مَا سَرَّهُ فَقُلْتَ (رُؤَيْدَكَ لَا تُسْرِرِ) !
فِيَّيْ أَقْوَمُ بِحَقِّ الْجَوَا رُثْمٌ أَعْوُدُ إِلَى الْعُنْصُرِ

وهو الفارس الذي فعله بعد النصر يرضى الأعداء^(٢):

وَلَمَّا أَطَعْتُ الْجَهْلَ وَالغَيْظَ سَاعَةً دَعَوْتُ بِحِلْمِي : أَيُّهَا الْحِلْمُ أَقْبِلِ !
بُنَيَاتُ عَمِّي هُنَّ لَيْسَ يَرِينِي بَعِيدَ التَّصَافِي أَوْ قَلِيلَ التَّفْضَلِ
شَفِيعُ النَّزَارِيَّاتِ غَيْرُ مُخَيَّبِ وَدَاعِي النَّزَارِيَّاتِ غَيْرُ مُخَذَّلِ
رَدَدْتُ بَرْغَمِ الْجَيْشِ مَا حَازَ كُلَّهُ وَكَفَّتُ مَالِي غُرْمَ كُلِّ مُضَلَّلِ
فَأَصْبَحْتُ فِي الْأَعْدَاءِ أَيَّ مُمَدِّحِ وَإِنْ كُنْتُ فِي الْأَصْحَابِ أَيَّ مُعَدَّلِ^(٣)

ويختتمها بقوله^(٤):

وَعُدْتُ كَرِيمَ الْبَطْشِ وَالْعَفْوِ ظَافِرًا أَحَدْتُ عَنْ يَوْمِ أَعْرٍ مُحَجَّلِ
وَمَنْ كَانَ أَضْحَى بِالذَّنَاءَةِ رَاضِيًا فَإِنِّي عَنِ الْأَمْرِ الدَّنِيِّ بِمَعْزَلِ

بل نراه يؤكد على كونه من الفرسان الذين يتميزون بأخلاقهم العالية ، فلا يفعلون ما يشين ، رغم تحقيقهم النصر على أعدائهم وإمكانية إذلالهم ، بسرد القصص الواقعية على ذلك^(٥):

أَلَا لِلَّهِ يَوْمُ الدَّارِ يَوْمًا بَعِيدَ الذِّكْرِ مَحْمُودَ الْمَالِ !

(١) ديوان أبي فراس ٢٠٠/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٨٧/٢ .

(٣) مُعَدَّلٌ : أي ملوم لتفريطه في الغنائم .

(٤) السابق ٢٨٩/٢ .

(٥) نفسه ٣٣٥/٣ .

تركتُ به نساءً (بني كلاب) فوارك ما يُرغن إلى الرجال

فالشاعر يذكر بطولاته في بني كلاب يوم الدار ، ذلك اليوم المحمود النتائج الذي ترك فيه نساء الأعداء ييغضن رجاهن لسوء فعالمهم ، ولعظم فعال الفرسان المهاجمين عليهم .
ونراه يفتخر بالصفح عن الأعداء بعد طلب النساء منه الصفع عن الأموال والرجال ، فيقول^(١) :

بـ(المرج) إذ (أم بسام) ثناشدي بنات عمك ! يا (حار بن حمدان)
ظلت أثنى صدور الخيل ساهمة بكل مضطغن بالحقْد ملآن
ونحن قوم إذا غدنا بسية على العشرة أعقبنا بإحسان

ويظل العرفان بالجميل والشكر من أقل ما يجب أن نقوم به تجاه من أسدى لنا معروفاً ، وهذا ما يبحث عنه الفارس ، فالثناء والشكر يكونان دافعين له على الإقدام ، ومع ذلك فإن نكران الجميل لا يمنع الفارس ولا يثنيه عن معاودة التكرار ؛ لأنه يقصد من وراء فعله الأجر من الله عز وجل^(٢) :

وما نعمة مشكورة قد صنعتها إلى غير ذي شكر بمانعتي أخرى
سأتي جميلاً ما حيت فإني إذا لم أفد شكراً أفدت به أجرا

ويصور لنا أبو فراس براعته في إرجاع الأسير ، ولكن ليس أي أسير ، وإنما هو أسير فقد أهله الرجاء بعودته ، وفي ذلك دلالة على شجاعته التي ليس لها نظير ، فقد استطاع بسيفه إرجاع أسير لم يأمل أحد بعودته ؛ لصعوبة تحقيق ذلك الأمل ، ثم أخذ يصور الفرحة التي غمرت أهل الأسير مقابل الأسي والحزن الذي حلّ بالمعتدين ، وهو لا يقصد وراء ذلك إلا الشكر ، فهو خير الثواب^(٣) :

رددت على بني (قطن) بسيفي أسيراً غير مرجو الإياب

(١) ديوان أبي فراس ٤٠٠/٣ .

(٢) المصدر السابق ١٧١/٢ .

(٣) السابق ١٧/٢ .

سَرَرْتُ بِفَكِّهِ حَيِّي (نُمَيْرٍ) وَسَوْتُ بَنِي (رَبِيعَةَ) وَ (الضَّبَابِ)
فَهَلْ مُشْنٌ عَلَيَّ فَتَى (نُمَيْرٍ) بِحَلِي عَنْهُ قَدَّ بَنِي (كَلابِ)

وهو الفارس الكريم الجواد المُقبل على الحرب ، الذي لا يرضى أن يعاتب على
كريم فعاله^(١):

ضَلَّالٌ مَا رَأَيْتُ مِنَ الضَّلَّالِ مُعَاتِبَةُ الْكَرِيمِ عَلَى النَّوَالِ
وَإِنَّ مَسَامِعِي عَنْ كُلِّ عَذْلٍ لَفِي شُغْلٍ بِحَمْدٍ أَوْ سُؤَالِ
وَلَا وَاللَّهِ مَا بَخَلْتُ يَمِينِي وَلَا أَصْبَحْتُ أَشْقَاكُمْ بِمَالِي

فالشاعر الفارس لا يحرص على المال وجمعه ؛ لذلك لا يبقى لورثته غير بقايا فروسيته
التي تركها له أجداده ، فهي أعظم إرث ورثه عن آبائه وأجداده^(٢):

وَلِلوَرَاثِ إِرْثُ أَبِي وَجَدِّي جِيَادُ الْخَيْلِ وَالْأَسْلِ الطَّوَالِ
وَمَا تَجْنِي سَرَاةُ بَنِي أَبِيْنَا سِوَى ثَمَرَاتِ أَطْرَافِ الْعَوَالِ
مَمَالِكُنَا مَكَاسِبُنَا إِذَا مَا تَوَارَتْهَا رِجَالٌ عَنْ رِجَالِ
وَجُلٌّ أَهْتَمَامِ الْفَارِسِ وَمَبْتِغَاهِ : الْمَوْتِ فِي نَصْرِ الْهُدَى^(٣):

إِذَا قُضِيَ الْحِمَامُ عَلَيَّ يَوْمًا ففِي نَصْرِ الْهُدَى بِيَدِ الضَّلَّالِ

وعندما يتحدث أسامة عن شجاعته وتفردّه ، نلمح أصداءً من معاني وأفكار أبي فراس ،
فمن ذلك قوله متحدثاً عن شجاعته وتفردّه بها^(٤):

أَنَا تَاجُ فَرَسَانِ الْهِيَاجِ وَمَنْ بِهِمْ ثَبَّتَتْ أَوْأَخِي مُلْكِ كُلِّ مُتَوَجِّجِ
قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ عَجِبَتْ مَنْ بَحْرٌ تَدَافَعُ فِي لُظَى مُتَوَهِّجِ

(١) ديوان أبي فراس ٢٨٠/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٢٨١/٢ .

(٣) السابق ٢٨٢/٢ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٢٥٩ .

ويقول أسامة مثبتاً الشجاعة لنفسه منذ الصغر^(١):

خمسَ عشرة نازلتُ الكُماةَ إلى أن شبتُ فيها وخيرُ الخيلِ ما قَرَحَا
أخوضُها كشهابِ القَذْفِ مبتسماً طلقَ المُحْيَا ووجهُ الموتِ قد كَلَحَا
فسل كُماةَ الوغى عني لتعلم كم كَرَبٍ كَشَفْتُ وكم ضيقِ بي انْفَسَحَا

فالشاعر بين ملازمته للفروسية ومواجهته للأبطال منذ صغر سنّه إلى أن شاب ، ويرى في ذلك ميزة له عن غيره ، فقد أصبح من شدّة ملازمته لها من خيرة الفرسان ، وقد شبه نفسه بالخيّل ، ثم انتقل إلى وصف بطولته أثناء المعركة ، فيرى في نفسه ذلك الشهاب المرسل المبتسم الوجه ، الذي لا يخشى مواجهة الموت ، ومن يرى غير ذلك فيه فعليه بسؤال الأبطال عنه ؛ ليتأكد من تلك البطولة النادرة .

فالفارس يحرص أن يأخذ الشهادة على شجاعته من أفواه الأعداء ؛ إذ يقول في قصيدة أخرى^(٢):

سَلْ بي كُماةَ الوغى في كلِّ معركةٍ يضيقُ بالنفسِ فيها صدرُ ذي الباسِ
يُنَبِّئُوكَ بآئي في مَضايِقِها ثَبْتُ إذا الخوفُ هَزَّ الشاهِقَ الراسي

ويقول معبراً عن إقدامه يوم الحرب^(٣):

وللطَّعانِ في الكُماةِ أعيناً تهمي على السردِ نجيعاً مُزيداً
فِيالهُ من موقفٍ رقيبه كتائبُ الأعداءِ والواشي الردى
لو لم تكن عادتي الإقدامَ في أمثاله قضيتُ فيه كمداً

حتى إن مكاتته في السلم محدّدة بما يظهره في الحرب من شجاعة وإقدام^(٤):

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٣) السابق ، ص ٢٦٠ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦٢ .

إِنْ يَحْسُدُوا فِي السَّلْمِ مَنَزِلَتِي مِنَ الْعِزِّ الْمُنِيفِ
فِي مَا أُهِنُّ النَّفْسَ فِي يَوْمِ الْوَعْيِ بَيْنَ الصَّفُوفِ
فَلَطَالَمَا أَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْحُتُوفِ عَلَى الْحُتُوفِ
بِعِزِيمَةٍ أَمْضَى عَلَى حَدِّ السِّيُوفِ مِنَ السِّيُوفِ

وهو الفارس الذي يرى في قتل الأعداء شفاءً للنفس^(١):

قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا مِنَ الْقَوْمِ مِثْلَهُمْ مَرَارًا وَلَكِنْ مَا الدِّمَاءُ سِوَاءُ
وَلَكِنْ شَفَيْنَا النَّفْسَ مِنْ لَاعِجِ الْأَسَى بِقَتْلِهِمْ إِنْ كَانَ مِنْهُ شِفَاءُ

ويتفق أسامة مع أبي فراس في الاستهانة بالموت ؛ إذ يقول^(٢):

يُجْهَلُ فِي الْإِقْدَامِ رَأْيِي مِعَاشِرُ أَرَاهُمْ إِذَا فَرَّوْا مِنَ الْمَوْتِ أَجْهَلًا
أَيْرَجُو الْفَتَى عِنْدَ انْقِضَاءِ حَيَاتِهِ وَإِنْ فَرَّ عَنْ وَرْدِ الْمَنِيَّةِ مُزْحَلًا
إِذَا أَنَا هَبْتُ الْمَوْتَ فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ فَلَا وَجَدْتُ نَفْسِي مِنَ الْمَوْتِ مَوْنَلًا
وَإِنِّي إِذَا نَازَلْتُ كَبُشَ كَتِييَّةٍ فَلَسْتُ أَبَالِي أَيُّنَا مَاتَ أَوْلَا

فالشاعر يعلم أن سبب شجاعته في الحروب : مجاہته للموت ، فقد يُقَدِّمُ عَلَى الْحَرْبِ
وَلَا تَهْمُهُ النَّتَائِجُ ؛ لِأَنَّهُ يَكْفِيهِ مِنْهَا أَنَّهُ نَازَلَ الْأَبْطَالَ وَحَارَبَهُمْ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَعِزِيمَةٍ ، حَتَّى نَرَاهُ
يَبَالِغُ فِي طَلْبِ الشَّهَادَةِ عَلَى شَجَاعَتِهِ مِنَ الْمَوْتِ نَفْسَهُ^(٣):

إِذَا ضَاقَ بِالْخَطِّ مِعْتَرِكُ الْوَعْيِ وَهَالَ الرَّدَى وَقَعَ الطُّبَا فِي الْجَمَاجِمِ
سَلِ الْمَوْتَ عَنِّي فَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّي عَلَى خَوْضِهِ فِي الْحَرْبِ ثَبَتَ الْعِزَائِمِ

وما تلك الشجاعة من الفارس إلا نتيجة لقوة الإيمان بالله وَعَيْكَ وَبِقَضَائِهِ^(٤):

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ وما بعدها .

(٣) السابق ، ص ٢٦٩ .

(٤) نفسه ، ص ٣٣٦ وما بعدها .

جَدَّ يَا مَطْلُوبُ مَنْ جَدَّ نَجَا إِنَّ ذَا الطَّالِبِ مِدْرَاكُ تَبَوُّعِ
لَيْسَ يُنَجِّي الْجَحْفَلَ الْجَرَّارُ مَنْ يَدُهُ الطَّوْلَى وَلَا الْحِصْنَ الْمَنِيعِ

ويصور أسامة حلمه على الأعداء والصفح عنهم بقوله^(١):

تَوْهَمَ عَجْزاً حَلَمْنَا وَأَنَا تَنَا وَمَا الْعَجْزُ إِلَّا مَا أَتَى الْجَاهِلِ الْعَمْرُ
فَلَمَّا تَمَادَى غِيُّهُ وَضَلَّ لَهُ وَلَمْ يَنْتَهَ عَنْ جَهْلِهِ النَّهْيُ وَالزَّجْرُ
بَرَزْنَا لَهُ كَاللَيْثِ فَارَقَ غِيْلُهُ وَعَادَتْهُ كَسْرُ الْفَرَائِسِ وَالْهَصْرُ
وَسِرْنَا إِلَيْهِ حِينَ هَابَ لِقَاءَنَا وَبَانَ لَهُ مِنْ بَاسِنَا الْبُؤْسُ وَالشَّرُّ

فهم تميزوا بالحلم على أعدائهم والصبر عليهم ، حتى ظنَّ الجاهل من أعدائهم أن ذلك الحلم ضعفٌ منهم ، غير أن ذلك العدو الجاهل سرعان ما غير رأيه إذ يهاب مواجعتهم عندما تظهر له القوة التي كانت تتجلى بالحلم ، فهم فرسانٌ شجعان ؛ يقول فيهم^(٢):

نَسِيرُ إِلَى الْأَعْدَاءِ وَالطَّيْرُ فَوْقَنَا لَهَا الْقُوَّةُ مِنْ أَعْدَائِنَا وَلَنَا النَّصْرُ
فَبَاسٌ يَذُوبُ الصَّخْرُ مِنْ حَرِّ نَارِهِ وَلُطْفٌ لَهُ بِالْمَاءِ يَنْبَجِسُ الصَّخْرُ
وَجَيْشٌ إِذَا لَاقَى الْعَدُوَّ ظَنَّنْتَهُمْ أَسْوَدَ الشَّرَى عَنَّتْ لَهَا الْأُدْمُ وَالْعُفْرُ
تَرَى كُلَّ شَهْمٍ فِي الْوَعَى مِثْلَ سَهْمِهِ نُفُوداً فَمَا يَنْتَبِهُ خَوْفٌ وَلَا كُثْرُ
هُمُ الْأَسْدُ مِنْ بِيضِ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا لَهُمْ فِي الْوَعَى النَّابُ الْحَدِيدَةُ وَالظَّفْرُ
يَرُونَ لَهُمْ فِي الْقَتْلِ خُلْدًا فَكَيْفَ بَالُ لِقَاءِ لِقَوْمٍ قَتَلْتَهُمْ عِنْدَهُمْ عُمْرُ
إِذَا نُسِبُوا كَانُوا جَمِيعاً بَنِي أَبِي فَطَعْنُهُمْ شَزْرٌ وَضَرْبُهُمْ هَبْرُ

ويؤكد على تلك الصفات^(٣):

إِنَّا لَنُوفِي عَلَى حَالِ الْبِعَادِ كَمَا نُوفِي لِمَنْ ضَمَّهُ فِي قُرْبِنَا كَنْفُ
وَنَغْفِرُ الذَّنْبَ إِنْ رَامَ الْمُسِيءُ بِنَا

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(٣) السابق ، ص ٢٣٣ .

وإن جنى من رأى أنا نعاقبه
فما لإيعادنا يوم الوغى ميل
فعدنا جنة تدنو الثمار بها
وهو طموح في اكتساب المجد^(١):

وما الذي نلت من نعمك غاية آ
نيل العلا دون ما أرجوه منك كما
شرفتني فاعتلى قدري وأصبح لي
وطئت عمّن يُساميني ففخرهم

فهو فارس يصبر على طلب العلا ، وتتعالى نبرة الفخر عند الفارس مثلما تعالت عند أبي فراس ، فهما حريصان على الثناء^(٢):

متى رأني الشامتون ضرعاً
هم يعلمون أنني أصلب من
هل بزني الخطب سوى وفري الذي
إن جمعوا المال فأرعوا أتلفت
هم يرون المال ذخراً باقياً
ويقول في ذلك أيضاً^(٣):

سأنفق وفري في اكتساب مكارم
وأسعى إلى الهيجاء لا أهرب الردى
بكل فتى يلقي المنية ضاحكاً
فإن نلت ما أرجو فللجود ثم لي

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٣) السابق ، ص ٢٨٤ .

والفارس ينقضّ على أعدائه كالصقر أو كالسيف لا يسعى إلا للمجد ، ويتعد عن الغنائم^(١) :

يَحْمَلْنَ كُلَّ مَا جَدَّ كَالصَّقْرِ كَأَنَّهُ مُهَنَّدٌ ذُو أَثَرٍ
بَعِيدٌ مَهْوَى هَمَّةٍ وَذَكَرٍ لِلْمَجْدِ يَسْعَى لَا لِكَسْبِ الْوَفْرِ

ويقول أسامة مظهراً تميّزه وتفرّده على غيره مثلما فعل أبو فراس^(٢) :

جَرَّبَهُمْ مِثْلَ تَجْرِيِي لِتَخْبِرَهُمْ فَلِلرِّجَالِ إِذَا مَا جُرِّبُوا قِيمٌ
هَلْ فِيهِمْ رَجُلٌ يُغْنِي غَنَائِي إِذَا جَلَا الْحَوَادِثُ حَدُّ السِّيفِ وَالْقَلَمِ

ومن شعره في كتاب (العصا) قوله^(٣) :

لَوْ سِرْتُ فِي عَرَضِ الْبَسِيطَةِ طَالِباً رَجُلًا خَبيراً بِالْحُرُوبِ مُجَرَّباً
عَانِي الْحُرُوبِ مُجَاهِراً وَمُخَاتِلاً طِفْلاً إِلَى أَنْ عَادَ هَمّاً أَشْيَا
قَتَلَ الْأَسْوَدَ وَنَازَلَ الْأَبْطَالَ فِي السِّ هَيْجَاءٍ وَاقْتَادَ الْكَمِيَّ الْمَحْرَبَا^(٤)
لَمْ تَلَقْ مِثْلِي مَنْ يَكَادُ يُرِيهِ حُسْنَ سُنُّ الرَّأْيِي مَا قَدْ كَانَ عَنْهُ مُغْيِيَا
وَأَرَى مَسِيرَ الْأَلْفِ تَطْلُبُ وَتَرَهَا ضِمْنَ الْغَرَائِرِ فَرِيَةً وَتَكْذُبا

ويقول في جوده وكرمه^(٥) :

مَا كَفَّ كَفِّيَ عَنِ جُودِي بِمَوْجُودِي نَوَائِبُ وَمَلَمَاتُ لَحَتْ عُودِي
فِي الْيَسْرِ أَبْذُلُ مَيْسُورِي وَأَبْذُلُ فِي عُسْرِي لِطَالِبِ رَفْدِي شَطْرُ مَوْجُودِي

(١) ديوان أسامة ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٣) كتاب العصا ، ص ٢٦٠ .

(٤) الكمي : الشجاع لابس السلاح . المحرب : الخبير بالحرب الشجاع .

(٥) ديوان أسامة ، ص ٢٨٥ .

وقال^(١):

جُودِي بِمُجُودِي عَلَى التَّكْبَاتِ فِي مَالِي أَبِي لِي أَنْ أَعَدَّ بِخَيْلَا
أَهَبُ الْكَثِيرَ مِنَ الْكَثِيرِ فَإِنْ لَحَتْ عُوْدِي وَهَبْتُ مِنَ الْقَلِيلِ قَلِيلَا
كِي لَا أَكْذِبَ فِي رَجَائِي آمَلًا إِنَّ الْبَخِيلَ يُكْذِبُ التَّأْمِيلَا

وقال^(٢):

يَقُولُونَ لِي : أَفَيْتَ كُلَّ ذَخِيرَةٍ وَأَنْفَقْتَ مَالًا لَا تَجُودُ بِهِ النَّفْسُ
فَقُلْتُ : نَعَمْ فَرَقْتُ مَا جَمَعْتَ يَدِي وَأَرْجُو غَدًا يَأْتِي بِمَا أَذْهَبَ الْأَمْسُ

وينظر أسامة إلى قوته بمنظور الفارس المسلم ، فيقول^(٣):

لَوْ كَانَ رِزْقُ الْفَتَى بِقَوَّتِهِ نَازَلَتْ ضَارِي الْأَسُودِ فِي الْأَجَمِ
لَكِنَّهُ عَنِ مَشِيئَةٍ سَبَقَتْ فِي الْخُلُقِ تَجْرِي فِيهِمْ عَلَى الْقِسَمِ

ولا يختلف أسامة عن أبي فراس في تعبيره عن الصبر على الأهوال ، فيقول^(٤):

وَمَا ضَعُضَعْتَنِي الْحَادِثَاتُ وَإِنِّي كَعَهْدِكَ وَعُرُّ الْخُلُقِ فِي الْخَطْبِ وَعَثُّهُ
جَرِيءٌ عَلَى الْأَهْوَالِ وَالْمَوْتِ مُحْجِمٌ مَرِيرٌ الْقُوَى وَالِدَّهْرُ قَدْ بَانَ نَكْثُهُ
كَظَوْمٍ عَلَى غَيْظٍ يَضِيقُ بِهِ الْحَشَا فَلَسْتُ وَإِنْ آدَا صَطْبَارِي أَبْثُهُ
وَلَمْ أَرِثِ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ كَلَالَةً وَلَكِنَّهُ عَنِ مُرْشِدٍ لِي إِرْثُهُ

فالشاعر عبّر عن صبره على النكبات التي أصابته ، واعتبر أنّ هذا الصبر إرث له من والده .

ويقول^(٥):

وَصَفَّ الصَّبْرَ لِي جَهَوْلٌ بِأَمْرِي فَارَغُ الْبَالِ مِنْ هُمُومِي وَفِكْرِي

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

(٣) السابق ، ص ٣٠٩ .

(٤) نفسه ، ص ١٦٦ .

(٥) نفسه ، ص ١٢٧ .

مستريحٌ ما قلبه مثل قلبِي
 ماله بالهَمومِ عهدٌ ولا أضـ
 وأنا الدهرُ في خُطوبِ زمانِ
 صارَ لي عادةً فلو ضاقَ رحبُ الـ

لا ، ولا دهره ظلومٌ كدهري
 طرّاً إلى الصبرِ باقتسارٍ وقهرِ
 أشربُ الصبرَ فيه من حُسنِ صبري
 أرضٍ عني ما ضاقَ بالصبرِ صدري

وله حكَم رائعة في الحثّ على الصبر ، منها^(١):

إن فاجأتك الليالي
 فالدهرُ يرهبُ عُسرًا
 لو دامَ ما ساءَ منه

بما يسوءُ فصبرًا
 ويثبَعُ العُسرَ يسرًا
 لدام ما كان سرًا

وقوله^(٢):

استر هُمومك بالتجمّلِ واصطبرِ
 كالشمعِ يظهرُ نوره مُتجملاً

إنّ الكريمَ على الحوادثِ يصبرُ
 خوفَ الشّمتِ وفيه نارٌ تُسعرُ

فما أروع هذا الوصف المؤثر ، فهو يدعو إلى الصبر على الحوادث وإن اشتدت ؛ حتى لا يكون الإنسان عُرضة لشماتة الأعداء ، ويشبه بالشمع الذي يتجمل بالنور ، رغم ما فيه من نارٍ تلهب بداخله خوفاً من الشماتة .

وظهر في شعر أسامة صوَر الفارس الداعي إلى الجهاد ، وذلك من خلال المراسلات التي دارت بينه وبين الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فقد بعث أسامة إليه برسالة يطلب منه مواصلة الجهاد وعدم التوقف عنه حتى يفنى الفرنج ، يقول فيها^(٣):

وما دون أن يفنى الفرنجُ وتفتحُ الـ
 بلادُ سوى أن يمضي العزمَ عازمُ

كما يطلب منه في قصيدة أخرى بأن يتحد مع نور الدين في مواجهة الصليبيين^(٤):

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) السابق ، ص ٢٧٦ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦٧ .

فاسلم لنا حتى نرى لك في بني الدنّيا مثالا
 واشدّد يديك بوذّ نو ر الدين وألق به الرّجالا
 فهو الخامي عن بلا د الشام جمعاً أن تذالا
 ومبيد أملاك الفرنّ ح جمعهم حالا فحالا
 فبقيتم للمسلمي ن حمى وللدنيا جمالا

وبعث برسالة إلى نور الدين يجرّضه على الغزو والاجتماع على رأي الملك الصالح ، يقول^(١):

بالغ العبد في النّيابة والتحم ريض وهو المفوّه المقبول
 فرأى من عزيمة الغزو ما كا دت له الأرض والجبال تميل

وعندما توفّي نور الدين ، تولّى الخلافة من بعده ابنه الملك الصالح ، الذي كان صغيراً في السنّ وضعيفاً ، فتحكم الوزراء فيه ، حتى ساءت أحوال دمشق ، فخرج إليها صلاح الدين فـ" نشر علم العدل والإحسان ، وعفى آثار الظلم والعدوان ، وأبطل ما كان الولاة استحدثوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرّمات . وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان ، أولها :

تمنّ يا أطول الملوك يدا في بسط عدل ووسطوة وندى
 أجراً وذكراً من ذلك الشكر في الـ دنيا ومن ذلك الجنان غدا
 لا تستقلّ الذي صنعت فقد قمت بفرض الجهاد مجتهدا
 وجست أرض العدى وأفنيت من أبطاهم ما يجاوز العددا
 وما رأينا غزا الفرنج من الـ ملوك في عقر دارهم أحدا
 فسر إلى الشام فالملائكة الـ أبرار تلقاك ملتقى جدا
 فهو فقيرٌ إليك يأمل أن تُصلح بالعدل منه ما فسدا
 والله يعطيك فيه عاقبة الـ نصر كما في كتابه وعدا

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٤١ وما بعدها .

فأحباك الورى وأهمك العد ل وأعطاك ما ملكت سدى^(١)

والفارس رغم شدته وصلابته ، إلا أنه يظهر الأسى والحزن والتصبر ، وذلك عندما يتعد أو يُمنع عن مقابلة معشوقته التي لا يرى لحياته طعماً بدونها ، معشوقته التي يكرهها الجبان ، ويقبل عليها الشجاع ، فهذا أبو فراس يظهر تحسره وشوقه للحرب بقوله^(٢) :

أشدة ما أراه منك أم كرم ! تجود بالنفس والأرواح تصطم
يا باذل النفس والأموال مبتسماً أما يهولك لا موت ولا عدم
لقد ظننتك بين الجحفلين ترى أن السلامة من وقع القنا تصم
نشدتك الله لا تسمح بنفس غلاً حياة صاحبها تحيا بها الأمم
هي الشجاعة إلا أنها سرف وكل فضل لا قصد ولا أمم
إذا لقيت رقاق البيض مفرداً تحت العجاجة لم تستكثر الخدم
تفدي بنفسك أقواماً صنعتهم وكان حقهم أن يفتدوك هم
ومن يُقاتل من تلقى القتال به وليس يفضل عنك الخيل والبهم

فاسمع لقوله ناشدتك الله - وقبله - : يا باذل النفس والأموال ، ثم : مبتسماً ؛ لترى كيف تشتاق نفس الفارس إلى ساحات الوغى ، ثم تأمل قوله : حياة صاحبها تحيا بها الأمم ، وقابلها بقوله : ليس يفضل عنك الخيل والبهم ؛ لترى كيف يترفع الفارس عن أن تكون حياته هملاً ... أيامه وعمره يمضي سدىً إذا لم يخض غمار الحروب والمعارك .

ثم أخبر الشاعر عن الهدف الحقيقي المنشود من هذه القصيدة بقوله^(٣) :

تضمن بالحرب عنا صنّ ذي بخل ومنك في كل حال يعرف الكرم
لا تبخلن على قوم إذا قتلوا أثنى عليك بنو الهيجاء دونهم
ألبست ما لبسوا أركبت ما ركبوا عرفت ما عرفوا علمت ما علموا

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ، تأليف : الشيخ الإمام شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي ، دار الجيل ، بيروت ، ٢٣٧/١ .

(٢) ديوان أبي فراس ٣/٣٥٧ .

(٣) المصدر السابق ٣/٣٥٨ .

كما أريت بييض أنت واهبها على خيولك خاضوا البحر وهو دم
هم الفوارس في أيديهم أسل فإن رأوك فأسد والقنا أجم

ثم عبر الشاعر عن فرحته بالغزو ، ولكنها فرحة سرعان ما تحولت إلى حزن وحرمان ،
فهو باق في الشام ولم يذهب للحرب^(١) :

حقاً لقد ساءني أمرٌ ذكرتُ له لولا فراقك لم يوجد له ألم
لا تشغلني بأمر (الشام) أحرسُهُ إن (الشام) على من حله حرم
فإن للتغر سورا من مهابته صخورُهُ من أعادي أهله قمم

ثم ما لبث أن حوّل هذا الحزن إلى سببٍ آخر ، وهو فراق سيف الدولة ؛ لأن في
صحبته حياة له^(٢) :

لا يحرمني (سيف الدين) صحبته فهي الحياة التي تحيا بها النسم
وما اعترضت عليه في أوامره لكن سألت ومن عاداته ، نعم

لقد أبدع أبو فراس بوصفه لمشاعره في هذه الأبيات ، فهي بحق تمثل صورة الفارس
المسلم الحريص على الجهاد ، الذي لا يرضى بالبقاء ، وإن علت مكانته ، ثم ختمها بعبارات
تظهر مدى الانقياد والخضوع لأوامر القائد ، فهو يطلب منه المشاركة في الجهاد ، ويطمع
في الموافقة على هذا الطلب .

وأنشأ في أسره قصيدة مقاربة لهذه القصيدة ، ولكنها تختلف عنها بزيادة الألم والحسرة ،
فعبر عما أصابه من همٍّ وغمٍّ ؛ لبقائه في الأسر ، وتخلّفه عن القتال الذي قضى عمره في
الاستعداد له .

فصاغ أبياتاً عبرت بصدق عن هذه الرغبة التي حُرّم منها بصورة حزينة مؤلمة يشعر
القارئ معها بقوة الحسرة والألم التي يشعر بها ذلك الفارس^(٣) :

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٥٩ .

(٣) السابق ٢/١٨٨ وما بعدها .

دَعِ الْعِبْرَاتِ تَنْهَمِرُ أَنْهَمَارَا وَنَارَ الْوَجْدِ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارَا
 أَتُظْفَأُ حَسْرَتِي وَتَقْرُّ عَيْنِي وَلَمْ أُوقِدْ مَعَ الْغَازِينَ نَارَا
 رَأَيْتُ الصَّبْرَ أَبْعَدَ مَا يُرْجَى إِذَا مَا الْجَيْشُ بِالْغَازِينَ سَارَا
 وَأَعْدَدْتُ الْكِتَائِبَ مُعْلِمَاتٍ تُنَادِي كُلَّ آنٍ بِي سَعَارَا
 وَقَدْ ثَقَّفْتُ لِلْهِجَاءِ رُمَحِي وَأَضْمَرْتُ الْمَهَارِي وَالْمَهَارَا
 وَكَانَ إِذَا دَعَانَا الْأَمْرُ حَفَّتْ بِنَا الْفَتِيَانَ تَبْتَدِرُ ابْتِدَارَا

بل يذهب الشاعر إلى أبعد من ذلك ، فهو يذكر سيف الدولة بأنه سيفتقده أثناء حوضه للحروب ، ويتذكر فعالة^(١) :

سَتَذُكْرُنِي إِذَا طَرَدْتَ رِجَالًا دَفَقْتُ الرِّمَحَ بَيْنَهُمْ مَرَارَا
 وَأَرْضٌ كُنْتُ أَمْلؤها خَيْولًا وَجَوُّ كُنْتُ أَزْهَقُهُ غُبَارَا

ثم يحتم هذه القصيدة بالدعاء لله وَعَلَيْكَ أَنْ يفك أسره فيعود للحرب ، ويشفى صدره ويُدرك ثأره^(٢) :

لَعَلَّ اللَّهَ يُعْقِبِنِي صَاحِحًا قَوْمِيًّا أَوْ يُقِيلِنِي الْعِثَارَا
 فَأَشْفِي مِنْ طِعَانِ الْخَيْلِ صَدْرًا وَأَدْرِكُ مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ ثَارَا

ثم أخذ الشاعر بإظهار هذه الحسرة التي تحوّلت من ولع بالحرب وتعلق بها إلى رغبة في مصاحبة الأمير وعدم مفارقتها ، ومن خلال ذلك أظهر أيضاً براعته وفروسيته بشكلٍ فريد في ظلال ابن عمّه^(٣) .

وعبر أسامة تعبيراً مشابهاً عن الرغبة في القتال ، فالحنين والشوق إلى القتال صفة يجتمع فيها الفرسان ، فهو فارس تعود على القتال ، وأحبّ مواجهة الموت ، فأظهر هذا الحبّ من خلال أبيات صادقة بعثها إلى أخيه يشكو فراق محبوبته الأثيرة مثلما فعل أبو فراس^(٤) :

(١) ديوان أبي فراس ١٨٩/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٨٩/٢ .

(٣) ينظر : السابق ١٨٩/٢ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٢٠٠ .

هذا كتابُ فتى أحلتَهُ التّوى
شطت به عمن يحبُّ ديارُهُ
متتابعُ الزّفراتِ بين ضلوعه
تأوي إليه من الظلامِ هُمومه
ألفتُ مقارعة الكمأة جيادُهُ
يومان أجمع دهره إما سرى
أوطانها ونبتُ به أوطانُهُ
وتفرّقت أيدي سبا إخوانُهُ
قلبٌ ييوحُ بسرّه خفقانه
وتذوده عن نومهِ أشجانه
وسرى الهواجرِ لايني ذملانه^(١)
أو يومٌ حربٍ تلتظى نيرائُهُ

كما عبّر أيضاً عن هذا الحزن بتعبيرٍ رائع ، حيث قدم الجهاد على الشعر ، وتحسر على عدم تمكنه من المشاركة فيه ، واقتصاره على قول الشعر عندما عاتبه الملك الصالح لانقطاع شعره^(٢) عنه ، فقال مجيباً على هذا العتاب^(٣):

نبّهت عبداً طالماً
وعتيتُهُ فأنلتُهُ
لكنّ ذاك العتّب يُشئ
أسفاً لجدّ مالٍ عنهُ
وأجرٌ مقولّهُ فصر
فلو استطاع السّعي وهـ
نبّهتُهُ قدراً وحوالاً
شرفاً ومجداً لن يُنالاً
علّ في جوانحه اشتعالاً
هُ إلى مَساءتِهِ ومالاً
نَ الحادّثاتُ له عقالاً
و الفرضُ لم يرضَ المَقالاً

كما عبّر أسامة عن حبه للقتال من خلال معاتبته ونصحه لمعين الدين ، حتى إنّ بعض من تعرّضوا لهذه القصيدة اعتبرها من الهجاء ، على الرغم من أنّه بدأها بالمدح ، يقول^(٤):

يا راكباً تقطع البيداء همّته
والعيسُ تعجزُ عما تُدرِكُ الهِمَمُ

(١) السرى : السير في الليل . الهواجر : المقصود به الجيد من الإبل . ذملانه : نوع من سير الإبل اللين .

(٢) فمن قصيدة الملك الصالح قوله :

هالاً بذلت لنا مقاً لا حين لم تبذل فعالاً

والقصيدة مثبتة كاملة في ديوان أسامة ، ص ٢٦٣ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٤) السابق ، ص ١٩٦ .

بلغ أميري معين الدين مألكةً
وقل له : أنت خيرُ الثُّركِ فضلكَ الـ
من نازح الدارِ لكن وُدُّه أَمَمٌ
حياةُ والدينُ والإقدامُ والكرمُ
ثم عاتبه بقوله^(١) :

وأنت أعدلُ مَنْ يُشكى إليه ولي
ولا اعتقدتُ الذي بيني وبينك مَنْ
أسلمتنا وسيوفُ الهندِ مُغمدةٌ
وكنتُ أحسبُ مَنْ والاك في حرمٍ
وأنَّ جاركَ جارٌ للسَّموألِ لا
وما طُمانُ بأولى من أسامةَ بالـ
هَبنا جَيناً ذنوباً لا يُكفِّرُها
أَلقيتَهُم في يَدِ الإفْرِجِ مُتبعاً
هُمُ الأَعادي وقاكَ اللهُ شَرَّهُمُ
إذا نَهَضتَ إلى مجدٍ توثَلُّه

شَكِيَّةٌ أنتَ فيها الحِصمُ والحَكَمُ
وُدٌّ وإنَّ أجلبَ الأعداءُ ينصرمُ
ولم يُروِّ سنانَ السَّمهريِّ دَمُ
لا يَعترِبُه به شيبٌ ولا هَرَمُ
يَخشى الأَعادي ولا تَغتالُه النِّقَمُ
وفاءٍ لكن جرى بالكائنِ القَلَمُ
عُدْرٌ فماذا جنى الأَطفالُ والحَرَمُ
رضا عداً يُسَخِطُ الرحمنَ فَعَلُهُمُ
وهُمُ بزَعْمِهِمُ الأَعوانُ والخَدَمُ
تقاعَدوا فإذا شَيَّدتَه هَدَموا

فلاحظ أن كلا الفارسين يرى أن نفسه تشتعل حرقاً وألماً على مفارقة القتال .

ويقول الدكتور محمد الهرفي : " تحدث المؤرخون المسلمون عن وجود طائفة من أمراء المسلمين في فترة الحروب الصليبية لم تشارك في الجهاد ، وكانت تمالئ الإفرنج على المسلمين ، يدفعها إلى ذلك رغبة جامحة في الحكم ، والاحتفاظ به مهما كان الثمن المدفوع في سبيل ذلك ، ولم ينس الشعراء المسلمون هؤلاء الأمراء ، فهجوهم هجاءً شديداً ، وفضحوا أعمالهم أمام شعوبهم ، وطلبوا منهم الكف عما هم فيه ، والعودة إلى حظيرة الإسلام ، وكان معين الدين أنر حاكم دمشق من هذا الصنف الذي تحدثنا عنه ، فهجاه أسامة بن منقذ بقصيدة قال فيها :

هَبنا جَيناً ذنوباً لا يكفِّرُها
عُدْرٌ فماذا جنى الأَطفالُ والحَرَمُ

(١) ديوان أسامة ، ص ١٩٦-١٩٨ .

أَلْقَيْتَهُمْ فِي يَدِ الْإِفْرَنْجِ مُتَّبِعاً رِضَا عَدَا يُسْحِطُ الرَّحْمَنَ فَعَلُهُمْ

وأسامة هنا يقول : إذا كان رجال السياسة في نظر معين الدين قد ارتكبوا جرماً في حقه لا يعتذر ، فما ذنب نساء المسلمين وأطفالهم الذين ذبحوا على أيدي الصليبيين بممالة معين الدين لهم ضد أبناء دينه " (١) .

ويقول في موضع آخر بعد ذكر قصيدة أسامة السابقة : " والذي يبدو من هذه القصيدة أن أسامة كان متعلقاً بدمشق وحاكمها ، غير أن ابن الصوفي وزير معين الدين كان على رأس مدبري المكائد لأسامة ؛ إذ خشي منه على مركزه " (٢) .

ومن ذلك نلمح التناقض في قوله ، فكيف يتعلق أسامة به ويهجوّه ، فأسامة نفسه ينكر أن يضمّ شعره هجاءً ، " فلما علت سنّي ، وانجلت جاهليّة باطلاي عني ، ووضح لي أنّ الشعر لهوٌ وهون ، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون ، أكبرت خطي وأعظمت ، وندمت على تفريطي فيما نظمته ، على أيّ بحمد الله ما فُتتُ برفثٍ ولا هجاءٍ ... " (٣) .

وما قصيدة أسامة إلا تضمينٌ لقصيدة المتنبي في عتاب سيف الدولة .

يقول الدكتور عبد الله الزهراني : " لجأ أسامة إلى ذاكرته الشعرية والتاريخية ، فاستعاد تلك المواقف للمتنبّي مع سيف الدولة ، وجعل من نفسه متنبياً آخر ، وجعل من ممدوحه سيفاً حمدانياً آخر ، وإن كان الناقد يقف ضد أسامة برغم شاعريته ؛ إذ لم يكن له خصوصية تُذكر ، وإن من حقه أن يضمن قصائده قصائد غيره ممن يحس أنها ترفد موضوعه وتزيده بياناً وحسناً ، ولكن في نظري أنّ أسامة هنا كان يستطيع التعبير شعرياً بما يتوافق مع مستوى الحدث ، بل وأنا مع مَنْ عاتبه على هذا الإسراف في التضمين ... إلى درجة إحساس الناظر أن أسامة قد ذابت شخصيته كلياً ، لدرجة أننا نسينا موقعه وما حدث له ؛ لأنّه قد أتى على كثير من أبيات المتنبي في قصيدته الميمية في كتاب سيف الدولة يضمن

(١) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، تأليف : د. محمد علي الهرفي ، دار المعالم الثقافية ، د.ط ، د.ت ، ص ١٤١ .

(٢) ديوان أسامة ، ص ٢٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

بعضها ويشطب بعض ألفاظها في مواضع عديدة" (١).

وقد اعتبر العقادُ هذا من العتاب المرّ بقوله : " وبادر أسامة بالرحيل قبل أن تلحقه كارثة من الكوارث التي تلاحق المغضوب عليهم بعد الرضا عنهم في بلاط ذوي السلطان ، وانتجع الديار المصرية لعله يعوض فيها ما فاته من الحظوة عند أصحاب الشام ، وفي ذلك يقول من قصيدة ميمية من غرر شعره ، ومن أحمل ما قيل في الشكوى والعتاب ...

ثم ختم هذا العتاب المرّ بأبيات ضمّنها سطوراً من قصيدة المتنبّي في عتابه لسيف الدولة يصل فيها - على ديدنه - ما انقطع ، ويرأب ما انصدع ، ويستبقي للغد بقية من أمل ولو في غير مطمع" (٢).

ويقول الدكتور أحمد بدوي : " ويبدو من تلك القصيدة وما فيها من حياةٍ وحرارة وقوة ، أنّ أسامة كان يضمّر في قلبه أيضاً من الحبّ لمعين الدين ، وقد ختم قصيدته بعد عتابٍ طويلٍ بقوله :

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي وكلّ ما نالني من بؤسه نعم" (٣)

ومما يؤكّد هذا الحبّ أيضاً : رغبته المشاركة في الجهاد معه ، فيقول بعد مدحه للأمير معين الدين ، وقد لقي الإفرنج وهزمهم (٤) :

عمّ أهل الشّام عدلُك لكننا
فخرنا من بينهم ريع ما كـ
أمن العدل أننا في بلاد الـ
كان حظي من ذاك ذكراً شنيعاً
نا بُعدنا وغاية البعد مصرُ
نا زرنا وقال زيدٌ وعمرو
كفر شفعٌ وأنت في الغزو وترُ
ثمّ مالي فيمن يُجاهدُ ذكرُ

(١) أسامة بن منقذ والتراث الشعري (دراسة في التأثر الشعري) ، إعداد : د. عبد الله إبراهيم يوسف الزهراني ، منشورات نادي الباحة الأدبي ، ط ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، ص ٧٢ وما بعدها .

(٢) أسامة بن منقذ ، بقلم : عباس محمود العقاد ، العربي ، العدد الثاني ، جمادى الآخرة ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م ، ص ٥٠ وما بعدها .

(٣) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ١٧٣ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٢٢٠ .

استطاع أسامة من خلال الأبيات السابقة أن يرسم صورة رائعة للفارس الحريص على الجهاد ، المتشوق له .

وكيف يتعرض أسامة لهجاء فارس وقد أثنى عليه لبلائه في حرب الصليبيين ، وانتصاره عليهم^(١) .

كما أظهر أسامة تعلقه بالحرب ، واهتم لفراقها^(٢) :

لَكَانَ بِقَلْبِي هَمٌّ زَادَ سَوْرَتَهُ وَهَمٌّ إِذَا قَلْتُ يُجْبُو زَنْدُهُ قَدْحَا
أُظِنُّ بِي الْعَجْزَ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ وَهَلُّ لَهَا سِوَايَ مِنَ الْأَبْطَالِ قُطْبُ رَحَى

" وترداد جمالية الفروسية سموّاً حين يجتمع الحبّ معها ، فتظهر الغنائية والشفافية والرقّة ، ويظهر الفارس المتمرد المكلل بالعنفوان متواضعاً ضعيفاً أمام المحبوبة فقط ؛ لأنّ الفروسية حبّ ، والحبّ مثل رفيع يبتغيه الفارس ، ورضا المحبوبة أو رضا ذوبها أمرٌ يسعى إليه الفارس ، فكثيراً ما يشكو الشاعر الفارس من تعلق محبوبته وتكرها له ، فيظهر وفاءه وحبّه وتقديره السامي لها حتى تغدو مثلاً أعلى يرنو إليه الشاعر من بعيد .

إنّ حبّ الفرسان من أعلى مراتب الحبّ ، وغزلهم بعيد عن الحسية المبتذلة ، تخالطه روح اللوعة والصدق والعذرية ، فيخرج من أعماق النفس متوجّهاً بالعاطفة المتوهّجة ضمن قالب جميل ، وبناء شعري فتان"^(٣) . من ذلك قول أبي فراس :

وَفِيَتْ وَفِي بَعْضِ الْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ لِإِنْسَانَةٍ فِي الْحَيِّ شِمْتُهَا الْغَدْرُ
تَسْأَلْنِي مَنْ أَنْتَ ؟ وَهِيَ عَلِيمَةٌ وَهَلْ بَفْتَى مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نَكْرُ
فَلَا تُنْكِرْنِي يَا بِنَةَ الْعَمِّ إِنَّهُ لَيَعْرِفُ مِنْ أَنْكَرْتِهِ الْبَدُو وَالْحَضْرُ
وَلَا تُنْكِرْنِي إِنْ نِي غَيْرُ مَنْكَرٍ إِذَا زَلَّتِ الْأَقْدَامُ وَاسْتُنْزِلَ النَّصْرُ

فالشاعر أراد أن يصوّر شجاعته من خلال ذلك الحوار الهادف بينه وبين تلك المحبوبة

(١) ينظر : ديوان أسامة ، ص ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) شعر أبي فراس الحمداني دلالاته وخصائصه الفنية ، ص ١١٥ .

الجهولة . بل ينتقل إلى صورةٍ أعمق من خلال حوارٍ دارَ بينه وبين محبوبته ، ولعلّها محبوبته وهمية لمحبوبته الحقيقية التي كشف الستار عنها بقوله^(١) :

وفي كلّتي ذاك الحَبَاءِ خَرِيدَةً لَهَا مِنْ طَعَانِ الدَّارِعِينَ سَتَائِرُ
تَقُولُ إِذَا مَا جِئْتَهَا مُتَدَرِّعًا " أَزَائِرُ شَوْقٍ أَنْتَ أَمْ أَنْتَ ثَائِرُ ؟ "

فقد جعل محبوبته محاطة بفرسان مدرعين لحمايتها ، وأنه لا يقلّ عن هؤلاء الفرسان ، فهو مدرّعٌ مثلهم ، وكأنه ذاهب لمواجهتهم لا يهاجم لدرجة أنّ محبوبته لم تعد تعلم سبب الزيارة ، وتتعجب منه لزيارتها بهذه الهيئة ، فلم يكن ذلك الحبيب الذي يريد وصل محبوبته ، وإنما ظهر لها وكأنّ له ثأر عندهم يجدّ في طلبه ، فقد انتقل من حالة العشق والغرام إلى الحرب والثأر ، فعكس شخصيته القتالية على شعره الغزلي ، " فالمرأة لم تكن شاغلة الفارس المحارب ، ولم تكن مائة دنياه وجاذبة قلبه ؛ بل كانت ظرفاً عابراً ، وموضوعاً من موضوعات شعره "^(٢).

" ولم يكن الشاعر الفارس يعتبر خضوعه لعاطفته وتغنييه بالشكوى واللوعة علامة ضعف ينال من اكتمال بطولته ، بل على العكس ، كانت شجاعته في النزال تكتمل برفته ودمائة خلقه في حبّه ، وغاية الأمر أنّ تقاليد الفروسية الشعرية قد رسخت واستقرت نهائياً في ظلّ العقيدة الإسلامية والأخلاق الإسلامية ، وأنها استمرت كتقليد يتعلق به الشعراء الفرسان ، وأصبح الشعر الفروسي قضيةً فنية ، وعلامةً نفسية ، وموقفاً إنسانياً .. في وقتٍ واحد "^(٣).

يعتزّ الفارس أبو فراس بإصابته في الحروب ، فذلك دليل على إقدامه وشجاعته ، وأظهر هذا الاعتزاز من خلال حوارٍ دارَ بين النساء ، ينتهي بالإعجاب بفروسيته ، فجعل من أثر الحرب حلية له يتحلى بها ويتباهى^(٤) :

(١) ديوان أبي فراس ١٠٤/٢ .

(٢) أبو فراس الحمداني فارس النضال ، د. ميخائيل مسعود ، الشركة العالمية للكتاب ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، ص ٤٧ .

(٣) مقدمة في النقد الأدبي ، ص ١٧٧ .

(٤) ديوان أبي فراس ٢٣٢/٢ .

ما أنسَ قولتَهِنَّ يومَ لَقِينَنِي :
 قالتَ لهنَّ وأنكَرتَ ما قُلنَه
 إني لِيُعجَبُنِي إذا عَايَنْتُهُ
 حُسْنُ الثَّنَاءِ بِقُبْحِ ما فَعَلَ القَنَا
 ويقولُ معبِّراً عن فخره^(١) :

وَعَدْتُ أَجْرُ رُمُحِي عَن مَقَامِ
 فِقَائِلَةَ تَقُولُ : (أبَا فِرَاسِ)
 وَقَائِلَةَ تَقُولُ : جُزَيْتَ خَيْرًا
 تُحَدِّثُ عَنْهُ رَبَّاتُ الحِجَالِ
 أُعِيدُ عُلَاكَ مِنْ عَيْنِ الكَمَالِ !
 لَقَدْ حَامَيْتَ عَن حَرَمِ المَعَالِي

فالشاعر يحاول أن يظهر تفردّه وتميّزه على الأقران من خلال حديثهن عنه ، وكأنه
 البطل الوحيد^(٢) :

سَلِي فَيَاتِ هَذَا الحَيِّ عَنِّي
 أَلَسْتُ أَمَدَّهُمْ لَذَوِي ظِلًّا
 أَلَسْتُ أَقْرَهُمْ بِالصَّيْفِ عَيْنًا
 وَأَثْبَتَهُمْ لَدَى الحَدَثَانِ جَاشًا
 رَضِيْتُ العَاذِلَاتِ وَمَا يَقْلُنُهُ
 وَكَمْ فَجَرَ سَبَقَنَ إِلَى مَلَامِي
 وَرَاجِعَةَ إِلَيَّ تَقُولُ سِرًّا
 فَلَمَّا لَمْ تَجِدْ طَمَعًا تَوَلَّتْ
 أَرَيْتَكَ مَا تَقُولُ بَنَاتُ عَمِّي
 أَمَا وَاللَّهِ لَا يُمَسِّنُ حَسْرِي
 وَلَكِنْ سَوِّفَ أَوْجِدُهُنَّ وَصَفَا
 يَقْلُنَ بِمَا رَأَيْنَ وَمَا سَمِعْنَهُ
 أَلَسْتُ أَعَدَّهُمْ لِلْقَوْمِ جَفْنَةً
 أَلَسْتُ أَمْرَهُمْ فِي الحَرْبِ لُهْنَةً
 وَأَسْرَعَهُمْ إِلَى الفُرْسَانِ طَعْنَةً
 وَإِنْ أَصَبْتُ عَصَاءَ لُهْنَةً
 فَعُدْتُ ضَحِيًّا وَلَمْ أَحْفَلْ بِهِنَّ
 أَعُودُ إِلَى نَصِيحَتِهِ لَعْنَةً
 وَقَالَتْ فِي عَاتِبَةٍ وَقُلْنَهُ
 إِذَا وَصَفَ النِّسَاءَ رَجَالَهُنَّ !
 يُفَلِّقُنَ الكَلَامَ وَيَعْتَذِرُنَّهُ
 وَأَبْسُطُ فِي المَدِيحِ كَلَامَهُنَّ

(١) ديوان أبي فراس ٢٨٤/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٩٧/٣ وما بعدها .

وكذلك أسامة عبر عن بطولته ، ولكن بشكل حزين مؤلم^(١) :

قالت وأحزنها بياضُ مفارقي ماذا ، فقلتُ : تريكةُ الأيامِ
فبكتُ وقالت : هل لها من واردٍ أو رائدٍ يوماً فقلتُ حمامي

فقد حاول الشاعر أن يظهر حُزنه على تلك البطولة الماضية من خلال محبوبته التي جعلها حزينة باكية لرؤية منظر شعره الأبيض ، فقد أصبح الفارس الطاعن في السن الذي ينتظر موته .

ويتضح ذلك في قوله^(٢) :

نظرتُ إلى ذي شبيبةٍ مُتهدِّمٍ فانِ وكم أفنى من الأعوامِ
يمشي وتقدُّمُهُ العَصَا وقد انحنى فكأتهَا وتَرُّ لِقَوسِ الرّامي
ورأتُ سَمَاتِ الأريحيَّةِ والنّدى ودلائلِ المعروفِ والإقدامِ
واستخبرتُ عني فقلتُ لها امرؤُ نأبي المَواطنِ من كرامِ الشّامِ
نبتِ الدِّيارِ به وضاقَ فسيحُها عنهُ ففارقَها بغيرِ ملامِ
قالتُ : من أيِّ النَّاسِ أنتُ ؟ فقلتُ من أولادِ مُنقِذِ في ذُرَى وسَنامِ

فالشاعر أخذ يصف نفسه من خلال عيون محبوبته الوهمية ؛ ليظهر ما حلَّ به مع تقدُّم العمر ، فقد أصبح كبير السن ، متحطم القوى ، يمشي منحني الظهر ، تسبقه عصاه ، إلا أنَّ آثار بطولته باقية عليه ، ملازمة له ؛ لأنَّه ليس كغيره من الناس ، بل هو من أولاد منقذ الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام .

والمرأة لا تأسر الفارس بحبِّها ، فالفروسية أهمُّ شيءٍ عنده حتى في حال قوَّته ، يقول أسامة في ذلك^(٣) :

إليكِ فما تُلني شؤونكِ شاني ولا تملكِ العينُ الحِسانُ عِناني

(١) ديوان أسامة ، ص ٣٢٢ .

(٢) العصا ، ص ٤٥١ وما بعدها .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٧٨ .

ولا تجزعي من بغتة البين واصبري
ولا تحملي هم اغترابي فلم أزل
وقياً إذا ما خان جفن لناظر
فلأسد غيل حيث حلت وإنما
ولا تسأليني عن زماني فأني
ولكن سالي عنّي الزمان فإنه
رمّني الليالي بالخطوب جهالةً
لعلّ التّنائي مُعقّبٌ لتداني
غريبَ وفاءٍ في الورى وبيان
ولم ترع كف صحبة لبنان
يهابُ التّنائي قلب كلّ جان
أنزّه عن شكوى الخطوب لسانِي
يحدث عن صبري على الحدّان
بصبري على ما نابي وعراي

فالظاهر عليهما أن حضور المرأة في شعرهما هو حضور معنوي للحديث عن فروسيتهما ، مع اختلاف بينهما في تناول ذلك الحضور ، فبينما أبو فراس جعل منها شاهدة على فروسيته متحدثة عنها ، جعل منها أسامة باكية حزينة على فناء فروسيته .

صورة الفارس المفقود :

وكذلك كانت الفروسية مصاحبة لهما حتى في رثائهما ، فلم تغب عنهما .
يقول أبو فراس^(١) :

لو كان يخلدُ بالفضائل فاضلٌ
أو كنت تُفدى لافْتَدْتُكَ سَرائنا
أو كان يُدفعُ عنك بأسٌ أقبلتُ
أعزّزُ على سادات قومك أن تُرى
والسمرُ عندك لم تُدَقَّ صُدورها
والسّابغاتُ مصونةٌ لم تُبتذلْ
وإذا المنيّةُ أقبلتْ لم يثنها
وَصِلتْ لكَ الآجالُ بالآجالِ
بنفائسِ الأرواحِ والأموالِ
صرعى تُكَدّسُ بالقنا العسالِ
فوقَ الفراشِ مقلّبَ الأوصالِ
والخيلُ واقفةٌ على الأطوالِ
والبيضُ سالمةٌ مع الأبطالِ
حرصُ الحريصِ وحيلةُ المُحتالِ

فالشاعر يعلم أن بطولة الفارس وأدواته لا تمنع عنه الموت الذي ما أن يهاجمه فلن يتمكن من مواجهته والدفاع عن نفسه منه ، فهو مقدر من الله وَعَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ مِّمَّا ، بلغت من الحرص والحيلة .

(١) ديوان أبي فراس ٣٠٠/٢ وما بعدها .

ويبالغ الشاعر في ذكر الحسرة على الفارس المفقود ، فيجعل أدواته هي التي تبكي عليه وتحنن على فراقه^(١) :

ما أنا أبكيه ولكنّما تبكيه أطرافُ القنا الذّابل^(٢)
أرى المعالي إذ قضى نحبّه تبكي بكاء الواله الثاكل
الأسد الباسل والعارض الـ هاطل عند الزمن الماحل

ثم أخذ الشاعر يعدّد مآثر الفارس المفقود بقوله^(٣) :

كان ابن عمّي إن عرا حادثٌ كالليث أو كالصارم الصّاقل
كان ابن عمّي عالماً فاضلاً والدهر لا يُبقي على فاضل
كان ابن عمّي بحر جود طمّي لكنّه بحر بلا ساحل

ولأسامة قصيدة يرثي فيها قومه ، ويبين فعالهم في الحروب ، وفروسيتهم التي عهدا فيهم ، فوصفهم بأجمل صفات الفرسان ، فمنها قوله :

إذا حاربوا فالأسد تحمي عرينها وإن سالموا كان التّبيل والذّكر
تبيح وتحمي منذ كانت سيوفهم يباح بها ثغر ويحمي بها ثغر
مضوا وانطوت ذنباهم وتصرمت كأنهم ما عمّروا ، ولها نشر
فلم يبق إلا ذكرهم وتأسفي عليهم ولن يبقى التأسف والذّكر

ويقول^(٤) :

وإذا فرغت إلى الغزاء دعوت من لا يستجيب ورمت نصرة خاذل
أين الظباء عهدتھن كوانسا بك في ظلال السّمهري الذّابل
النافرات من الأنيس تكرمّا والآنسات بكل ليث باسل

(١) ديوان أبي فراس ٢/٢٧٧ .

(٢) القنا : الرماح .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٧٧ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٣٤٨ و ٣٥٥ .

من كلِّ مكروهٍ اللِّقاءِ مُنازلٍ رَحِبِ الفِناءِ لِطارِقٍ أو نازلِ
مُتمنِّعٍ صعبٍ على أعدائِهِ سَهْلِ المَقادَةِ لِلخِليلِ الواصلِ
واهاً لَهُمِ مِنْ عَالِمٍ وَمَعَالِمِ وَمُمَنِّعاتِ عَقائِلِ وَمَعاقِلِ

فالشاعر في الأبيات السابقة يرثي قومه ويتساءل عن مصير أدواتهم الحربية التي كانت مقربة منهم ، وأخذ يعدد بعضاً من مآثرهم البطولية التي عُرفوا بها ، ثم أظهر حزنه ولوعته لفراقهم .

ونراه في قصيدة أخرى يؤكّد لهم تلك المآثر ، فيقول فيهم^(١):

إن أقفرتُ شيزراً منهم فهم جعلوا منيعَ أسوارها بيضاً وخُرصانا
هُمُ حَمَومها فلو شاهدتها وهُمُ بها لشاهدتُ آساداً وخَفّانا
كانوا لَمَن خافَ ظُلماً أو سَطاً مَلِكِ كهفاً ولِلجانِ المَطْلُوبِ جيرانا
عَلُوا بِمَجْدِهِمُ سِيفَ بَنِ ذِي يَزَنِ كما عَلتُ شيزراً في العِزِّ غَمَدانا
كانوا مَلاذاً لِأيتامٍ وأرملَةٍ وبائسٍ فاقدِ أهلاً وأوطانا
إذا أتيتَهُمُ أَلْفَيْتَ شَطْرَهُمُ مُسترفدينَ وزُواراً وضيّفانا
تراهُمُ في الوغى أَسداً ويومَ نَدَى غيثاً هَتوناً وفي الظلْماءِ رُهباناً

ويقول فيهم أيضاً^(٢):

بنو أبي وبنو عمّي دَمي دَمُهُم وإن أروني مُناواةً وشانانا
كانوا جَناحي فَحصتِهِ الخُطوبُ وإخواني فلم تُبقِ لي الأيّامُ إخوانا
كانوا سيوفي إذا نازلتُ حادِثَةً وجئتني حين ألقى الخُطْبَ عُريانا
بِهِمُ أصولٌ على الأمرِ المَهولِ إذا عرا وألقى عبوسَ الدّهْرِ جَدلانا

وضح الشاعر المكانة العالية لقومه رغم ما كان بينهم من خلافات ، فهم عنده بمثابة السيوف التي يهاجم بها الفارس أعداءه ولا يستغني عنها ، ثم ختم قصيدته بالدعاء لهم

(١) ديوان أسامة ، ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٩ .

بالرحمة والغفران .

صورة الفارس الأسير :

" وأحبّ صفات الشعر الفروسي ما امتزج فيه الفخر والحماسة بالألم والشكوى ،
وصادم الحزن واليأس روح البطولة والإقدام ، فإن تضارب هذه العوامل المختلفة يخلق للشعر
جواً رائعاً يؤثر في النفس ويستولي على الشواعر "^(١).

وقد كان لأبي فراس وأسامة نصيبٌ كبيرٌ من هذا الألم ، جعلهما يعرضان صوراً مؤثرة
للفارس العاجز أو المنكسر ، فالعجز والانكسار تمثل عند أبي فراس في أسره ، فقد جسّد لنا
صورة الفارس الأسير أروع تجسيد في أبياته ، فاستطاع أن يعرض ويوضح مفهوم الأسر
بالنسبة للفارس المجاهد المحرّب لهذا العجز الحقيقي عن الفروسية التي اعتاد عليها .

ولشدة تعبير أبي فراس عن الأسر اعتُبر أشهر أسيرٍ ، وخير من عبّر عن صورة
الفارس الأسير .

يقول د. أحمد البرزة : " كان أبو فراس في أسره مثال الشابّ الفخور بأسرته ، المزدهي
بقدرته وشجاعته وممارسته لأعمال البطولة ، المتطلع إلى المستقبل ، دافع عن نفسه
لاستئساره ، وألحّ على ابن عمّه سيف الدولة في فدائه ، فحالت بعض الصعوبات
السياسية والمالية والشخصية دون الإسراع في إجابة مطلبه فأمضّه الألم ، وكان منه
عتاب كثير ، واعتداد وإدلال بنفسه وفخر كبير "^(٢).

ولأبي فراس قبل أسره أبيات تحدّث فيها عن الأسر من منظور الفارس الحرّ ، يقول
مخاطباً أبا العشائر^(٣):

أَسِرْتَ فَلَمْ أَذُقْ لِلنَّوْمِ طَعْمًا وَلَا حَلَّ الطَّعْمَانُ لَنَا حِزَامًا
وَسِرْنَا مُعَلَّمِينَ إِلَيْكَ حَتَّى ضَرَبْنَا خَلْفَ (خَرَشَنَةَ) الْخِيَامَا

(١) الشعراء الفرسان ، ص ١٣ .

(٢) الأسر والسجن في شعر الحرب (تاريخ ودراسة) ، د. أحمد مختار البرزة ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق -
بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ٨٦ وما بعدها .

(٣) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٤٧ .

وصور حال أصحاب الأسير وأهله عند فراقه في قصيدة أرسلها إلى القاضي (أبي الحصين) عند أسر ابنه (أبي الهيثم) يهون عليه المصاب ، ويحثه على الصبر حتى لا يشمت به الأعداء ، فيقول^(١) :

ألا لا يرى الأعداء فيك غضاضةً فللدَّهْرِ بُؤْسٌ قد عَلِمْتَ وَلِينُ

ويقول في قصيدة أخرى^(٢) :

يا قَرْحُ لم يندملِ الأوَّلُ فهلْ بقلبي لكما محمَلُ

ويقول مخاطباً أبا العشائر وهو في الأسر في بلد الروم^(٣) :

تُهينُ علينا الحَرْبُ نفساً عزيزةً إذا عاضنا عنها الشاءُ المُنَمَّمُ

إذا لم يكنْ يُنجي الفِرارُ من الردى على حالةٍ فالصبرُ أرجى وأحزمُ

لك اللهُ إنا بين غادٍ ورائحٍ نعدُّ المغازي في البلادِ ونغنمُ

وكتب إليه أيضاً^(٤) :

أ(أبا العشائر) إن أسرتَ فطالما أسرتَ لك البيضُ الخفافُ رجالا

لما أجلتَ المَهْرَ فوق رؤوسهم نسجتَ له حُمُرُ الشُّعورِ عقالا

يا من إذا حمل الحصانَ على الوجى قال اتَّخذْ حُبْكَ التَّريكِ نعالا

ما كنتَ نُهزةً آخذ يومَ الوغى لو كنتَ أوجدتَ الكُميتَ مجالا

حملتَك نفسٌ حُرَّةٌ وعزائمُ قصرنَ من قُللِ الجبالِ طوالا

وأرينَ بطنَ العَيْرِ ظَهْرَ عُراعرِ والرومَ وخشاً والجبالِ رمالا

أخذوكَ في كِبِدِ المِضائقِ غيلةً مثلَ النَّساءِ تُرَبِّبُ الرُّبَّالِ

وبعد هذا العرض لشجاعة أبي العشائر لا ينسى أن يذكر شجاعته ويوجه له اللوم ؛

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٩٥ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٧٥ .

(٣) السابق ٣/٣٨٧ .

(٤) نفسه ٢/٣٠٣ وما بعدها .

لأنه لم يستنجد به وهو يعلم ما يتميز به أبو فراس^(١):

ألا دَعَوْتَ أَخَاكَ وَهُوَ مُصَاقِبٌ يَكْفِي الْعَظِيمَ وَيَدْفَعُ الْأَهْوَالَ
ألا دَعَوْتَ (أبَا فِرَاسٍ) إِنَّهُ مَمَّنْ إِذَا طَلَبَ الْمُمنَّعَ نَالَا
وَرَدَدْتَ بَعْدَ الْفَوْتِ أَرْضَكَ خَيْلُهُ سَرَعَى كَأَمْشَالِ الْقَطَا إِرْسَالَا

ثم بعد ذلك نراه يخص سيف الدولة بـمميزات ، أهمها : فكّ الأسرى ، فيوجه إليه الدعوة لفكّ أسر أخيه^(٢):

وَمُعَوِّدَ فَكِّ الْعُنَاةِ مُعَاوِدٍ قَتَلَ الْعُدَاةَ إِذَا اسْتِغَارَ أَطَالَا
صِفْنَا (بِخَرْشَنَةَ) وَقَطَعْنَا الشِّتَا وَبَنُو الْبَوَادِي فِي (قَمَيْرِ) حِلَالَا
وَسَمَتْ بِهِمْ هَمٌّ إِلَيْكَ مُنِيفَةٌ لَكِنَّهُ حَجَرَ الْخَلِيجِ وَحَالَا
وَعَدَا تَزْوُرُكَ بِالْفِكَاكِ خَيْولُهُ مُتَشَاقِلَاتٍ تَنْقُلُ الْأَبْطَالَا
إِنَّ ابْنَ عَمِّكَ لَيْسَ يَغْفَلُ إِنَّهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَفَكِّكَ الْأَغْلَالَا

ثم ما يلبث أن يطمئنه أن فكّ أسره أضحي قريباً ، ولا سيما أن ذلك الفارس لا يغفل عن ذلك العمل العظيم لفارسانه .

وقد عرض الروم الفداء على سيف الدولة لفكّ أسر أبي العشائر^(٣):

يَسُومُونَا فِيكَ الْفِدَاءَ وَإِنَّا لَنَرْجُوكَ قَسْرًا وَالْمَعَاطِسُ تُرْغَمُ !
أَتَرْضَى بَأَنْ نُعْطِيَ السَّوَاءَ قَسِيمَنَا إِذَا الْمَجْدُ بَيْنَ الْأَغْلَبِينَ يُقَسَّمُ
وَمَا الْأَسْرُ غُرْمٌ وَالْبَلَاءُ مُحَمَّدٌ وَلَا النَّصْرُ غُنْمٌ وَالْهَلَاكُ مُذَمَّمُ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْذَرْتَ إِنْ قَلَّ مُسْعِدٌ وَأَقْدَمْتَ لَوْ أَنَّ الْكِتَائِبَ تُقَدِّمُ
دَعَوْتَ خَلُوفًا حِينَ تَخْتَلِفُ الْقَنَا وَنَادَيْتَ صُمًَّا عَنْكَ حِينَ تُصَمِّمُ
وَمَا عَابَكَ ابْنُ السَّابِقِينَ إِلَى الْعَلَا تَأْخُرُ أَقْوَامٍ وَأَنْتَ مُقَدِّمُ

(١) ديوان أبي فراس ٣٠٤/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٤/٢ وما بعدها .

(٣) السابق ٣٨٩/٣ وما بعدها .

ومالك لا تلقى بمهجتك الردى وأنت من القوم الذين هم هم !

" وأبو فراس يرفض ما عرضه الروم من الفداء ؛ فقد عدّ الفداء إذلالاً لا يليق بالعرب أن يرتضوه ، وإنما يريد أن يستردوا أبا العشائر بالقوة ...

وما كان الشاعر يدري وهو يقول هذا القول أنه ذات يوم سيقع في الروم ، وأنه سيرفع صوته يطلب الفداء الذي لم يرتضه لأبي العشائر " (١).

وليخفف عنه الأسر يخاطبه بقوله (٢):

وما ساءني أتي مكائك عانياً وأسلم نفسي للإسار وتسلم
طلبتك حتى لم أجد لي مطلباً وأقدمت حتى قل من يتقدم
وما قعدت بي عن لحاقك علّة ولكن قضاء فاتني فيك مبرم !
فإن جل هذا الأمر فالله فوقه وإن عظم المطلوب فالله أعظم !

فقد تمنى الشاعر في هذه الأبيات أن يكون مكان أبي العشائر في الأسر ، فأراد الله عجزك له أن يجرب مرارة الأسر ، وبذلك اختلف التعبير عن هذا المصاب بعد أن عايش هذه المعاناة وجرب مرارة الأسر .

انفجرت عاطفته بأروع الأبيات التي جعلت منه شاعر العاطفة ، فقد أصبح الأسر سبباً في عذاب الفارس النفسي إلى جانب أنه السبب في إبداع الشاعر ، فكان الأسر شراً على الفارس ، خيراً على الشاعر .

يقول الثعالبي : " قد أطلت عنان الاختيار من محاسن شعر أبي فراس ، وما محاسن شيء كله حسن ؟ وذلك لتناسبها وعذوبة مشارعها ، ولاسيما الروميات التي رمى بها هدف الإحسان ، وأصاب شاكلة الصواب ، ولعمري إنها - كما قرأته لبعض البلغاء - لو سمعته الوحش أنست ، أو خوطبت به الخرس نطقت ، أو استدعى به الطير نزلت " (٣).

(١) شعر الصراع مع الروم ، ص ٢٧٦ .

(٢) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٩٠ .

(٣) يتيمة الدهر ٧٧/١ وما بعدها .

فكان لأبي فراس في الأسر صرخات علت الأسوار ، وسابقت الزمان حتى استقرت في الأذهان لتصبح خير شاهد على ما نال الفارس الأسير من شتى أنواع العذاب تحت أيدي أعداء لا يرحمون أسيرهم ، وإن أحسنوا إليه ، فلم يكن هذا العذاب الذي لاقاه هذا الفارس عذاباً جسدياً كغيره ، فيصرخ من شدة الألم ، وإنما كان الغالب عليه هو العذاب النفسي ، فنراه في شعره يعرض ويتألم ، ويتحسّر ، ويتذكر ، ويستنجد ، ويجادل ويخاصم .

فهاهو ذا يعرض أسباب أسره فيقول^(١) :

أُسِرْتُ وما صَحْبِي بَعُزْلٍ لَدَى الوَغَى ولا فَرَسِي مُهْرٌ ولا رَبُّهُ غَمْرٌ
ولكنْ إذا حُمَّ القَضَاءُ على امرئِ فليس له بَرٌّ يَقِيهِ ولا بَحْرٌ !
وقال أُصِحَابِي : (الفرارُ أو الرَدَى) فقلتُ : (هُما أمرانِ ؛ أحلاهُما مُرٌ)
ولكنني أَمْضِي لِمَا لا يَعِيبُنِي وحسبُكَ من أمرينِ خيرُهُما الأَسْرُ
يقولون لي : (بِعْتَ السَّلَامَةَ بالرَدَى) فقلتُ : (أما واللهِ ، ما نالني خُسْرٌ)
وهلْ يتجافى عَنِّي المَوْتُ ساعةً إذا ما تَجافَى عَنِّي الأَسْرُ والصَّرُّ

فنجد الشاعر يبرر أسباب الأسر ، ويرد ذلك إلى أنها من قضاء الله عَلَيْهِ عليه ، وفي ذلك دلالة على عمق الإيمان بالله عَلَيْهِ ؛ لأنه عندما أسر لم يكن هناك أي سبب يدفع به إلى الأسر ، فلا أصحابه عَزَل من السلاح لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، ولا فرسه مهر ، ولا صاحبه لم يجرب الحروب ، بل هو الخبير بها ، فالشاعر ينظر إلى مسببات الأسر المعهودة ، وهي في نظره ثلاثة أسباب :

١/ العزل من السلاح ، وهذا دليل على أن الفارس لا يترك أدواته ولا يتعد عنها ، فهي مصاحبة له لا تفارقه .

٢/ عيب في الفرس ؛ لصغر سنّها وعدم معرفتها بالقتال .

٣/ عيب في الفارس .

فلا يجد لتلك الأسباب أثراً فيما حدث له ، فلم يكن أمامه إلا الفرار أو الأسر ، فاختار

(١) ديوانه ٢١٣/٢ .

الأسر ؛ لأنه لا يرضى بالذلّ والإهانة ، " فبطولة الشاعر هي بطولة نفسية أكثر مما هي بطولة مادية ، فهو يتحدث بما يجري في نفسه من تنازع بين البطولة والهوان ، ويجاول دائماً أن يؤكد أنه إذا أهين وذلّ فذانك الهوان والذلّ هما خارجيان لا يؤثران على ما في نفسه من بطولة داخلية تأبى الاستسلام والخنوع " (١) .

وقرار الفارس بقبول الأسر ليس لجن أو تخاذل ، وإنما هو دليل على الشجاعة في مواجهة الأعداء (٢) :

هو الموتُ فاخترَ ما علا لكَ ذكْرُهُ فلمَ يمُتِ الإنسانُ ما حييَ الذِّكْرُ

ويتذكر ماضيه المشرق ، فيتحسر على ذلك الماضي الذي أظهر فيه بطولات متعدّدة على أعدائه الذين ينعمون اليوم بأسره لديهم ، بل يتفضّلون عليه بإحسانهم له ، فيقول متعجباً من موقفهم هذا (٣) :

يَمْنُونَ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلِيَّ ثِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمُرُ
وَقَائِمٌ سَيْفِي فِيهِمْ أُنْدَقٌ نَصْلُهُ وَأَعْقَابٌ رُمَحِي فِيهِمْ حُطَمَ الصَّدْرُ

ثم اتجه الشاعر إلى قومه يعرض عليهم صور بطولاته لعلهم يسرعون في نجده ، وذلك بقوله (٤) :

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ [وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقِدُ البَدْرُ]
فَإِنْ عَشْتُ فَالطَّعْنُ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ وَتِلْكَ القَنَا وَالبَيْضُ وَالضُّمْرُ الشُّقْرُ (٥)

فبدأ بذكر أفعال الأعداء به ؛ ليبين لقومه أنه فارس قد علم الأعداء قدره ؛ لفعاله فيهم ، فأحرى بقومه أن يفتقدوه ، لاسيما إذا نزلت بهم المصائب ، فلا أحد يستطيع أن يحلّ محله ، ولن يجدوا له بديلاً ، فهو كالبدر المفقود في الليلة الظلماء ، وإن عاد إليهم أضاءت دنياهم بعودة القوة

(١) في النقد الأدبي ، ص ٢٧٩ .

(٢) ديوان أبي فراس ٢/٢١٣ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢١٣ .

(٤) السابق ٢/٢١٣ .

(٥) القنا : الرماح . البيض : السيوف . الضمر : الخيول .

إليهم ، فيرون منه ما اعتادوا عليه من شجاعة ، وإن تركوه فماذا يحلّ به غير الموت الذي يحلّ بكلّ إنسان ، فهو الفارس الشجاع الذي واجه الموت بكلّ شجاعة ولم يخش منه^(١) :

وإن متُّ فالإنسانُ لا بُدَّ ميّتٌ وإن طالت الأيامُ وانفسحَ العُمُرُ
ولو سدَّ غَيْرِي ما سدَدْتُ اكتَفَوْا بِهِ وما كان يَغْلُو التُّبْرُ لو نَفَقَ الصُّفْرُ
ونحنُ أناسٌ لا تَوَسُّطَ عندنا لنا الصَّدْرُ دونَ العالَمينَ أو القَبْرِ

فعلى الرغم من ذلّ الأسر الذي يعانيه أبو فراس ، إلا أنّه أعطى في هذه الأبيات صورة مميزة عن الفارس الأسير الذي لا يخشى الموت ، ويصاحبه غروره إلى أن يوصله إلى مبتغاه ، ولو قاده إلى القبر ، بل يؤكّد على ذلك بقوله^(٢) :

تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نَفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهَا الْمَهْرُ
أَعَزُّ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى ذَوِي الْعُلَا وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التُّرَابِ وَلَا فَخْرُ

ويرى الدكتور محمد أبو حمدة أنّ أبا فراس في هذه القصيدة يرسل إشارات عسكرية لسيف الدولة بقوله : " وكأنّ أبا فراس يستحثّ سيف الدولة على ضرورة مناجزة البيزنطيين والسعي إلى النصر ، ولو كان ذلك على حساب المخاطرة بحياته (أبي فراس) هو لأنّه في سبيل نيل المعالي واليد العليا في الحرب تهون علينا النفوس .

إنّ هذا التفسير هو الذي يضع القصيدة دُرَّةً وَسَطَ العقد ، وتبيّن فيها الأبيات ذات منحى واتّجاه . ويكون سيف الدولة - وهو الألمعي والشاعر والقائد العسكري والسياسي - قد فهم عن ابن عمّه وقرأ وراء السطور سطوراً ، ووراء الظواهر مضموناً^(٣) .

فالشاعر لا يخشى الموت ، بل يتغنّى بتلك النهاية البطولية التي توقّعتها لها أمّه^(٤) :

وَقَدْ عَلِمْتُ أُمِّي بَأَنَّ مَنِيَّتِي بِحَدِّ سِنَانٍ أَوْ بِحَدِّ قَضِيبٍ^(٥)

(١) ديوان أبي فراس ٢١٤/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢١٤/٢ .

(٣) في التذوق الجمالي ، ص ١١٧ .

(٤) ديوان أبي فراس ٣٤/٢ وما بعدها .

(٥) القضيب : السيف القاطع .

كما عَلِمَتْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَغْرَقَ ابْنُهَا بمَهْلِكِهِ فِي الْمَاءِ (أُمُّ شَيْبِ) ^(١)
 وَلَمْ يَرْتَعِْبْ فِي الْعَيْشِ (عَيْسَى بْنُ مُصْعَبِ) وَلَا خَفَّ خَوْفَ الْحَرْبِ قَلْبُ حَبِيبِ
 رَضِيَتْ لِنَفْسِي : (كَانَ غَيْرَ مُوَفَّقِ) وَلَمْ تَرْضَ نَفْسِي : (كَانَ غَيْرَ نَجِيبِ)

فالشاعر يضرب الأمثال لنهاية الفرسان ، مثل : عيسى بن مصعب الذي قاتل حتى قتل ،
 وذلك يقوي صبره وعزيمته ، ويكون في ذلك عبرة له ولغيره .

ولقد عرض أبو فراس صوراً متعددة لحاله في الأسر ، منها قوله ^(٢):

مُغْرَمٌ ، مَوْلَمٌ ، جَرِيحٌ ، أَسِيرٌ إِنَّ قَلْبًا يُطِيقُ ذَا لَصَبُورٍ
 وَكَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ حَدِيدٌ وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُلُوبِ صُخُورٌ
 قُلْ لِمَنْ حَلَّ (بِالشَّامِ) طَلِيقًا بِأَبِي قَلْبِكَ الطَّلِيقُ الْأَسِيرُ

والشاعر لم يفارق جوّ الحرب حتى في الأسر ، فنفسه المهمومة تتغلب على وخز السهام ،
 مثله مثل فارس يتعرّض لسهام العدى ويحسّ بآلامها المتواصلة ^(٣):

يُعْزُّ عَلَى الْأَحْبَةِ بِـ(الشَّامِ) حَبِيبٌ بَاتَ مَمْنُوعَ الْمَنَامِ
 تَبَيَّتْ هُمُومُهُ وَاللَّيْلُ دَاجٍ تُقَلِّبُهُ عَلَى وَخْزِ السَّهَامِ
 وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَذْكَرُ صَبْرَهُ عَلَى الْأَسْرِ ^(٤).

ويقول في إظهار تحسّره على بقاءه في الأسر ^(٥):

أَقَمْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ عَامِينَ لَا أَرَى مِنْ النَّاسِ مَحْزُونًا وَلَا مُتَصَنِّعًا
 إِذَا خِفْتُ مِنْ أَخْوَالِي الرُّومِ خُطَّةً تَخَوَّفْتُ مِنْ أَعْمَامِي الْعُرْبِ أَرْبَعًا

(١) شيبب : هو شيبب بن منبه ، فارس الخوارج ، غرق في نهر .

(٢) ديوان أبي فراس ٢٠٥/٢ .

(٣) المصدر السابق ٣٧١/٣ .

(٤) ينظر : الديوان ٨٣/٢ ، ٢٣/٢ وغيرها ..

(٥) ديوان أبي فراس ٢٤٧/٢ .

وإن أوجعتني من أعادي شيمَةً لقيتُ من الأحبابِ أذهى وأوجعا

فقد لقي الشاعرُ من أعدائه الروم من التقدير والاحترام لذات الفارس ما لم يلقه من أعمامه العرب الذين تخلّوا عنه ولم يسارعوا إلى خلاصه ، حتى إن تلك الشيمة من الأعداء الذين وصفهم الشاعر بأخواله ، وذلك ربما يعود إلى أن أمه رومية أصبحت تؤلمه وتُكدر عيشته ، فهو لا يريد منهم تلك الشيمة التي تزيد مرارتها عليه عند تخلي أقاربه عنه .

والفارس الأسير يحزن ويتألم حتى في يوم تبادل الزيارات بين الأسرى ؛ لأن ذلك اليوم يتوافق مع اليهود ، فقد جعلوا الزيارة يوم السبت الذي يرقبون فيه المسيح ولا يرقب فيه هو والأسرى من المسلمين سوى الأخ والصدیق^(١) :

جَعَلُوا الْإِلْتِقَاءَ فِي كُلِّ سَبْتٍ فَجَعَلْنَاهُ لِلزَّيَارَةِ عِيدًا
وَشَرِكْنَا الْيَهُودَ فِيهِ فَكِدْنَا رَغْبَةً فِيهِ أَنْ نَعُودَ يَهُودًا
يَرْقُبُونَ (الْمَسِيحَ) فِيهِ وَمَا نَرُ قُبُ إِلَّا أَخًا وَخِلًا وَدُودًا
لَوْ قَدَرْنَا - وَعَلَّ ذَاكَ قَرِيبٌ - مَا عَدَمْنَا بِالْقُرْبِ عِيدًا جَدِيدًا

وله قصيدة يعاتب فيها أخاه أبا الفضل بن سعيد الحمدايي على عدم زيارته له ، فيقول^(٢) :

تَرْكُ إِتْيَانِ الزَّيَارَةِ عَامِدًا وَأَنْتَ عَلَيْهَا لَوْ تَشَاءُ قَدِيرٌ

يقول الدكتور نصرت عبد الرحمن : " وهو أحد إخوة أبي فراس الأربعة ، ولا تتحدث كتب التاريخ التي اطلعت عليها عن أسرهِ ، ولولا قصيدة لأبي فراس لما درينا أنه أُسر " ^(٣) .

وفي سردٍ لهذه الأحداث دليل على اتصال الشعر بحياته اتصالاً مباشراً ، حتى إنه أصبح

(١) ديوان أبي فراس ٩٥/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢١٤/٢ .

(٣) شعر الصراع مع الروم ، ص ٢٧٧ .

سجلاً لحياته .

ولم تخلُ أبيات أبي فراس من الموازنات والمقابلات بين الماضي المشرق والحاضر المظلم .
"فهروب الشاعر إلى الماضي والفخر به أكبر سلاح له ضدَّ الحاضر ، وإحدى وسائله
للخلاص من الكآبة ، كما أنه وسيلته لاسترجاع شيء من ذكريات حياة مشرقة مفعمة
بالبطولات والتفاعلات"^(١) .

يقول أبو فراس^(٢):

فَلَكُمْ أَحَطَّتْ بِهَا مُغِيرَا	إِنْ زُرْتُ (خَرَشَنَةَ) أَسِيرَا
تَهَبُ الْمَنَازِلَ وَالْقُصُورَا	وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّارَ تَنْتَبِرَا
لَبُّ نَحُونَا حُورًا وَحُورَا	وَلَقَدْ رَأَيْتُ السَّيِّئِ يُجْرَا
حَسَنَاءَ وَالظُّبِّيَ الْغَيْرَا	نَخْتَارُ مِنْهُ الْغَاذَةَ الْبُرَا
كَ فَقَدْ نَعِمْتُ بِهِ قَصِيرَا	إِنْ طَالَ لَيْلِي فِي ذُرَا
كَ فَقَدْ لَقِيتُ بِكَ السُّرُورَا	وَلَسْتُ لَقِيتُ الْحُزْنَ فِيهِ
فَلَأُلْفَيْنَ لَهُ صَبُورَا	وَلَسْتُ رُمِيتُ بِحَادِثٍ
تَحُ بَعْدَهُ فَتَحًا يَسِيرَا	صَبْرًا لَعَلَّ اللَّهَ يَفُورَا

فالشاعر يدعو إلى التأمل في حاله وكيف تغيرت الحال بين ليلة وضحاها ، فبعد أن
كان مُغيراً على تلك الديار يحرقها ويسبي نساءها ، ويختار منهنَّ الجميلات ، وذلك إمعاناً
منه بإذلال قومهنَّ ، ولقد كان في سعادة وسرور ، ما لبث أن تحول إلى حزنٍ وألمٍ بسبب
الأسر فيها .

ويقول^(٣):

تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلتَّفْعِ مَوْضِعٌ لَدِيَّ وَلَا لِلْمَتَّقِينَ جَنَابُ

(١) أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني ، مظاهره وسماته الفنية ، إعداد : الجوهرة عبد العزيز المعيوف ،
إشراف : نورة صالح الشمالان ، جامعة الملك سعود ، د.ط ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ص ١١٠ .

(٢) ديوان أبي فراس ٢٠٨/٢ .

(٣) المصدر السابق ٢٥/٢ .

ولا شُدَّ لي سَرَجٌ على ظَهْرٍ سَابِحٍ ولا ضُرِبَتْ لي بالعِراءِ قِبابٌ
ولا بَرَقَتْ لي في اللَّقاءِ قِواطِعُ ولا لَمَعَتْ لي في الحُرُوبِ حِرابٌ
سَتَذْكُرُ أَيَّامِي (نُمَيْرٌ) و (عَامِرٌ) و (كَعْبٌ) على عِلاتِها و (كِلابٌ)

فالشاعر يذكر ابن عمه بأفعاله البطولية تجاه القبائل النائرة عليه ، وكيف استطاع إخمادها بكل شجاعة وحكمة .

كما نراه في موضع آخر يستبشر بعودته من الأسر ، ويتأمل حال الكون أثناء عودته ، ولم ينسَ ضرب المثل أيضاً على مثل تلك الأحداث^(١):

عَوَائِدَ مِنْ نُعْمَاهُ غَيْرَ بَوَائِدِ عسى الله أن يأتي بخير فإن لي
لِيُنْقِذَنِي مِنْ قَعْرِ ظِلْمَاءٍ لَمْ يَكُنْ فكم شالني من قعر ظلماء لم يكن
وَبَدَلِ التَّدَى وَالْجُودِ أَكْرَمُ عَائِدِ فإن عُدت يوماً عاداً للحرب والعلا
إِلَى خَصْبِ الْأَكْنافِ عَذْبِ الْمَوَارِدِ^(٢) مريراً على الأعداء لكن جاره
لَهُ مَا تَشَهَّى مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدِ^(٣) مُشَهَّى بأطراف النهار وبينها
وَلَمْ يَكُنِ (الْحَجَّاجُ) عَنْهُ بِرَاقِدِ^(٤) فقد خلص الله (المهلب) جهرة
(عَدِيٌّ) وَلَمْ يَصْفَحْ لَهُ صَفْحَ عَامِدِ وأفلت بعد الأسر من كف حارث
وَعَادَ إِلَى (سَيْفِ الْهُدَى) خَيْرَ عَائِدِ وفك من الأسر (ابن عمي تغلب)

ثم أخذ الشاعر يعدد الذين ماتوا في الأسر ، وهو يخشى أن يلقي نفس المصير ، فيكون حاله مثلهم^(٥):

(١) ديوان أبي فراس ٨٤/٢ .

(٢) الأكناف : النواصي .

(٣) الطريف : المال المستحدث . التالد : المال القديم .

(٤) المهلب : هو المهلب بن أبي صفرة ، أحد القادة العرب المشهورين ، والحجاج : هو الحجاج بن يوسف

الثقفي والي العراق على عهد عبد الملك بن مروان .

(٥) ديوان أبي فراس ٨٤/٢ .

وقد مات مَحْبُوساً (زبانُ بنِ منذرٍ) يُباعُ بأعلى (مكّة) ببيعِ كاسِدِ
وعبدُ (يغوث) بعدَ طُولِ ثوائِه قضَى راشدَ الأفعالِ أو غيرَ راشدِ
ومن بعدِ طُولِ الأسرِ ماتَ (ابنُ خَشْرَمِ) فكانَ فتىً عن يومِه غيرَ حائدِ

وقال في أسره وقد سمع هديل حمامة بقربه^(١):

أقولُ وقد ناحَتْ بقرَبِي حَمَامَةٌ أيا جارتا هل باتَ حالكِ حالي؟
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا تعالِي أفاِسمُكِ الهُمومَ تعالِي!
تعالِي تَري زُوحاً لَدَيَّ ضَعيفَةً تَرَدَّدُ في جِسمٍ يُعَذِّبُ بالِ!
أيضُحكُ مأسورٌ وتَبكي طليقةً ويسكتُ محزونٌ وَيَندُبُ سالِ
لقد كُنْتُ أُولَى مِنْكَ بالدمعِ مُقلَّةً ولكنَّ دمعِي في الحوادثِ غالِ!

" وهذه الشكوى للحال والحديث للطبيعة ومخلوقاتها وسيلة يلجأ إليها الشعراء الرومانسيون عادةً ، ولقد سار الشاعر على نمط أصحاب هذا المذهب قبل أن يكون مذهباً معروفاً ، فهو يودّ من كلِّ كائنٍ حيٍّ أن يشاركه إحساسه وآلامه بأسره ، حتى الحمامة ... " ^(٢).

فقد اتخذ أبو فراس من الحمامة " وسيلةً خارجيةً للتعبير عن حالة داخلية ، وقد تفجّرت التجربة الشعرية في التنازع والخصام بين الواقع والمثال . أسر الشاعر يمثّل الواقع ، والحمامة المثال الذي يتوق إليه . انطلاقها يُضعف من شعوره بالقيد والأسر ، كما أن القيد والأسر يضاعفان من شعوره بحريتها ... " ^(٣).

وقد استخدم أسامة نفس الوسيلة للتعبير عن حالته ، وذلك بقوله مخاطباً حمام الأييك^(٤):

حَمائِمِ الأيِكِ هَيِّجَتُنَّ أَشْجَانَا فَلْيَيْكِ أَصْدُقُنَا بَشًّا وَأَشْجَانَا
كَمْ ذَا الحَينِ عَلَيَّ مَرَّ السَّنينِ أَمَا أَفَادُكُنَّ قَدِيمُ العَهْدِ نَسِيَانَا

(١) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٢٥ .

(٢) شعر أبي فراس الحمداني (دراسة فنية) ، ماجدولين بيسسو ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ، ص ١١٢ .

(٣) في النقد الأدبي ، ص ٢٨٩ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٣٥٦ .

هَلْ ذَا الْعَوِيلِ عَلَى غَيْرِ الْهَدِيلِ وَهَلْ
مَا وَجَدُ صَادِحَةٍ فِي كُلِّ شَارِقَةٍ
كَمَا وَجَدْتُ عَلَى قَوْمِي تَخَوَّنَهُمْ
إِذَا نَهَى الصَّبْرُ دَمْعِي عِنْدَ ذِكْرِهِمْ
فَقِيدُكُنْ أَعَزَّ الْخَلْقِ فَقِدَانَا
تُرْجِعُ النَّوْحَ فِي الْأَفْئَانِ أَلْحَانَا
رَيْبُ الْمَنُونِ وَدَهْرٌ طَالَ مَا خَانَا
قَالَ الْأَسَى : فَضْ ، وَجَدُ سَحًّا وَتَهْتَانَا

ويتعجب أبو فراس كيف يتنكر له ابن عمه وهو الذي وهبه شبابه كله ، فيقول^(١) :

وَهَبْتُ شَبَابِي وَالشَّبَابُ مَضْنَةٌ
فَلَمَّا مَضَى عَصْرُ الشَّبِيَّةِ كُلُّهُ
تَكَلَّبْتُ بَيْنَ الْمَجْرِ وَالْعَتَبِ فُرْجَةً
فَلَوْ أَنَّ أَسْرِي بَيْنَ عَيْشِ نَعْمَتِهِ
وَلَكِنْ أَصَابَ الْجُرْحُ جِسْمًا مُجْرَحًا
وَصِرْتُ إِذَا مَا رُمْتُ فِي الْخَيْرِ لَذَّةً
وَهَأْنَا قَدْ حَلَى الزَّمَانَ مَفَارِقِي
تَنَكَّرَ (سَيْفُ الدِّينِ) لَمَّا عَتَبْتُهُ
فَقُولَا لَهُ مِنْ أَصْدَقِ الْوُدِّ أَنِّي
وَلَوْ أَنِّي أَكُنْتُ فِي جَوَانِحِي
لَأَبْلَجَ مِنْ أَبْنَاءِ عَمِّي أَرْوَعًا^(٢)
وَفَارَقَنِي شَرْحُ الشَّبَابِ مُودِّعًا
فَحَاوَلْتُ أَمْرًا لَا يُرَامُ مُنْعَا
حَمَلْتُ لَذَاكَ الشُّهْدَ ذَا السُّمِّ مُنْقَعَا
وَصَادَفَ هَذَا الصَّدْعُ قَلْبًا مُصَدِّعَا
تَبَعْتُهُمَا بَيْنَ الْهُمُومِ تَبُّعَا
وَتَوَجَّيْتُ بِالشَّيْبِ تَاجًا مُرْصَعَا
وَعَرَّضَ بِي تَحْتَ الْكَلَامِ وَقَرَّعَا
جَعَلْتِكَ مِمَّا رَابَنِي الدَّهْرُ مَفْزَعَا
لَأُورِقَ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ وَقَرَّعَا

فعبارات الشاعر إلى ابن عمه واضحة صريحة ، تحمل كل معاني الاستعطاف لحاله .

ولا ينسى الفارسُ الأسير واجبه نحو قومه وهو يعلم أن جيوش الروم قد عزموا على غزوهم ، فأخذ يحذرهم ويحمسهم لمقابلة الأعداء والتأهب للقائهم لقاء الثائر الغضبان^(٣) :

يَا رَاكِبًا يَوْمِي (الشَّامِ) بِجَسْرَةٍ
مَوَارَةَ شَدِيدِيَّةٍ مَذْعَانِ !

(١) ديوان أبي فراس ٢/٢٤٦-٢٤٨ .

(٢) مضنة الشيء : الذي لا يُفِرُّط . الأبلج : الأبيض الطلق الوجه . الأروع : الحسن الشجاع .

(٣) ديوان أبي فراس ٣/٤١٠ .

أقرا السلام من الأسير العاني
 أقرا السلام على الذين سُيوفُهُمُ
 أقرا السلام على الذين يُوئهُمُ
 الصّافحين عن المُسيءِ تَكْرُماً
 ويقول مخاطباً ابن عمّه^(١):

سَيْفَ الْهُدَى) مِنْ حَدِّ سَيْفِكَ يُرْتَجَى
 هَذَا الْجِيوشُ تَجِيشُ نَحْوِ بِلَادِكُمْ
 الْبَغْيُ أَكْثَرُ مَا تُقَلُّ خِيُولُهُمْ
 لَيْسُوا يَنْوَنَ فَلَا تَنْوَا فِي أَمْرِكُمْ
 غَضَبًا لَدِينِ اللَّهِ أَنْ لَا تَغْضَبُوا
 حَتَّى كَأَنَّ الْوَحْيَ فِيكُمْ مُنْزَلٌ
 قَدْ أَغْضَبَكُمْ فَأَغْضَبُوا وَتَاهَبُوا
 يَوْمٌ يُذِلُّ الْكُفْرَ لِلْإِيمَانِ
 مَخْفُوفَةً بِالْكَفْرِ وَالصُّلْبَانَ
 وَالْبَغْيُ شَرُّ مُصَاحِبِ الْإِنْسَانِ
 لَا يَنْهَضُ الْوَانِي لِغَيْرِ الْوَانِي^(٢)
 لَمْ يَشْتَهَرْ فِي نَصْرِهِ سَيْفَانِ
 وَلَكُمْ تُخَصُّ فُضَائِلُ الْقُرْآنِ
 لِلْحَرْبِ أَهْبَةَ ثَائِرِ غَضْبَانِ

ثم أخذ الشاعر يضرب لهم الأمثلة كعادته ؛ ليزيد من قوتهم وبث الحماسة في نفوسهم^(٣)، على الرغم من خذلانهم له ؛ لأنه يرى في نصرهم نصراً لدين الله وَعَلَى.

ويستمر في تعجبه من فعل ابن عمّه في أكثر من قصيدة^(٤)، منها :

هِيَهَاتَ لَا أَجْحَدُ النَّعْمَاءَ مُنْعَمَهَا
 يَا مَنْ يُحَازِرُ أَنْ تَمْضِيَ عَلَيَّ يَدٌ
 وَأَنْتَ بِي مِنْ أَضَنِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ
 خَلَفْتَ (يَابْنَ أَبِي الْهَيْجَاءِ) فِي أَبِي
 مَالِي أَرَاكَ لَبِيضِ الْهَيْدِ تَسْمَحُ بِي
 فَكَيْفَ تَبْذُلْنِي لِلسُّمْرِ وَالْقُصْبِ

(١) ديوان أبي فراس ٤١٠/٣ وما بعدها .

(٢) ينون : يفترون ويضعفون .

(٣) ينظر : ديوان أبي فراس ٤١٢/٣ وما بعدها .

(٤) ينظر : المصدر السابق ١٩٠/٢ .

ومنها قوله^(١):

زَمَانِي كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتَبٌ وَأَنْتَ عَلَيَّ وَالْأَيَّامُ الْبُ
فَلَا بِالشَّامِ لَدِّي شَرْبٌ وَلَا فِي الْأَسْرِ رَقٌّ عَلَيَّ قَلْبٌ
أَمْثَلِي تُقْبَلُ الْأَقْوَالُ فِيهِ ؟ وَمِثْلَكَ يَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ كِذْبٌ
جَنَانِي مَا عَلِمْتَ وَلِي لِسَانٌ يَقْدُ الدَّرْعَ وَالْإِنْسَانَ عَضْبٌ

ويذكر سيف الدولة بالمكانة التي يحتلها ، فهو الفارس الذي تربع على قمة الجحد ، وهي صورة فريدة للفارس ومتميزة لا يبلغها أي فارس^(٢):

وَرُبِّمَّا زَانَ الْأَمَاجِدَ مَا جِدُّ وَرُبِّمَّا زَانَ الْفَوَارِسَ فَارِسُ !
رَفَعْتُ عَلَى الْحُسَادِ نَفْسِي وَهَلْ هُمْ وَمَا جَمَعُوا لَوْ شِئْتُ إِلَّا فَرَانِسُ
أَيَدْرِكُ مَا أَدْرَكَتُ إِلَّا ابْنَ هَمَّةٍ يُمَارِسُ فِي كَسْبِ الْعُلَا مَا أُمَارِسُ
يَضِيقُ مَكَانِي عَنِ سِوَايَ لِأَتْنِي عَلَى قِمَّةِ الْمَجْدِ الْمُؤْتَلِّ جَالِسُ
سَبَقْتُ وَقَوْمِي بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا وَإِنْ رَغَمْتَ مِنْ آخِرِينَ الْمَعَاطِسُ

ومع كل هذا العتاب فإنه يرى أن لسيف الدولة المكانة العالية في نفسه ، سواء أنصف أو ظلم^(٣):

وَعَامِلِنِي بِإِنصَافٍ وَظَلْمٍ تَجِدُنِي فِي الْجَمِيعِ كَمَا تُحِبُّ

كما يجعل أفضل المكارم التي يسعى سيف الدولة في شرائها هي فداؤه ، بل يجعل فداؤه بمثابة الفرض ، وقصده من ذلك أن فداؤه مقدّم على غيره^(٤):

يَا مُنْفِقَ الْمَالِ لَا يُرِيدُ بِهِ إِلَّا الْمَعَالِي الَّتِي يُؤْتَلِّهَا
أَصْبَحْتَ تَشْرِي مَكَارِمًا فَضْلًا فِدَاؤُنَا قَدْ عَلِمْتَ أَفْضَلُهَا
لَا يَقْبَلُ اللَّهُ قَبْلَ فَرَضِكَ ذَا نَافِلَةً عَنْدَهُ تُنْفَلُّهَا

(١) ديوان أبي فراس ٢٨/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٣٥/٢ .

(٣) السابق ٢٨/٢ .

(٤) نفسه ٣٣٤/٣ .

فالشاعر ينادي ابن عمه المعروف عنه سعيه إلى المعالي وتأصيلها إلى فدائه ، فهو أفضل المكارم .

وله قصيدة رائعة تعبّر عن عمق الحزن والأسى الذي أصابه ، وفيها تسليم بقضاء الله وقدره عليه ، يقول فيها^(١) :

مَالِي جَزَعْتُ مِنَ الْخُطُوبِ وَإِنَّمَا أَخَذَ الْمُهِمِّنُ بَعْضَ مَا أَعْطَانِي
وَأَسْرَتُ فِي مَجْرَى خِيُولِي غَازِيَا وَحُبْسْتُ فِيمَا أَشْعَلَتْ نِيرَانِي

فالشاعر يتعجب من خوفه وجزعه من المصائب التي حلت عليه ، وهو يعلم أنها من قضاء الله عليه ، وأنها ابتلاء منه وَعَجَلٌ ، وعليه الصبر عليها ، لاسيما أنه أسر وهو غازٍ في سبيل الله ، ومما يخفف عليه ذلك المصاب : أن الأرض التي دخلها أسيراً طالما دخلها منتصراً وأشعل النيران فيها .

وتظهر غيرة الفارس على فروسيته عندما يرى رجالاً لا تسدّ مكانه ، أو تحدث حرب ليس له فيها أثر ، فهو يؤكد على تلك الرغبة بقوله^(٢) :

إِنِّي أَغَارُ عَلَى مَكَانِي أَنْ أَرَى فِيهِ رَجَالًا لَا تَسُدُّ مَكَانِي
أَوْ أَنْ تَكُونَ وَقِيعَةً أَوْ غَارَةً مَالِي بِهَا أَثَرٌ مَعَ الْفِتْيَانِ

وينظر إلى حاله الآن وحاله في السابق ، فيقول^(٣) :

أَصْبَحْتُ مُمْتَعِ الْحَرَكَ وَطَالَمَا أَصْبَحْتُ مُمْتَعًا عَلَى الْأَقْرَانِ
وَلطَالَمَا حَطَّمْتُ صَدْرَ مُثَقَّفٍ وَلطَالَمَا أَرَعَفْتُ أَنْفَ سِنَانِ
وَلطَالَمَا قُدْتُ الْجِيَادَ إِلَى الْوَعَى قُبَّ الْبُطُونِ طَوِيلَةَ الْأَرْسَانِ
وَأَنَا الَّذِي مَلَأَ الْبَسِيطَةَ كُلَّهَا نَارِي وَطَنَّبَ فِي السَّمَاءِ دُخَانِي

فقد أصبح الشاعر الفارس لا يستطيع الحركة ، ولا مواجهة الشجعان في القتال بعد أن

(١) ديوان أبي فراس ٤٠٨/٣ .

(٢) المصدر السابق ٤١٠/٣ .

(٣) السابق ٤٠٩/٣ .

كان الفارس الشجاع الكثير الحروب ، الذي حطم الرماح ، وجعلها تسيل من دماء الأعداء ، وقاد الخيول الضامرة طويلة اللجام إلى الحروب ، وملاً الأرض بناره ، والسماء بدخانها من كثرة انتقاله للقضاء على الأعداء .

ثم ذهب يُبرّر أسباب هذا الإخفاق الذي أصابه ، فلم يجد إلا قضاء الله عليه الذي يغلب شجاعة الشجعان^(١):

كَانَ الْقَضَاءُ فَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةً غَلَبَ الْقَضَاءُ شَجَاعَةَ الشَّجْعَانِ
أَعَزُّ عَلَيَّ بَأْنٌ يُخَلُّ بِمَوْقِفِي وَيُحَلُّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَكَانِي
مَا زِلْتُ أَكُلُّ كُلَّ ثَغْرِ مُوحِشٍ أَبَدًا بِمُقْلَةٍ سَاهِرٍ يَقْطَانِ
سَلَاكَ كُلَّ عَظِيمَةٍ وَرَادَهَا ضَرَابِ هَامَاتِ الْعِدَا طَعَانِ

فالشاعر مؤمن بالقضاء والقدر ، ولكن الذي يؤلمه ويكدر عيشه أن يحلّ أحد مكانه ، وهو القادر الوحيد على النزول في الأماكن الصعبة الموحشة ، والقضاء على الأعداء وقطع رؤوسهم وطعنهم . وفي ذلك محاولة من الشاعر لتذكير قومه بماضيه المشرق ، وتأكيد لهم على مواصلته ؛ حتى يسارعوا في خلاصه من الأسر .

لكنه مع ذلك يظلّ الفارس الشجاع الذي عندما لم يقدر على إبراز موهبته البطولية ، يتجه إلى إبراز موهبته الشعرية^(٢):

إِنْ يَمْنَعُ الْأَعْدَاءُ حَدَّ صَوَارِمِي لَا يَمْنَعُ الْأَعْدَاءُ حَدَّ لِسَانِي
إِنْ لَمْ تَكُنْ طَالَتْ سِنِي فَإِنَّ لِي رَأْيَ الْكُهُولِ وَنَجْدَةَ الشُّبَّانِ

فهو إن لم يستطع منع الأعداء بسيفه ، قادر على منعهم بلسانه ، وعلى الرغم من صغر سنّه ، إلا أنه يتميز برجاحة العقل وقوّة الجسد .

فالشاعر الفارس يؤكد على مكانته رغم ما حلّ به ، وكأنه يواسي نفسه المنكسرة

(١) ديوان أبي فراس ٤٠٩/٣ .

(٢) المصدر السابق ٤٠٩/٣ .

بعودته إلى ميدان البطولة والمجد^(١):

وَعَلِمُ فَوَارِسَ الْحَيِّينِ أَنِّي قَلِيلٌ مَن يَقُومُ لَهُمْ مَقَامِي
وَفِي طَلَبِ الثَّنَاءِ مَضَى (بُجَيْرٌ) وَجَادَ بِنَفْسِهِ (كَعْبُ بْنُ مَامٍ)^(٢)
أَلَامٌ عَلَى التَّعَرُّضِ لِلْمَنَايَا وَلِي سَمْعٌ أَصَمُّ عَنِ الْمَلَامِ
بَنُو الدُّنْيَا إِذَا مَاتُوا سَوَاءٌ وَلَوْ عَمَرَ الْمُعَمَّرُ أَلْفَ عَامٍ

وقد خصّ الشاعرُ الفوارسَ بالذكر دون غيرهم ، تأكيداً لمكانته بينهم ، ثم ضرب المثل على التضحية وبذل النفس ، حتى وصل إلى غايته من ذلك ، فهو يطمح لنهاية بطولية تورثه المجد والعزّ المنشود .

وعندما لم تُفلح رسائله لسيف الدولة ، التجأ إلى ابني سيف الدولة لعلهما يستطيعان إقناع والدهما بفكّ خالهما من الأسر ، فمن رسائله التي وجهها من الأسر : رسالة شعرية إلى ابني سيف الدولة يطلب منهما أن يشاركا في فكّ قيده^(٣):

يَا سَيِّدِي أَرَاكُمَا لَا تَذْكُرَانِ أَخَاكُمَا
أَوْجَدْتُمَا بَدَلًا بِهِ يَبْنِي سَمَاءَ غَلَاكُمَا
أَوْجَدْتُمَا بَدَلًا بِهِ يَفْرِي نُحُورَ عِدَاكُمَا
مَنْ ذَا يُعَابُ بِمَا لَقِيَ تُمِنُ مِنَ الْوَرَى إِلَّاكُمَا
لَا تَقْعُدَا بِي بَعْدَهَا وَسَلَا (الْأَمِيرِ) أَبَاكُمَا
وَخَذَا فِدَايَ جُعِلْتُ مِنْ رَبِّبِ الزَّمَانِ فِدَاكُمَا

فالشاعر يذكرهما بنفسه ويتساءل : ألم يعودا يذكران خالهما ؟ بل جعل نفسه أخاً لهما ؛ لشدة ارتباطه بهما ، ثم أخذ يعطي تبريرات لذلك النسيان ، فيقول لهما : هل وجدتما فارساً بدلاً منه يحقق لكم النصر ويقضي على الأعداء ؟ ثم إن طول بقاءه في الأسر لا يعاب عليه من الناس إلا أنتما . ثم ختم القصيدة بطلبه منهما في الإسراع في فكّ أسره .

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٧٤ وما بعدها .

(٢) بجير بن الحارث بن عباد ، وكعب بن مامة الإباضي الذي يضرب المثل بكرمه .

(٣) ديوان أبي فراس ٣/٣٧٠ وما بعدها .

وله قصيدة يصف فيها أسره ، بل يرى أنه محسود من الناس حتى على المصائب^(١) :

لَمَنْ جَاهَدَ الْحُسَادَ أَجْرُ الْمُجَاهِدِ وَأَعْجَزُ مَا حَاوَلْتُ إِرْضَاءَ حَاسِدِ
وَلَمْ أَرَ مِثْلِي الْيَوْمَ أَكْثَرَ حَاسِدًا كَأَنَّ قُلُوبَ النَّاسِ لِي قَلْبٌ وَاجِدِ
أَلَمْ يَرَ هَذَا الدَّهْرُ غَيْرِي فَاضِلًا وَلَمْ يَظْفِرِ الْحُسَادُ قَبْلِي بِمَاجِدِ
وَهَلْ غَضَّ مَنِّي الْأَسْرُ إِذْ خَفَّ نَاصِرِي وَقَلَّ عَلَيَّ تِلْكَ الْأُمُورِ مُسَاعِدِي
أَلَا لَا يُسِرُّ الشَّامِتُونَ فَإِنَّهَا مَوَارِدُ آبَائِي الْأَلَى وَمَوَارِدِي

والصبر والإقدام يلازمان الفارس حتى في أسره ، فهي صفات اتصف بها ولا يتخلّى عنها^(٢) :

فَنَاتِي عَلَى مَا تَعْلَمَانِ شَدِيدَةً وَعُودِي عَلَى مَا تَعْلَمَانِ صَلِيبُ
صَبُورٌ عَلَى طَيِّ الزَّمَانِ وَنَشْرِهِ وَإِنْ ظَهَرَتْ لِلدَّهْرِ فِي نُدُوبُ
وَإِنَّ فِتْنًا لَمْ يَكْسِرِ الْأَسْرُ قَلْبَهُ وَخَوْضُ الْمَنَايَا جِدَّةً لَنَجِيبُ

فهو الفارس القوي الشجاع القادر على تحمل الصعاب ، الصبور على مصائب الزمان ، وإن ظهرت عليه آثار الجراح ، ولن يكسر الأسر قلبه ، بل يقويه ؛ لأنه يسعى إلى الموت في ساحات البطولة .

لذلك نراه يوجه إلى أعدائه الشامتين بأسره رسالة شديدة الوقع عليهم ، يخبرهم فيها بمكانته ومزنته رغم ما حلّ به^(٣) :

مَا غَضَّ مَنِّي حَادِثٌ وَالْقَرْمُ قَرْمٌ حَيْثُ حَالًا
أَنْبِي حَلَلْتُ فَإِنَّمَا يَدْعُونِي السِّيفُ الْمُحَلَّى
فَلَسْنُ خَلَصْتُ فَإِنِّي شَرَقَ الْعِدَا طِفْلًا وَكَهْلًا
مَا كُنْتُ إِلَّا السِّيفَ زَا دَ عَلَى صُرُوفِ الدَّهْرِ صَقْلًا

(١) ديوان أبي فراس ٨١/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٤٨/٢ .

(٣) السابق ٣٢٨/٣ .

وَلَسْنُ قُتِلْتُ فَإِنَّمَا مَوْتُ الْكِرَامِ الصَّيْدِ قَتْلًا
لَا يَشْتَمَنَّ بِمَوْتِنَا إِلَّا فِتْيَ يَفْنَى وَيَبْلَى

ويعمل الأسير جاهداً على مشاركة قومه أحزانهم على الرغم من البعد ، فنراه يوجّه رسالة عزاء إلى سيف الدولة ، ممزوجة بطلبٍ للعداء^(١) :

أَوْصِيكَ بِالْحُزْنِ لَا أَوْصِيكَ بِالْجَلْدِ جَلَّ الْمُصَابُ عَنِ التَّعْيِيفِ وَالْفَنْدِ
إِنِّي أَجَلِّكَ أَنْ تُكْفَى بِتَعْزِيَةٍ عَنْ خَيْرِ مُفْتَقِدٍ يَا خَيْرَ مُفْتَقِدِ
يَا مُفْرَدًا بَاتَ يَبْكِي لَا مُعِينَ لَهُ أَعَانَكَ اللَّهُ بِالتَّسْلِيمِ وَالْجَلْدِ
هَذَا الْأَسِيرُ الْمُبْقَى لَا فِدَاءَ لَهُ يَفْدِيكَ بِالتَّنْفَسِ وَالْأَهْلِينَ وَالْوَلْدِ

ولعلمه بالحرقة التي تشعر بها أمه ، فحرقة الأسير لا يشعر بها إلا الأسير والمقربون إليه ، ومن خيرة المقربين : هي تلك الأمّ الحنون ، التي ما يزال حنائها وعطفها على ولدها يزداد عند بعده عنها ، ويتفطر قلبها عليه حسرةً وألماً ، لذلك يحاول جاهداً أن يواسيها بشعره الصادق ؛ ليخفف المصاب عنها وعن نفسه^(٢) :

مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَمِيلٌ وَظَنِّي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ
جِرَاحٌ وَأَسْرٌ وَاشْتِيَاقٌ وَغُرْبَةٌ أَحْمَلُ إِنِّي بَعْدَهَا لِحُمُولُ
وَمَا نَالَ مِنِّي الْأَسْرُ مَا تَرَيَانَهُ وَلَكِنِّي دَامِي الْجِرَاحِ عَلِيلُ
جِرَاحٌ تَحَامَاهَا الْأُسَاةُ مَخُوفَةٌ وَسُقْمَانٌ بَادَ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ
وَأَسْرٌ أَقَاسِيهِ وَلَيْلٌ نُجُومُهُ أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ
تَطُولُ بِي السَّاعَاتُ وَهِيَ قَصِيرَةٌ وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لَا يَسْرُكَ طُولُ

فعبّر عن مصابه في الأسر ، ولكنه لا يهتم لذلك كله ، ولكن ما يهّمه هو تلك الأم التي يقول فيها ويقول لها^(٣) :

(١) ديوان أبي فراس ٧٠/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٣١٢/٢ وما بعدها .

(٣) السابق ٣١٥/٢ وما بعدها .

وَأَنَّ وَرَاءَ السُّتْرِ ، أَمَا بُكَاءُهَا
فِيَا أُمَّتَا لَا تَعْدَمِي الصَّبْرَ إِنَّهُ
وَيَا أُمَّتَا لَا تُحِطِي الْأَجْرَ إِنَّهُ
وَيَا أُمَّتَا صَبْرًا فَكُلُّ مُلَمَّةٍ
أَمَا لَكَ فِي (ذَاتِ التَّطَاقِينِ) أُسْوَةٌ
أَرَادَ ابْنُهَا أَخَذَ الْأَمَانَ فَلَمْ تُجِبْ
تَأْسِي كَفَاكَ اللَّهُ مَا تَحْذَرِيْنَهُ
وَكُونِي كَمَا كَانَتْ بِـ(أُحَدٍ) (صَفِيَّةً)
وَلَوْ رَدَّ يَوْمًا (حَمْرَةَ الْخَيْرِ) حُزْنَهَا
وَمَا أَثْرِي ، يَوْمَ اللَّقَاءِ ، مُذَمَّمًا!

عَلَيَّ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوِيلُ
إِلَى الْخَيْرِ وَالنُّجْحِ الْقَرِيبِ رَسُولُ
عَلَى قَدْرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَزِيلُ !
تَجَلَّى عَلَيَّ عَلَاتُهَا وَتَزُولُ
بـ(مَكَّةَ) وَالْحَرْبُ الْعَوَانُ تَجُولُ
وَتَعْلَمُ عِلْمًا أَنَّهُ لَقَيْلُ
فَقَدْ غَالَ هَذَا النَّاسَ قَبْلَكَ غُولُ
وَلَمْ يُشْفَ مِنْهَا بِالْبُكَاءِ غَلِيلُ
إِذَا مَا عَلَتْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ
وَلَا مَوْقِفِي ، عِنْدَ الْإِسَارِ ، ذَلِيلُ!

فيطلب منها في الأبيات السابقة أن تصبر وتتأسي بمن سبقها من أمثال أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - ، وصفية عمة الرسول ﷺ .

ثم أخذ يذكر أمه بمواقفه في وقت الحرب ، وأنه لم يؤسر لذل ؛ وإنما عن شجاعة واختيار منه ، لعل في ذلك تصبيراً لها على مصابها^(١) :

وَمَا أَثْرِي يَوْمَ اللَّقَاءِ مُذَمَّمٌ
لَقَيْتُ نُجُومَ الْأَفْقِ وَهِيَ صَوَارِمٌ
وَلَمْ أَرَعْ لِلنَّفْسِ الْكَرِيمَةِ خَلَّةً
وَلَكِنْ لَقَيْتُ الْمَوْتَ حَتَّى تَرَكَتُهَا

وَلَا مَوْقِفِي عِنْدَ الْإِسَارِ ذَلِيلُ
وَحُضَّتْ سَوَادَ اللَّيْلِ وَهُوَ خِيُولُ
عَشِيَّةً لَمْ يَعْطِفْ عَلَيَّ خَلِيلُ
وَفِيهَا وَفِي حَدِّ الْحُسَامِ فُلُولُ

ولم يتوان الفارس الأسير أن يطلب الفداء من ابن عمه ، تحقيقاً لرغبة أمه المكلمة على فقدته^(٢) :

لَوْ لَا الْعَجُوزُ بِـ(مَنْبِجٍ)
وَلَكَّانَ لِي عَمَّا سَأَلْتُ

مَا خَفْتُ أَسْبَابَ الْمَنِيَّةِ
سَأَلْتُ مِنَ الْفِدَا نَفْسُ أَبِيئِ

(١) ديوان أبي فراس ٣١٧/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٣٣/٣ وما بعدها .

لَكِنِ أَرَدْتُ مُرَادَهَا وَلَوْ أَنْجَذْتُ إِلَى الدَّيْنَةِ

ثم أخذ يوصيها بالصبر على المصاب بقوله^(١):

يَا أُمَّتَا لَا تَحْزَنِي وَتَقِي بِفَضْلِ اللَّهِ فِيهِ
يَا أُمَّتَا لَا تَيَّاسِي اللَّهُ أَلْطَافُ خَفِيٍّ !
كَمْ حَادِثٌ عَنَّا جَلَا هُ وَكَمْ كَفَانَا مِنْ بَلِيٍّ !
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيِّ لِي فَإِنَّهُ خَيْرُ الْوَصِيَّةِ !

ويتوجع ويتحسر ويشتد ألمه عندما يعلم أن أمه العليلة خذلها ابن عمه ، وقد وصف الشاعر ألم هذه الأم وحرقتها على ابنها أبلغ وصف وأشدد تعبير^(٢):

يَا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُهَا آخِرُهَا مُزَعِجٌ وَأَوْلُهَا
عَلِيلَةٌ بِالشَّامِ مُفْرَدَةٌ بَاتَ بِأَيْدِي الْعِدَا مُعْلَلُهَا
تُمْسِكُ أَحْشَاءَهَا عَلَى حُرْقٍ تُطْفئُهَا وَالْهُمُومُ تُشْعَلُهَا
إِذَا اطْمَأَنَّتْ - وَأَيْنَ - أَوْ هَدَاتٌ عَنَّتْ لَهَا ذِكْرِي تُقْلِقُهَا

ثم رسم صورة بطولية لنفسه من خلال تساؤلات أمه عنه^(٣):

(يَا مَنْ رَأَى لِي بِحِصْنِ (خَرْشَنَةَ) أَسَدَ شَرِيٍّ فِي الْقِيُودِ أَرْجُلُهَا) !
(يَا مَنْ رَأَى لِي الْقِيُودَ مُوثَقَةً عَلَى حَيْبِ الْفُؤَادِ أَثْقَلُهَا)

فقد شبه الشاعر نفسه بالأسد المقيد ؛ وذلك حتى يثبت لأعدائه أن صورته البطولية ما زالت ملازمة له ، وأن الأسر الذي هو فيه مجرد قيود سرعان ما تزول ، ويعود الأسد إلى عرينه وقوته ، ولهذا نراه يخفف عنها المصاب بقوله^(٤):

(يَا أُمَّتَا هَذِهِ مَنَازِلُنَا نَشْرُكُهَا تَارَةً وَنَنْزِلُهَا)

(١) ديوان أبي فراس ٤٣٤/٣ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٣٣٠/٣ .

(٣) السابق ٣٣١/٣ .

(٤) نفسه ٣٣١/٣ .

(يا أمّتا هذه مواردنا
 نعلها تارة ونهلها)
 (أسلمنا قومنا إلى نوب)
 أيسرّها في القلوب أقتلها)
 (واستبدلوا بعدنا رجال وغي
 يود أدنى عيّا أمثلها)

فالشاعر يرى أنّ السبب الحقيقي في المصائب التي حلّت به ، هو أنّ قومه تركوه في الأسر ، واستبدلوا به رجال حرب يتمنى أفضلهم أن يصل إلى أدنى درجة المجد والعلّا التي وصل إليها هو .

ثم وجه رسالة عتاب إلى ابن عمه على هذا الصنيع بأمّه^(١):

بأيّ عُذرٍ ردّدتَ والهّة
 عليّك دون الوريّ معولها
 جاءئك تمّاح ردّ واحدّها
 يتتظرُ الناسُ كيف تُقلها !
 أين المعالي التي عرفت بها
 تقولها دائماً وتفعلها

بل يتعمّق الشاعر ليصل به الأمر إلى عقد موازنة بين حاله في الأسر وحال ابن عمّه المنتعم بالملك^(٢):

يا واسع الدار كيف توسّعها
 ونحن في صخرة نزلها
 يا ناعم الثوب كيف تبدّلها
 ثيابنا الصوف ما تبدّلها !
 يا راكب الخيل لو بصرت بنا
 نحمل أقيادنا ونقلها !
 رأيت في الضرّ أوجها كرمّت
 فارق فيك الجمال أجملها !
 قد أثر الدهر في محاسنها
 تعرفها تارة وتجهلها

فالشاعر يعرض على سيف الدولة صوراً من العذاب النفسي والجسدي الذي يعانيه الأسير في الأسر ، فمن ذلك : الأعمال الشاقة التي يقومون بها ، وما عانوه من تعب وجهد ، حتى تغيّرت ملامح وجوههم فاخفت جمالها المعهود ، وذهبت نضرتها .

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٣١ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٣٣ .

ولكن هذه الأم على ما يبدو لم تسعد بفك أسر ابنها ، فقد ماتت قبل أن يفدى وتقرّ عينها برؤية ابنها الوحيد الذي رثاها رثاءً حاراً ، يقول فيه ^(١) :

أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَيْثٌ بَكَرُهُ مِنْكَ مَا لَقِيَ الْأَسِيرُ !
 أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَيْثٌ تَحْيِّرَ لَا يُقِيمُ وَلَا يَسِيرُ
 أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَيْثٌ إِلَى مَنْ بِالْفِدَا يَأْتِي الْبَشِيرُ
 أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ لَمَنْ تُرَبِّي وَقَدْ مَتَّ الذَّوَابُّ وَالشُّعُورُ
 إِذَا ابْنُكَ سَارَ فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ فَمَنْ يَدْعُو لَهُ أَوْ يَسْتَجِيرُ

ومن يتأمل قصائد أبي فراس يشعر بما كان عليه من القهر والذل الذي أسر نفسه قبل أن يأسر جسمه ، فما يعانيه هذا الفارس هو معاناة داخلية نفسية أكثر منها خارجية ، فهو يعاني من خذلان الأهل له في مقابل عطف الأعداء عليه ، وهذا أمر ليس باليسير على أيّ إنسان ، فقد انقطع عنه السند إلى درجة اليأس ، فأخذ يرحلهم أن لا يتركوه في أيدي النصارى ؛ حتى لا يموت ميتة لا تليق بفارسٍ قضى عمره طلباً للموت في ساحات القتال ^(٢) :

دَعْوَتِكَ لِلْجَفْنِ الْقَرِيحِ الْمُسَهَّدِ لَدَيَّ وَلِلنَّوْمِ الْقَلِيلِ الْمُسَرَّدِ
 وَمَا ذَاكَ بُخْلًا بِالْحَيَاةِ وَإِنِّهَا لِأَوَّلُ مَبْدُولٍ لِأَوَّلِ مُجْتَدِ
 وَمَا الْأَسْرُ مِمَّا ضِقَّتْ ذُرْعًا بِحَمْلِهِ وَمَا الْخَطْبُ مِمَّا أَنْ أَقُولَ لَهُ قَدْ
 وَمَا زَلَّ عَنِّي أَنْ شَخِصًا مُعَرَّضًا لِنَبْلِ الْعَدَى إِنْ لَمْ يُصَبْ فَكَأَنَّ قَدْ
 وَلَسْتُ أَبَالِي إِنْ ظَفَرْتُ بِمَطْلَبٍ يَكُونُ رَخِيصًا أَوْ بَوْسَمٍ مُزَوِّدِ
 وَلَكِنِّي أَخْتَارُ مَوْتَ بَنِي أَبِي عَلَى صَهَوَاتِ الْخَيْلِ غَيْرِ مُوسَّدِ
 وَتَأْبَى وَآبَى أَنْ أَمُوتَ مُوسَّدًا بِأَيْدِي النَّصَارَى مَوْتِ أَكْمَدِ أَكْبَدِ
 فَمَنْ حُسْنِ صَبْرٍ بِالسَّلَامَةِ وَاعِدِي وَمَنْ رَيْبِ دَهْرٍ بِالرَّدَى مُتَوَعَّدِي
 أَقْلَبُ طَرْفِي بَيْنَ خَلِّ مُكَبَّلٍ وَبَيْنَ صَفِيٍّ بِالْحَدِيدِ مُصَفَّدِ

(١) ديوان أبي فراس ٢١٦/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٧٨/٢ وما بعدها .

ويوضح مقدار المكانة التي يحتلها ، فيقول^(١):

دَعَوْتُكَ وَالْأَبْوَابُ تُرْتَجُّ دُونَنَا فَكُنْ خَيْرَ مَدْعُوٍّ وَأَكْرَمَ مُنْجِدِ
فَمِثْلِكَ مَنْ يُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ وَمِثْلِي مَنْ يُفْدَى بِكُلِّ مُسَوِّدِ

" ويروح يضرب أصنافاً من المنطق التبريري : يتأني في دعوته ، ويتمهل ، معتبراً أن أباه الروحي جدير بكل عظمة ، وأنه هو أيضاً جدير بأن يفدى بكل مسود ، وخسارته خسارة مزدوجة .

فهم يخسرون فيه الشاعر والفارس معاً .. وفي هذا القول رمز لقيمة هامة^(٢) من قيم المجتمع في ذلك العصر الذي يحيط هذين اللقبين (الفارس والشاعر) بهالة تقديس خاصة .. فبالشعر يدافع عن أعراض قومه ، وبحسامه يضرب عنهم .. " ^(٣) .
ثم أخذت صرخات الشاعر في العلو ، مبرراً أسباب المناداة^(٤):

أناديك لا أنني أخاف من الردى ولا أرتجي تأخير يوم إلى غد
وقد حطّم الخطي واخترم العدى وفلّل حد المشرفي المهند
ولكن أنفت الموت في دار غربة بأيدي النصارى الغلف ميتة أكمد
فلا تترك الأعداء حولي ليفرحوا ولا تقطع التّسأل عني وتقعد
ولا تقعدن عني - وقد سيم فديتي - فلست عن الفعل الكريم بمقعد

بل اشتدّت عباراته عليه ، فأخذ يذكره بالمعائب التي سيتعرّض لها إن هو لم يعجل في خلاصه^(٥):

فإن متّ - بعد اليوم - عابك مهلكي معاب التّزاريين مهلك معبد

(١) ديوان أبي فراس ٧٨/٢ .

(٢) الأصح مهمة وليست هامة .

(٣) أبو فراس الحمداني فتوة رومنسية ، خليل شرف الدين ، دار ومكتبة الهلال - بيروت ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م ، ص ١٢١ وما بعدها .

(٤) ديوان أبي فراس ٧٩/٢ .

(٥) المصدر السابق ٧٩/٢ .

هم عضلوا عنه الفداء فأصبحوا
ولم يكُ بدعاً هلكه غير أنهم
فلا كان كلبُ الروم أرأف منكم
ولا يبلُغ الأعداء أن يتناوضوا
أأضحوا على أسراهم بي عوداً

يهذون أطراف القريض المقصد
يعابون إذ سيم الفداء وما فدي
وأرغب في كسب الشاء المخلد
وتقعد عن هذا العلاء المشيد
وأنتم على أسراكم غير عود

ثم أخذ الشاعر يشعرهم بالخسارة الكبرى التي حصلت لهم بتركه في الأسر^(١):

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى
متى تلد الأيام مثلي لكم فتى
فإن تفتدوني تفتدوا شرف العلاء
وإن تفتدوني تفتدوا لعلاككم
يطاعن عن أعراضكم بلسانه

طويل نجاد السيف رحب المقلد
شديداً على البأساء غير ملهد
وأسرع عواد إليها معود
فتى غير مردود اللسان أو اليد
ويضرب عنكم بالحسام المهتد

فكان من أهم ما ذكرهم به ذلك الفارس الشاعر المدافع عنهم بلسانه وبيده ، فخسارة الفارس الشاعر خسارة كبيرة لقبيلته ، لاسيما أنه ليس كمثل أي فارس أو شاعر ، وإنما هو الفارس المفقود الذي لا يعوضهم الزمان بمثله .

وبعث له برسالة أخرى يقول في بعضها^(٢):

أقلني ! أقلني ! عشرة الدهر إنه
ولو لم تنل نفسي ولاءك لم أكن
ولا كنت ألقى الألف زرقاً عيونها
فلا وأبي ما ساعدان كساعداً

رمانى بسهم صائب النصل مقصد
لأوردها في نصره كل مورد
بسبعين فيهم كل أشأم أنكد
ولا وأبي ما سيدان كسيد

فأبو فراس ما زال رغم الأسر يرى في نفسه الفارس الشجاع الذي لا يمكن الاستغناء عنه ، ومما يدل على ذلك : بطولاته الماضية التي يعلمها ابن عمه

(١) ديوان أبي فراس ٩٧/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٨٠/٢ .

تمام العلم^(١):

ألم تر أني فيك صافحتُ حدّها
يقولون (جنّب) عادة ما عرفتها
فقلتُ : أما والله لا قال قائلٌ
ولكن سألقاها فيما منيةٌ
وفيك شربت الموت غيرَ مصرّدٍ
شديد على الإنسان ما لم يعودِ
شهدتُ له في الحرب ألامَ مشهدِ
هي الظنّ أو ببيان عزّ موطدِ

فالشاعر يرى في نفسه ذلك البطل الذي لا يرضى بالنهاية الذليلة ، غير أنه لا يرضى
لنفسه البقاء في الأسر وله ابن عمّ كسيف الدولة^(٢):

وما أدعي ما يعلم الله غيره
وأفعاله للراغبين كريمة
ولكن نبا منه بكفي صارمٌ
وأبطأ عني والمنايا سريعةٌ
فإلا يكن وُدّ قديمٍ عهدتُهُ
فأحوط للإسلام أن لا يُضيعني
رحابُ (علي) للعُفاةِ رحابُ
وأمواله للطالِبين مُهابُ
وأظلم في عينيّ منه شهابُ
وللموت ظفرٌ قد أطلّ ونابُ
ولا نسبٌ بين الرجال قُرابُ
ولي عنه فيه حوَطةٌ ومنابُ

تظهر في الأبيات السابقة الصورة الحقيقية للفارس المسلم المجاهد الذي يضع أمام
عينيه الحرص على الإسلام ، فلا يهتم إلا به وبنصرته رغم ما هو عليه من ذلّ الأسر
وقيوده .

ثم أخذ الشاعر يعبر عن حبه ورضائه على ابن عمه رغم ما أصابه منه ، ومن ذلك
يقول^(٣):

أمن بعد بذل النفس فيما تُريده
فليتك تحلو والحياة مريرةٌ
وليت الذي بيئي وبينك عامرٌ
أثابُ بمرّ العتبِ حين أثابُ
وليتك ترضى والأنام غضابُ
وبيئي وبين العالمين خرابُ

(١) ديوان أبي فراس ٨١/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٣/٢ .

(٣) السابق ٢٤/٢ .

إذا نلتُ منك الودَّ فالكلَّ هينٌ وكلّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ
فيا ليت شربى من وداك صافياً وشربي من ماء الفراتِ سرابُ

وعندما اشتدَّ عليه المرض وهو في الأسر راح يعلو بصوته إلى سيف الدولة وقد استبدل العليل بلقب الأسير ، لعلَّ هذه الكلمة يكون لها وقعٌ مختلف في نفس ابن عمه ، ثم أخذ الشاعر ينظر إلى من تأثر بفقده ، فكان في مقدّمهم الضيوف الذين كانوا يأوون إلى بيته ، وبكى لفراقه أبناء السبيل ، وله أيضاً وحشة ومكانة في الحروب عند الخيول ، ونظر الفارس إلى أدواته التي تعلق بها وتعلقت به ، فيراها في حال علته وعجزه عن خوض الحروب عليلة مثله لم تُعدّ تصلح للقتال والنزال ؛ وذلك لترابطهما معاً وتعلّقهما ببعض^(١) :

هل تعطفان على العليل لا بالأسير ولا القتيل !
باتت تقلّبه الأُكُفُ فُ سحابة الليل الطويل
يرعى النجومَ السائرا ت من الطلوع إلى الأفول
فقد الضيوف مكانه وبكاهُ أبناء السبيل
واستوحشت لفراقه يوم الوغى ، سربُ الخيول
وتعطّلت سُمرُ الرما ح وأُغمِدت بيضُ التّصول

ويصوّر الفارس نفسه من خلال تأمل أعدائه فيه ، فيقول^(٢) :

تأملني (الدمستق) إذ رأني فأبصر صيغة الليث الهمام
أئنكرني كأنك لست تدري بأني ذلك البطل المحامي
وأني إذ نزلت على (ذلوك) تركتك غير متصل النظام
ولمّا أن عقدت صليب رأبي تحلل عقد رأيك في المقام
وكنت ترى الأناة وتدعيها فأعجلك الطعان عن الكلام
وبت مؤرقاً من غير سُهدٍ حمى جفنيك طيب النومِ حام

(١) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٢١ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٧٢ وما بعدها .

وتعرض لهم بالهجاء ، وشبه نفسه بالسيف^(١) :

يريفون العيوب وأعجزتم	وأأي العيب يوجد في الحسام
وأصعب خطبة وأجل أمر	مجالسة اللئام على الكرام
أناجي كل طبل هرثمي	عريض الذقن بزاق الكلام
أبيت مبراً من كل عيب	وأصبح سالماً من كل ذام
إذا ظفرت يداك ظفرت منه	بلا ناب العزاء ولا كهام
ومن لقي الذي لا قيت هانت	عليه موارد الموت الرؤام
ثناء طيب لا خلف فيه	وآثار كآثار الغمام

فيرى أنه من شدة الأهوال التي واجهته هان الموت في نظره ، وليس أدل على ذلك من هجائه للروم في أرضهم ، فيقول^(٢) :

أتزعمُ يا ضخم اللغاديد أننا	ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا
فويلك من للحرب إن لم نكن لها	ومن ذا الذي يمسي ويضحى لها تربا
ومن ذا يلف الجيش من جنباته	ومن ذا يقود الشم أو يصدم القلبا
وويلك من أردى أخاك (بمرعش)	وجلل ضرباً وجه والدك العضبا
وويلك من خلّى ابن أختك موثقاً	وخلاّك (باللقان) تبتدر الشعبا
أتوعدنا بالحرب حتى كأننا	وإياك لم يعصب بها قلبنا عصبا
لقد جمعنا الحرب من قبل هذه	فكنا بها أسداً وكنت بها كلبا

ثم عدّد الشاعر - على مسامع عدوه - بعض الانتصارات ، وطلب منه التثبت من صحتها عن طريق سؤال كبار قواد الروم عنها ، ثم ما لبث أن عاد فوجه له سؤالاً يحمل في طياته كل أنواع التهكم والسخرية ، وذلك بقوله^(٣) :

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٧٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٣٦ وما بعدها .

(٣) السابق ٢/٣٦ وما بعدها .

ألم تُفَنِّهم قتلاً وأسراً سيوفنا وأسد الشرى الملامى وإن جمدت رعبا
بأقلامنا أوجرت أم بسيوفنا ؟ وأسد الشرى قدنا إليك أم الكُتبا

بل نراه يمعن في التهكم بالخصم ووصفه بالجبن ، وذلك عندما شبّه خصمه الذي يستر وجهه في التراب من شدة الخوف باليربوع ، فقال^(١) :

تركناك في بطن الفلاة تجوبها كما انتفق اليربوع يلتثم الترابا
تفاخرنا بالطعن والضرب في الوعى لقد أوسمتكَ النفس يابن استها كذبا
رعى الله أوفانا إذا قال ذمّة وأنفدنا طعناً وأثبتنا قلبا
وجدتُ أباك العالج لما خبرته أقلكمُ خُبراً وأكثركم عجبا

يرد الشاعر الفارس بما جادت به قريحته من أبيات تدلّ على شجاعة متأصلة في النفس ، وعزّة تظهر بأبسط أنواع الجهاد ، وهو القول الذي كان السلاح الوحيد الذي يتحلى به الفارس في أسره ، وقد أبدع الفارس في استخدام هذا السلاح ، فجعل منه أداة فاقت كلّ أدوات القتال المشهورة ، ووسيلة للردّ على من يستهينون بما عُرف عن العرب من شجاعة وفروسية ، فحاربه بشعره الذي لم يكن ليقال عفو خاطر ، وإنما جعل منه شعراً حربياً قائماً على الحجّة والبراهين ، حتى يعلم خصمه الخطأ الفادح الذي وقع فيه ، فنجدّه يستهلّ قصيدته بكلمة (أتزعم) ، وهذه الجملة لها دلالة عميقة في نفس الشاعر ؛ لما فيها من الافتراء الباطل على العرب .

فقد استطاع الشاعر أن يرسم أروع صورهِ للفارس الشاعر الذي يجعل من شعره وسيلة للردّ على غارات العدوّ القولية الكاذبة بغارات قولية صادقة لها وقع في نفس كلّ من يسمعها ، وبذلك استطاع بشعره أن يمجّد البطولة ويبرزها على أكمل وجه وأبلغ مقال . فهو الفارس الذي لا يرضى أن يُنسب إلى غير الفروسية ، وأنكر أن يكون من الشعراء ، رغم أنه من أبرزهم ، فهو يريد أن تثبت له صنعة واحدة ، وهي ضرب السيف ، فكيف به اليوم وهو في الأسر بسبب فروسيته - التي أبت عليه الفرار - أن

(١) ديوان أبي فراس ٣٨/٢ .

يرضى بأن يكون من الكتاب ؟.

كما رسم الشاعر صوراً جميلة للفارس تمثلت في أثناء مخاطبته لسيف الدولة ، حيث جعل منه سيف الهدى وسيد العرب ، الكريم ، الحليم ، العطوف .. واستمر عرض الصور المتلاحقة لسيف الدولة ، فهو الجبل الشامخ لقومه وللعرب جميعاً ، منه يستمدون علاهم وعزهم^(١) :

وَإِنَّكَ لِلْجَبَلِ الْمُشْمَخِ رُّ لِي بِلْ لِقَوْمِكَ بِلِ الْعَرَبِ
عَلَى تُسْتَفَادُ وَعَافٍ يُفَادُ وَعِزُّ يُشَادُ وَنُعْمَى تُرَبِ
ثم يعاتبه قائلاً^(٢) :

وَمَا غَضَّ مَتَّى هَذَا الْإِسَارُ وَلَكِنْ خَلَصْتُ خُلُوصَ الذَّهَبِ
فَفِيمَ يُعْرِضُنِي بِالْخُمُو لِ مَوْلَى بِهِ نَلْتُ أَعْلَى الرَّتَبِ

فيتعجب الشاعر كيف ينسب إليه الخمول وهو الفارس المعلوم ، القادر على رد تلك التهم عنه ، ولم يمنعه من ذلك إلا مكانة ابن عمه لديه ، ثم أخذ يستمر في عتابه ، ونسب أي نقص يعتريه إلى معلمه الحقيقي الذي طالما تغنى بطولته وعدد أفعاله^(٣) :

فَلَا تَنْسِبَنَّ إِلَيَّ الْخُمُولَ أَقَمْتُ عَلَيْكَ فَلَمْ أَغْتَرِبْ
وَأَصْبَحْتُ مِنْكَ فَفَضْلٌ يَكُونُ وَإِنْ كَانَ نَقْصٌ فَأَنْتَ السَّبَبُ

ثم أخذ يتساءل عن سبب هذا النكران ، ويتعجب منه ؛ لأنه لا يرى في نفسه إلا ذلك الفارس الكامل من النقص ، فهو من أسرة سيف الدولة من دار كرام ، ومحل حصين ، ونفس أبيية لا تكبر على سيدها^(٤) :

وَإِنَّ (خُرَاسَانَ) إِنْ أَنْكَرَتْ عَلَايَ فَقَدْ عَرَفْتَهَا (حَلَبُ)

(١) ديوان أبي فراس ٢٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٦/٢ .

(٣) السابق ٢٧/٢ .

(٤) نفسه ٢٧/٢ .

وَمِنْ أَيْنَ يُنْكَرُنِي الْأَبْعَدُونَ أَمِنْ نَقْصٍ جَدًّا أَمِنْ نَقْصِ أَبٍ ؟
 أَلَسْتُ وَإِيَّاكَ مِنْ أَسْرَةٍ وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ قُرْبُ التَّنَسُّبِ !
 وَدَارٍ تَنَاسَبُ فِيهَا الْكَرَامُ وَتَرِييَةٌ وَمَحَلُّ أَشْبَابِ
 وَأَنْصِفُ فَتَاكَ فَإِنْ صَافَهُ مِنْ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ الْمَكْتَسَبِ

فقد أظهر أبو فراس في الأبيات السابقة مودّةً وحبًّا لسيف الدولة ، على الرغم من خذلانه له ، فهو ما يزال الفتى الشجاع ، الحريص على إرضاء قائده .

واستمرّ أبو فراس في إظهار الحبّ والرغبة في القرب من سيف الدولة ، فنراه يلتجئ إلى الله تعالى بقوله^(١):

يَا فَارِجَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ مِ ، وَكَاشِفَ الْخَطْبِ الْجَلِيلِ
 كُنْ يَا قَوِي لَذَا الضَّعِي فِ ، وَيَا عَزِيزُ لَذَا الذَّلِيلِ
 قَرِّبْهُ مِنْ (سَيْفِ الْهُدَى) فِي ظِلِّ دَوْلَتِهِ الظَّلِيلِ !
 أَوْ مَا كَشَفْتَ عَنْ (ابْنِ دَا وَدِ) ثَقِيلَاتِ الْكُبُولِ

فقد أظهر الشاعر من خلال الأبيات السابقة صورة الفارس المؤمن الصبور الذي يعلم أنّ كل ما يصيبه في هذه الدنيا بيد الله عَزَّ وَجَلَّ ، وأنه القادر على كشف هذه الغمة عنه ، والشاعر على علم ويقين من أنّ ابن عمه قادر على فكّ أسرهِ ، فهو الفارس القائد الذي اعتاد فكّ الأسرى^(٢):

وَقِيلَ لَهَا (سَيْفُ الْهُدَى) قَلْتُ إِنَّهُ لَيَفْعَلُ خَيْرَ الْفَاعِلِينَ وَيُكْرِمُ
 أَمَا انْتِاشَ مِنْ مَسِّ الْحَدِيدِ وَثَقْلِهِ (أَبَا وَائِلٍ) وَالْبَيْضُ فِي الْبَيْضِ تَحْكُمُ
 تَجْرُ عَلَيْهِ الْحَرْبُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَلَا ضَجْرَ جَافٍ ، وَلَا مُتَبَرِّمُ
 أَخُو عَزَمَاتٍ فِي الْحُرُوبِ إِذَا أَتَى أَتَى حَادِثٌ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ مُبْرَمُ
 وَتَرْمِي بِأَمْرِ لَا تُطِيقُ احْتِمَالَهُ إِلَى قَرْمِنَا وَالْقَرْمُ بِالْأَمْرِ أَقْوَمُ

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٨٨ وما بعدها .

إلى رجلٍ يُلَقَّكَ في شخصٍ واحدٍ ولكنَّهُ في الحربِ جيشٌ عَرَمَرَمٌ

ففرى الشاعر يعدد صفات ذلك القائد الذي قصده، ويبرز صوراً متعدّدة من فروسيته ، فهو السيد العظيم الذي تتوالى عليه الحروب ، ولا يتضجر من كثرتها ، فهي من قضاء الله عليه ، وهو الصبور الحليم ، القادر على مواجهة المصائب والصعاب التي يعجز عنها غيره ، وهو الفارس الذي يتحول وقت الحرب إلى جيش عظيم من شدّة شجاعته وقوّة صلابته .

ولا عجب أن ينال سيف الدولة تلك المحبة الصادقة من أبي فراس ، فهو عنده بمثابة والده ، يقول في ذلك^(١) :

قد كنتَ عُذَّتِي التي أسطو بها ويدي إذا اشتدَّ الزَّمانُ وساعدي
فرميتُ منكَ بغيرِ ما أملتُهُ والمَرءُ يشرقُ بالزُّلالِ الباردِ
لكن أتتْ دُونَ السُّرورِ مساءً وصَلتْ لها كَفُّ القَبولِ بساعدِ
فصبرتُ كالوَلَدِ التَّقِيِّ ؛ لَبَرِّهِ أغفى على أَلَمِ لَضْرِبِ الوَالِدِ

ويتعجب الشاعر من كثرة من يلومه على الأسر ، فيقول^(٢) :

تكاثر لُوّامي على ما أصابني كأن لم تنب إلا بأسري النوائبُ
يقولون : (لم ينظر عواقب أمره) ومثلي من تجري عليه العواقبُ
ألم يعلم الذلان أن بني الوغى كذاك سليب بالرماح وسالبُ
أرى ملء عيني الردى فأخوضه إذ الموتُ قدامي وخلفي المعائبُ

بل يرى أن من يعيون عليه ويلومونه هم الأولى بذلك ؛ لكثرة معائبهم ، فيقول^(٣) :

وإن وراء الحزم فيها ودونها مواقف تنسى دونهنّ التجاربُ
رجال يذيعون العيوب وعندنا أمورٌ لهم مخزونةٌ ومعائبُ
ومن شرفي أن لا يزال يعيبي حسودٌ على الأمرِ الذي هو عائبُ

(١) ديوان أبي فراس ٧٣/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣١/٢ .

(٣) السابق ٣١/٢ .

رمتني عيون الناس حتى أظنّها
ويرجون إحراز العلا بنفوسهم
ستحسدني في الحاسدين الكواكبُ
ولم يعلموا أنّ المعالي مواهبُ
فكم يطفئون المجد والله موقدُ
وكم ينقصون الفضل والله واهبُ

ثم يعقب على أنّ ما هو فيه من قضاء الله عليه ، وأنّ أدوات الفارس لا تعينه إذا قدر الله له الأسر^(١) :

وهل يدفع الإنسان ما هو واقعُ
وهل لقضاء الله في الخلق غالبُ
وهل يعلم الإنسان ما هو كاسبُ
وهل لقضاء الله في الخلق هاربُ ؟
ولا سابقُ مما تخيلت سابقُ
فلا الدرعُ متاعٌ ولا السيف قاضبُ
ولا صاحبٌ مما تخيرت صاحبُ

ويرى أن شعره عاجزٌ عن تصوير ما بداخله من محبةٍ لسيف الدولة وعتابه^(٢) :

عليّ (لسيف الدولة) المَلِكِ أنعمُ
أأجدهُ إحسانه بيّ إني
أوانسُ لا ينفرنَ عني ربائبُ
لكافرُ نعمي إن فعلتُ مُواربُ
لعلّ القوافي عُقنَ عما أريده
فلا القولُ مردودٌ ولا العذرُ ناضبُ

ويقول مصوراً صبره^(٣) :

وقورٌ وأحداث الزمانِ تنوشني
وللموتِ حولي جيئةٌ وذهابُ

ثم توجه إلى قومه بقوله^(٤) :

ولو عرفوني حقّ معرفتي بهم
وما كلّ فعالٍ يجازي بفعله
إذاً علموا أنّي شهدتُ وغابوا
ولا كلّ قولٍ لديّ يُجابُ
ورُبّ كلامٍ مرّ فوق مسامعي
كما طنّ في لوحِ الهجيرِ ذبابُ

(١) ديوان أبي فراس ٣١/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٣٢/٢ .

(٣) السابق ٢٢/٢ .

(٤) نفسه ٢٢/٢ .

إلى الله أشكو أننا بمنازلٍ تحكّم في آسادهنّ كلابُ

ففي الأبيات السابقة يوضح الشاعر الأسير لقومه أن أصبح على علم تامّ بأنهم لم يعرفوا له قدره ومكانته لذلك ، قرر أن يعاملهم بنفس المعاملة ، فكما أنهم لم يهتموا لأمر أسره والإسراع إلى خلاصه ، فلن يهتمّ هو بكلامهم .

ثم عاد الشاعر إلى قومه طارحاً عليهم تساؤلاتٍ عدّة بقوله^(١):

بني عمّنا لا تنكروا الودّ إنّنا شداذٌ على غير الهوانِ صِلابُ
بني عمّنا نحن السواعد والطّبا ويوشكُ يوماً إن يكون ضرابُ
وإن رجلاً ما ابنهم كابنٍ أختهم حريون أن يُقضى لهم ويهابوا
فمن أيّ عذرٍ إن دعوا ودُعيتُم أبيتُم بني أعماننا وأجابوا

فالشاعر يذكرهم بقوة الرابطة التي تجمعهم بهم ، فهم مثل السواعد له ، وهو كالسيف لهم ، فشبه نفسه بأدوات الحرب التي لا يمكن الاستغناء عنها ؛ لعلمه بمقدار حبّهم لها .

ولم يشعر أبو فراس في الأسر بذلّ المهانة الجسدية ، وإنما هي مهانة نفسية لا يرضى أن يعيشها الفارس ، والدليل على ذلك أنّه عندما أكرمه الروم ، لم يرضَ بهذه الكرامة لنفسه دون غيره من المسلمين ، بل أشار على الروم بالفداء ، فقال في ذلك^(٢):

ولله عندي في الإسارِ وغيره مواهبٌ لم يُخصص بها أحدٌ قبلي !
حللتُ عقوداً أعجزَ الناسَ حلّها وما زالَ عقدي لا يُذمُّ ولا حلّي
إذا عاينتني الرومُ كَفَر صيدها كأنهم أسرى لديّ وفي كبلي
وأوسعُ أيّاً ما حللتُ كرامةً كأنّي من أهلي نُقلت إلى أهلي
فقل لبني عمي وأبلغ بني أبي بآتي في نعماء يشكرها مثلي
وما شاء ربي غير نشرٍ محاسني وأن يعرفوا ما قد عرفتُ من الفضلِ

نلاحظ على الشاعر حالة التناقض التي يعيشها ، فهو بعد أن كان يشكو من الأسر وما

(١) ديوان أبي فراس ٢/ ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٢٤ .

أصابه فيه ، أصبح يمدح ذلك المصاب ، حتى إنه جعله سبباً في نشر فضائله .
ولأسامة أبيات رائعة يصوّر فيها الأسير بصورة جعلت منه إنساناً مميزاً عن غيره .
يقول في محبوس^(١):

حبسوك والطيرُ النواطقُ إنما حبستَ لميزتها على الأندادِ
وقمبيوك وأنت مودعُ سجنهم وكذا السيوفُ تُهابُ في الأغمادِ
ما الحبسُ دارُ مهانةٍ لذوي العلاء لكنه كالغيلٍ للآسادِ

فقد جعل أسامةُ المحبوس فريداً بين أقرانه ، مثل الطيور النواطق التي تفقد حرقتها ، ليس لعيبٍ فيها ، وإنما لما اتصفت به من صفاتٍ ميّزتها عن غيرها ، وكذلك هو شجاع يهابه الأعداء داخل السجن كما يهاب السيف في الغمد ، فجعل الأسير كالسيف ، والسجن غمداً له ، ثم ختم ذلك بنفي المهانة عنه ؛ لأنه من أصحاب العلاء ، وإنما الحبس له كالغيل للآساد ، فهو مكان راحة وظلّ ظليل لأسد شجاع .

كما تكلم أسامة عن شبيهه وكأنه أسير ، فيرى في الشيب أسراً للفراس ، فهو مقيد بلا قيود ، قيده الكبر والعجز ، حتى إنه ليعذر عصاه عن عدم حملها له ، بقوله^(٢):

إن ضعفتُ عن حملِ ثقلي رجلي وربّني عثارُها في السهلِ
أمشي كما يمشي الوجي في الوحلِ مشيَ الأسيرِ مُثَقَّلاً بالكبلِ
فللعصا عندي عُذرُ المُبلي إن عجزتُ أو ضعفتُ عن حملي

فالشاعر وإن لم يعيش تجربة الأسر الحقيقية ، فقد عاش الأسر المعنوي بسبب كبر سنّه .
وقد عانى أسامة من مرارة الأسر في فقدته أحاه نجم الدولة ، فنظم أبياتاً يطلب فيها فداء أخيه المأسور ، وهي أبيات تكاد تتقارب مع أبيات أبي فراس لابن عمه .

" وقال : وكتب بها إلى ابن عمه الأمير ناصر الدين تاج الدولة أبي عبد الله محمد بن سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ - رحمه الله - ، يستعينه في فكك أخيه نجم

(١) ديوان أسامة ، ص ٣١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .

الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد بن علي من أسر الفرنج ، وكان أسر في طريق مصر ، وقد خرج معهم في خروجهم مع الأفضل ابن عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وزير مصر يومئذ والسلطان بها^(١) :

يا ناصر الدين يابن الأكرمين ومن
ومن حوى السبق في فضل وفي ورع
أنت العيُّ على ما فيك من لسن
تولي الجميل بلا من تكدره
هذا ابن عمك في أسر الفرنج له
يدعوك لا بل أنا الداعي نذاك له

يُغني ندى كفه عن وابل الديم
وفي عفاف وفي دين وفي كرم
عن (لا) وأفصح خلق الله في (نعم)
لا كدر الله ما أولاك من نعم
حول تجرم في الأغلال والظلم
يا خير من علقته كف معصم

" ما أجمل موقع هذا النفي والإضراب (لا بل أنا الداعي) ، أسامة الداعي ذلك الفارس الذي مضى له تأريخ حافل بالمكرمات وخدمة لا تجحد ، هو الذي يدعوك لفك أسيره ، ومن أسيره ابن عمك وفارس من فرسان بني منقذ"^(٢) .

كما يستمر الشاعر في استعطافه ، فيقول^(٣) :

وأنت أكرم من تشبه عاطفة الـ
ومن تكن أنت مولاه وناصره
لا تحوجني إلى من الرجال فما
ولا تظنني أدعو سواك ولا
علام أرتشف الرنق الأجاج وقد
أنا ابن عمك فاجعني بفك أخي
فملك مثلي لا يغلو بما بذل الـ

قُربى ويرجوه للجللى ذوو الرحم
فكيف تسطو عليه كف مهضم
حمل الأيادي وإن أعسرت من شيمي
يفوه مجتدياً إلا إليك فمي
رويت كل صد من بحرك الشيم
من أسره لك عبداً ما مشت قدمي
مبتاع فيه ولا يُستام بالقيم

(١) ديوان أسامة ، ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية ، تأليف : جمال الدين الألويسي ، مطبعة أسعد ، بغداد ، د.ط ،

١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ، ص ٦٦ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ١٩٩ .

فلم يجرّكه الشعر ، ولا سعى في خلاصه ، ولا أعان عليه ، وادّخر الله تعالى أجر خلاصه وحسن ذكره للمولى الملك العادل نور الدين - أدام الله أيامه - ، فوهبه فارساً من مقدمي الداوية ، يقال له المشطوب ، قد بذل الفرنج فيه عشرة آلاف دينار ، فاستخلص به أخاه من الأسر" (١).

صورة الفارس العاجز :

فكما كان الأسر سبباً في إبداع أبي فراس الشعري ، كانت الغربة وكذلك المشيبُ مصدرَ إلهام لأسامة ، فله أبياتٌ رائعةٌ يتحسّر فيها على ماضيه مثلما فعل أبو فراس في أسره . يقول مخاطباً أباه (٢) :

أظنّ العدا أن ارتحالي ضائري	ضلالاً لما ظنوا وهل يكسُدُ التبرُّ
وما زادني بُعدي سوى بُعدِ همّة	كما زاد نوراً في تباعده البدرُ
ولو كان في طولِ الثواءِ فضيلةً	لما انتقلتُ في أفقها الأنجمُ الزهرُ
ولو لزمت أغمادها البيضُ ما انجلتُ	بها غمراتُ الحربِ واتضح النصرُ

فقد أظهر أسامة بُعده عن موطن القتال بصورة قريبة الشبه من أبي فراس الذي يرى أن قومه في حاجة له ، فهو مثل البدر المفقود في الليلة المظلمة ، ولكن مع مبالغة يسيرة من أسامة ، حيث إنّه يرى في نفسه ذلك البدر البعيد الذي كلّما ابتعد ازداد نوراً ، فغربته لم تنقص من شأن ذلك الفارس المعهود ، وإنما زادت نوراً . وأخذ الشاعر يسوق المبررات والدلائل ، على أن البعد والترحال لا ينقص من قدره ، ويذكرهم ببطولاته المشهودة (٣) :

وهل يُنكر الأعداءُ فضلي وإنه	لأسيرُ ذكراً أن يواريه الكفرُ
ألستُ الذي ما زال كهلاً ويافعاً	له المكرماتُ الغرُّ والنائلُ الغمرُ
وخائض وقعاتٍ بوارقها الطبا	ووابلُ هاتيك البروقِ دمٌ همرُ
يهولُ الردى منّي تفحّمي الردى	ويعتاده من جأشي الرابطُ الذعرُ

(١) ديوان أسامة ، ص ١٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(٣) السابق ، ص ٢٥٠ . ويظهر الشاعر في هذا البيت مقدرته على ضرب الأمثال من الحقب التاريخية .

ولو حكمتُ بيني وبينهمُ الطبا
ولكن تولى الحاكمان قضاءنا
رضيتُ بما تقضي المهتدة البُتْرُ
فكان أبو موسى لنا ولهمُ عمرو
وشبه نفسه بالشمس بقوله^(١):

إن كنتُ في مصرَ مجهولاً وقد شُهرتُ
فما على الشمسِ من عارٍ تُعابُ به
فضائلي بين بدو الناسِ والحضرِ
إذا اختفى ضوءها عن غيرِ ذي بصَرِ

فقد أبدع أسامة في إظهار تميزه وشهرته الواسعة أكثر من أبي فراس ، الذي اكتفى بأن يكون سببَ جهل الناس به في خرسان بسبب ابن عمه ، فصدمة به ألجمت لسانه بأن يتعالى بفخره المعهود ، بخلاف أسامة الذي بُعد عن موطنه قرّبه من الحكّام والقواد .

غير أنّه اشترك معه في التعبير عن المعاناة^(٢):

واستخبرت عني فقلت لها امرؤُ
نبت الديارُ به وضاقَ فسيحُها
نائي المواطن من كرامِ الشامِ
عنه ففارقها بغيرِ ملامِ

يلاحظ من حوار أسامة القبول والرضا بهذه الغربة رغم مرارتها ، لاسيما أنه يشعر أنّ في بقاءه مذلة له^(٣):

ولستُ آسى على الترحال عن بلدٍ
تعلقت بجمال الشمس منه يدي
[شهب البزاة سواء فيه والرخم]^(٤)
ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم

" ومهما يكن من أمر ، فإن أسامة اتكأ في إبراز ذاته وفرض وجوده في غربته على ثلاث وسائل تجلّت في شعره بوضوح ، وهي : إباؤه واعتزازه بنفسه ، وشجاعته في ميادين

(١) الديوان ، ص ٢٩٩ .

(٢) العصا ، ص ٤٥١ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ١٩٨ .

(٤) البزاة : جمع بازي ، وهو نوع من الصقور الصائدة ، والرخم : جمع رخمة ، وهي طائر أبقع على شكل النسر حلقةً ، إلا أنه مبقع بسواد وبياض ، موصوف بالعدر . وهذا الشطر مقتبس من المتنبي .

القتال ، ثم جلده وصبره على الشدائد والمصائب " (١).

وبهذا يشترك أسامة مع أبي فراس في لجوئه إلى الفروسية في شعره وقت المصائب والأزمات ، خصوصاً أنّ فروسيتهما هي سبب معاناتهما الحقيقية ، حيث كانت فروسية أسامة سبباً في غربته ، فعندما رأى عمه شجاعة أسامة وإخوته ، أصرّ على إخراجهم من شيزر ، لاسيما بعد وفاة والدهم ، يقول أبو شامة : " ... وكان الأمر فيه في حياة مرشد بعض الستر ، فلما مات سنة (٥٣١هـ) قلب أخوه لأولاده ظهر الجحش ، وبادأهم بما يسوؤهم ، وتمادت الأيام بينهم ، إلى أن قوي عليهم فأخرجهم عن شيزر " (٢).

ومثلما كان الأسر خيراً على شعر أبي فراس كانت الغربة خيراً للأسامة ، فلولا غربته لمات مع من مات من أهله في الزلازل ، ولم يظهر لنا ذلك الشعر والمؤلفات القيمة التي تفرغ لها في آخر حياته .

غير أنّ أسامة يراها سبباً في شقائه وتعاسته إنساناً ، فيقول (٣) :

شقيت بما أحرزته من فضائل بأيسرها يحظى الشقيّ ويسعدُ

ومن تحسّر أسامة على ماضيه المشرق ، قوله (٤) :

انظر إلى صرفٍ دهري كيف عودني بعد المشيبِ سوى عاداتي الأولِ
وفي تغايرٍ صرفٍ الدهرِ معتبرٌ وأيِّ حالٍ على الأيامِ لم تحلِ
قد كنتُ مسعراً حربٍ كلما خمدتُ أضرمتها باقتداحِ البيضِ في القلِّ (٥)
همي منازلُ الأقرانِ أحسبهم فرائسي فهمُ منّي على وجلِ
أمضى على الهولِ من ليلٍ وأهجمُ من سيلٍ وأقدمُ في الهيجاءِ من أجلِ

(١) الغربة في شعر أسامة ، ص ٩٥ .

(٢) الروضتين ١/ ٢٨١ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٥) القل: الجماعات من الناس ، والقلة - بالضم - : أعلى الرأس ، والجمع قلل . والبيض : السيوف .

فصرتُ كالغادةِ المكسالِ مضجعها على الحشايا وراء السَّجفِ والكللِ
قد كدتُ أعفنُ من طولِ الثواءِ كما يُصدى المهندُ طولُ المكثِ في الخللِ

يدعو الشاعر إلى التأمل في حاله وكيف تغيّرت حياته ، بعد أن كان مشعل الحروب وموقدها كلما خمدت بضرب الرقاب بالسيوف ، وليس له هم سوى منازل الأبطال مثله الذين هم رغم شجاعتهم ، يخشونه ويخافون من مواجهته ؛ لأنه عند القتال يتحول إلى وحشٍ ضارٍ ينقضُّ على فريسته ، وهو الشجاع الذي يقتحم الأهوال بالليل ؛ لأنه الوقت الذي يخشاه الجبان ، كما يتميز عند الهجوم بقوة شديدة أقوى من اندفاع السيل ؛ وذلك لأنه وقت الحرب يقدم على الموت ولا يخشاه . أما الآن فقد تغيّرت تلك الحياة البطولية التي كان يتلذذ بها ، وأصبح كالفتاة الناعمة التي لا تبرح بيتها ، بعد أن كان في كفاح متواصل وحركة مستمرة ، ركنَ إلى الراحة مجبراً ، حتى إنه أصبح يخشى على نفسه أن يتعفن من طول البقاء بلا كفاح وجهاد ، كما يصدأ السيف إذا بقي طويلاً في غمده . والربط بين صورة حالته وصورة السيف هي محاولة من الشاعر لتصوير عمق المأساة التي يعيشها ، فهو يعلم أنه من المحال أن يعود إلى سابق عهده ، كما أنه من المحال أن يستخدم الفارس السيف التالف في المعارك .

فالشاعر يعبر عن أسفه لما حلَّ به ، لذلك يذهب في القصيدة إلى أشدّ من ذلك حينما يشكو من حياة الرفاهية التي عاشها بمصر^(١) :

أروح بعد دروع الحربِ في حُللٍ من الدَّبِيقِ^(٢) فبؤساً لي وللحُللِ
وما الرفاهةُ من رأيي ولا أربي ولا التّنعم من همّي ولا شُغلي
ولستُ أهوى بلوغَ المجدِ في رفهِ ولا العُلا دُونَ حَظِّمِ البيضِ والأسلِ

فهو يتعجب من نفسه كيف يستبدل بدروع الحرب حلل الأُمراء ، وهو الفارس الذي قضى حياته ولم يشغل نفسه بالرفاهية ، ولم يجد في طلبها ،

(١) ديوان أسامة ، ص ٣٠٥ .

(٢) الدبّيق : بلد بمصر ، منها الثياب الدبّيقية .

ولا يرضى ببلوغ المجد فيها ، وإنما يبلغ العلا بسيفه ورمحه؟! .

وكما أظهر أبو فراس تحسره على ماضيه ، أظهر أسامة ذلك التحسر في قوله^(١) :

قد كان كفي مألفاً لمهتدٍ تُعري القلوبُ له وتفري الهامُ
ولأسمر لذن الكعوب وجاره حيث استمرّ الفكرُ والأوهامُ
تنزايلاً الأبطال عني مثلما نفرت من الأسد الهصور نعامُ
فرجعتُ أحمل بعد سبعين العصا فاعجب لما تأتي به الأيامُ

فقد كان صاحب الكف الشجاع الذي اعتاد حمل السيوف والرماح التي لها أفعال عجيبة في أجساد الأعداء ، والفارس الذي يتجنب الأبطال قتاله وينفرون من مواجهته كما ينفر النعام من الأسد ، أما الآن فيتعجب من حاله وقد أصبح بعد أن تجاوز السبعين يحمل العصا ، فما أعمق معاناته وما أشدها ، لاسيما وهو يشعر بالموت البطيء الذي أخذ يدهمه ، وأول ما انتزع منه تلك القوة الجسدية التي تمنى الشاعر أن تموت معه في ساحات المعارك .

وقد حاول الشاعر الفارس مقاومة ذلك العدو الذي أخذ يغزو جسمه ، إلا أن استسلم له ؛ لأنه على علم أن هذا من قضاء الله عليه ، يقول الدكتور عمر باشا : " نيف الشاعر على السبعين من عمره ، وغدا غير قادر على غزو الفرنجة ، ولكنه مع ذلك كان يتحامل على نفسه أحياناً ، وقد ذكر أنه ركب مع نور الدين ، واشترك معه في حصار قلعة حارم ، ويظهر أنها آخر مرة يشترك فيها بحرب ، صور أسامة حاله في هذا العام"^(٢) ، فقال^(٣) :

كم قد شهدت من الحروب فليتنى في بعضها من قبل نكسي أقتلُ
والقتلُ أحسنُ بالفتى من قبل أن يلى ويُفنيه الزمانُ وأجملُ
وأبيك ما أحجمتُ عن خوض الردى في الحرب يشهدُ لي بذلك المنصلُ
وإذا قضاءُ الله أخّرني إلى أجلي المؤقتِ لي فماذا أعملُ

(١) ديوان أسامة ، ص ٣٢٢ .

(٢) أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ، ص ٢٨١ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٣٢٠ وما بعدها .

وأخذ الشاعر يستمرّ في رثاء شبابه الزائل ، ويعبر عما حلّ به مع إقبال السبعين عليه ،
التي كثيراً ما ردّدها في شعره ، فنراه يخشى على ابنته فروة من اليتيم ، فيقول^(١) :

لما تخطّتي السبعون معرضةً وساور الضعفُ بعد الأيدِ أركاني
وأدخلت كان في شكري وفي صفتي واسترجع الدهرُ ما قد كان أعطاني
رُزقت فروةً والسبعون تُخبرها أن سوف تيّتم عن قُربٍ وتنعاني
وهي الضعيفة ما تنفك كاسفةً ذليلةً تمثري دمعي وأحزاني
ما كان عمّا ستلقاه وعن جزعي لما ستلقاه أغناها وأغزاني

وفي هذه الأبيات مفارقة بينه وبين أبي فراس ، فقد طلب أبو فراس من ابنته أن لا
تحزن ، بقوله^(٢) :

أبنيّتي لا تحزني كلُّ الأنامِ إلى ذهابِ
أبنيّتي صبراً جميلاً لاً للجليلِ من المصابِ
نُوحِي عليّ بحسرةٍ ! من خلفِ ستركِ والحجابِ !
قُولي إذا ناديتني وعييتُ عن ردِّ الجوابِ
زينُ الشّبابِ (أبو فراس) (س) لم يُمتّع بالشّبابِ

فهو فارس إقباله على الموت أرخص - في نظره - من الحياة ، فرثى نفسه على الرغم
من صغر سنّه . أما أسامة - وهو الفارس أيضاً - فلم يتعرض لرثاء نفسه إلا عندما عانى من
الكبر والعجز ، وخشي على ابنته - التي لم يرزق بها إلا في السبعين - من اليتيم ، فهو يرثي
فروسيته الزائلة ويُتم ابنته معاً .

وتعجب أسامة من حمله للعصا في هذه السنّ التي ما إن بلغها حتى تكالبت عليه الهموم
والأوجاع ، وأهمّ ما أهمّه هو تركه للحرب الذي كان يليها بالطعن والضرب^(٣) :

(١) ديوان أسامة ، ص ٣٢٤ .

(٢) ديوان أبي فراس ٤٧/٢ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٥٨ .

رجلايَ والسبعون قد أوهنتُ
وكنتُ إن ثوبَ داعي الوغي
أشقُّ بالسيفِ دُجى نفعها
أنازلُ الأقرانَ يُردِيهم
فلم تدعُ مني الليالي سوى
قُويَ عن سعيي إلى الحربِ
لبيته بالطَّعنِ والضَّربِ
شقَّ الدِّياجي مرسلُ الشهبِ
من قبلِ ضربي هَامهم رُغبي
صبري على الأواءِ والخطبِ

فقد أصبح عاجزاً عن خوض الحروب التي كان يسرع إليها بسيفه وينازل الأبطال في ساحاتها فيموتون رعباً قبل مواجهته ، غير أن ما يخفف عليه الآن تلك المعاناة هو الصبر الذي يلازمه .

وعندما يتأمل الفارس العاجز نفسه ، ويرى تقوس ظهره ، فلا يجد له شبيهاً في منظره سوى أدواته التي تعود على حملها ، وصاحبته في مشواره البطولي ، فيرى في ظهره القوس ، والعصا هي الوتر^(١) ، أي أن القوس إذا كان الوتر يشدها ويقو بها فإن الذي يقوي الشاعر العصا التي يتكى عليها .

إذا تقوس ظهر المرء من كبرٍ
فالموتُ أروح آتٍ يستريحُ بهِ
فعادَ كالقوسِ يمشي والعصا الوترُ
والعيشُ فيه له التعذيبُ والضَّرُّ

وقد عانى أسامة من شماتة الأعداء مثلما عانى أبو فراس ، فرأى في نفسه ذلك السيف الذي فلل حده منازلة الأعداء^(٢) :

تظاهر قومٌ بالشماتِ جهالةً
وهل أنا إلا السيفُ فلل حده
وكم إحنة في الصدر أبرزها الجهلُ
قراعُ الأعادي ثم أرففه الصقلُ
ويقول :

أسفي على عصر الشبابِ تصرمتُ
لم أبكه أسفاً على مرحِ الصبا
أيامه لا بل على أيامي
ووصال غانيةٍ وشرب مُدام

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩١ .

لكنْ على جَلدي وخوضي معركاً
بيدي حَسامٌ كَلَّمَا جَرَدْتُه
ولِصدرِ معتدلِ الكُعبِ حَطْمَتُهُ
وَنِزالِ فرسانِ الهِياجِ وكلِّهم
ولتقلي الأُسَدِ الصَّواري نَحْطُها
تلقى إذا لاقيتها أُسداً له
لو أنَّ عينَ أبي زبيدٍ عايَنتُ
فحملتُ من بعدِ الثمانينِ العصا
ويقول^(٥):

أوهت خطوب الدهر من
ورمتني الأيام عن
وغدا الذين بهم أسـ
هممي وفلت حدّ عزمي
قوسي فأردتني بسهمي
ليّ الهمّ حين يلمّ همّي

فقد أظهر الشاعر الفارس براعته في وصف الحالة التي أصبح عليها ، فيرى في نفسه الفارس الذي رمته الأيام عن قوسه فأردته بسهمه ، وفي هذا الوصف تعبيرٌ صادقٌ عما يدور في خلجات النفس من التحسر على الفارس الذي لا يرجو عودته ، وإنما ينتظر منيته ، ففيه تصوير انكسار النفس وإظهار حالة الضعف بعد القوّة والشيخوخة بعد الشباب ، والفروسية التي أدبرت ، فلم يجد أمامه إلا الشعر الذي خفف عنه المصاب باسترجاع الماضي الذي سيقى ذكره في ذاكرته ، ومن بعدها سيجري على ألسنة الناس ، فيتناقلون ويتداولون

(١) القمقام - بالفتح ، ويضمّ - : السيد . وكبش كتيبة : قائدها .

(٢) الفرق : أي فرع .

(٣) أبي زبيد : هو حرملة بن المنذر الطائي ، كان نصرانياً مخضرباً ، وكان أوصف الناس للأسد .

(٤) العصا ، ص ٨٨ وما بعدها .

(٥) ديوان أسامة ، ص ٣٢٣ .

أخبار تلك البطولة الفذة التي لم يعد صاحبها قادراً على استعادتها^(١):

كفى حزناً أن الحوادث قصرت
يدِي ولساني عن نوالٍ وعن أمرٍ
فما يَخْتشي الأعداءُ بأسي وسطوتي
ولا يرتجي الإخوانُ نفعي ولا نصري
إذا نابَهُمْ خطبٌ فكلُّ استطاعتي
تلهبُ أنفاسٍ أحرَّ من الجمرِ
ولا خيرَ في الدنيا لمثلي ولو صفتُ
إذا كان لا يُرجى لنفعٍ ولا ضرِّ

ويقول أسامة مصوراً نفسه وراصداً لحظة انكسار الفارس^(٢):

قالوا ترشفت الليالي ماءً
واغتاله بعد التمام محاقُ
هو جمرَةٌ أفنى الزمانُ لهيها
فضاءلت وطباعها الإحراقُ

وهذا التصوير يختلف عن تصوير أبي فراس ، فقد أعطى أسامة صورة أدقّ للحظة انكسار الفارس ، فهو مثل القمر في آخر مراحلهِ ، وهو جمرَةٌ احترقت من شدّة التوهج للخدمة الغير ، وفي هذا دليل على التضحية وحبّ الآخرين ، ولعلّ منشأ الاختلاف بينهما بسبب اختلاف الأحوال والظروف التي يمرّ كل واحد منهما بها ؛ وذلك لأنّ أسامة لم يعد بمقدرته العودة إلى أن يكون بدرًا فينير لغيره ، فهو فاقدٌ للأمل . أما أبو فراس فهو يحمل في لحظة انكساره الأمل الكبير الذي يجعله يفخر حتى وهو في أسره ، فأسره كان باختيارٍ منه ، غير أنّ فخره " هو فخر رجلٍ مُنحني الرأس ، مخدول يتشبّث القيد بيده ، كأنه يعلن عاره على الملأ ، ولئن كان يلمّ في سائر قصائده بمعاني الفخر الكلاسيكية ، معتزلاً بانتصاراته وانتصارات بني قومه في الحروب "^(٣).

وعلى الرغم من صغر سنّ أبي فراس ، إلا أنّ له أبياتاً رائعة في المشيب ، ربطها بفروسيته ربطاً عجيباً يدلّ على تعلقه بالحروب ، وخوفه من هذا العدو الذي يزحف إلى رأسه فيقضي على فروسيته ، فصور مشهد الشعر

(١) ديوان أسامة ، ص ٣٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(٣) في النقد والأدب ، إيليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ١ ، د.ت ، ٢٧٨/٣ .

الأبيض المختلط بشعره الأسود بجيشين : (الزنج ، والروم)^(١) :

شعراتٌ في الرأسِ بيضٌ وُغْنَجُ حلّ رأسيَ جيشانِ : رومٌ وزنجُ
أيها الشيبُ لم حللتَ برأسي ؟ إنّما لي عشرٌ وعشرٌ وبَنْجُ ...

فعندما يداهم الفارس الشيب لا يجد أمامه ملجأً إلا فروسيته ، يقول أبو فراس^(٢) :

فما للغواني إذ علا الشيبُ مفرقي يُعللنَ قلبي بالأمانِ الكواذبِ
أراهنّ يُبدینَ الصُدودَ عن الفتى إذا ما بدا الشيبُ الذي في الذوائبِ
فما لي إلا البيضُ والبيضُ والقنا وجردٌ كرامٌ مُخصراتُ الجوانبِ
وما جَزَعَتِ نفسي لإيرادِ موردٍ ولا لذيادٍ عن لذيذِ المَشارِبِ
ولا أنّني لما حللتُ محلّةً ففارقتها سُدَّتْ عليّ مَذهبي
ولا أنا وان عند مختلفِ القنا ولا بجبانٍ عند زحفِ الكنائبِ
ولو رضيت نفسي المقام لقصرت ولكنها معقودةٌ بالكواكبِ
ولو أنّها لانت لخفضِ معيشةٍ أطاعت مقالات الغواني الكواعبِ

فالشاعر يفخر بشجاعته ، فهو الفارس الشجاع ، على الرغم من غزو الشيب له ، فهو لا يتوانى عن حوض المعارك ، وليس بالجبان عندما ترحف الجيوش ؛ لأنّ ذلك الوقت هو الذي يدلّ على شجاعة الفارس من عدمها ، وأنّ همته العالية التي تصل إلى الكواكب هي المعين له على ذلك ، وترفض أن تلين لكلام الغواني اللواتي يُردّنه أن يتقاعس عن القتال .

فكلاهما يرى أن المصائب خيرٌ له ، وأنّها سببٌ في شهرته^(٣) :

فما أوْهنتُ عظمي الرزايا ولا لها بحسنِ اصطباري في الملمّ يدانِ
وكم نكبةٍ ظنّ العدا أنّها الردى سمّتْ بي وأعلتْ في البريّة شاني
وما أنا ممن يستكينُ لحادثٍ ولا يملأ الهول المخوفُ جناني

(١) ديوان أبي فراس ٥٩/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٩/٢ .

(٣) السابق ، ص ٢٧٩ .

وإن كان دهري غالَ وفري فلم يُعلُ
وما كان إلا للنوالِ وللقرى
حُمِدْتُ على حالي يسارٍ وعُسرةٍ
ولم أدخرٍ للدهرِ إن ناب أو نبا
لأنَّ جميلَ الذكرِ يبقى لأهله
ثنائي ولا ذكري بكلِّ مكانٍ
وغوثاً ملهوفٍ وفديّةً عانٍ
وبرزتُ في يومي ندىً وطعانٍ
وللخطبِ إلا صارمي وسناني
وكلّ الذي فوق البسيطةِ فانٍ

والفارس لم يدخر للدهر سوى سيفه ورمحه ، وعُلل عن سبب ادّخاره لهذه الأدوات ، فهو لا يأمن سطوات الدهر إلا بفروسيته تماماً مثلما فعل أبو فراس .

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذين الفارسين أبدعا في حياتهما ، وصالا وجالا في ميدان الفروسية والشعر ، وإظهار صور متعدّدة للفارس من بداية حياته البطولية إلى لحظة فنائه ، فصوراً العزّ والمجد ، والبطولة والقوة ، إلى جانب تصويرهما الألم ، والعجز ، والانكسار الذي أصابهما ، ومع ذلك كلّهما يقرّان بحقيقة محتبسة في نفسيهما ، وهي أن أيام السرور الخالية من الهموم هي المحسوبة من عمرهما ، أما بقية العمر فلا يعتدون به مهما طال ، يقول أبو فراس^(١) :

ما العمرُ ما طالَت به الدهورُ
أيامٌ عزيّ ونفاذُ أمري
العمرُ ما تمّ به السرورُ
هي التي أحسبها من عمري
ويقول أسامة^(٢) :

قالوا : نهته الأربعون عن الصبا
كم ضلّ في ليل الشبابِ فدلهُ
وإذا عددتُ سنيّ ثم نقصتُها
وأخو المشيبِ يجورُ ثمّت يهتدي
وضح المشيبِ على الطريقِ الأقصدي
زمنَ الهمومِ فتلك ساعةٌ مولدي

يقول العماد الأصفهاني معقباً على هذا البيت ، وموازناً بينه وبين أبي فراس : " تعجب من مقاصد هذه الكلم وتعرض لموارد هذه الحكم ، واقض العجب كلّ العجب من غزارة

(١) ديوان أبي فراس ٢/٢٠٩ .

(٢) ديوان أسامة ، ص ٢٩٧ .

هذا الأدب ، ولولا أنّ المداد أفضل ما تُرَقِّم به صحائف الكتب ، لحررتُ هذه الأبيات بماء الذهب ، فهذا أبلغ من قول أبي فراس بن حمدان : ... فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى ، وللمتأخر في المبالغة ، حيث ذكره في بيتٍ واحدٍ ولم يجعل له نصيباً من العمر إلا ساعةً مولده ، فجميع الحياة على الحقيقة نَصَب ، وألم وتعب"^(١).

ولعلّ البحث هنا يخالف رأي العماد في قوله : " ولم يجعل له نصيباً من العمر إلا ساعةً مولده ... " ، فمن العجب أن يطوي فارسٌ - مثل أسامة - مجده الفروسي ببيتٍ واحدٍ من الشعر ، فهو على الأرجح أراد أن يطوي من عمره لحظة الانكسار والألم التي حلت به في شبابه ، وأقعدته عن البطولة والمجد ، بدليل ذكره لهذا البيت بعد ذكره للمشيبي الذي طالت شكواه منه ، لذلك هو " يُعدّ زمن السرور وحده عمره الحقيقي "^(٢)، مثلما فعل أبو فراس الحمداني ، وهو القائل^(٣):

للهِ درّ الصِّبَا ، لو دام رونقُهُ فما كأوقاته في العمرِ أوقاتُ

فالفارس فضّل أن يطوي اللحظات المؤلمة من حياته فقط .

وعلى الأرجح أن اشتراك أبي فراس وأسامة في هذه النظرة للعمر ، التي تتسم بالفروسية ، لا تتناقض مع كثرة تصويرهما للألم والانكسار الذي أصابهما ، وإنما هي دليل على صدق الفارسين الشاعرين مع نفسيهما ، فهما يُعتَبِران العمرَ الحقيقيّ لهما في مجدهما البطولي ، والدليل على ذلك : استحضارهما لذلك المجد في أشدّ لحظات الألم ، وما كان شعرهما إلا تخفيفاً عنهما ، وإبلاغاً للناس عن حالهما ، فهما فارسان شاعران غلبت عليهما العاطفة ، فجعلت منهما فارسين مبدعين أثرا في شعرهما ، حتى ليكاد شعرهما ينطق عن لحظات حياتهما المختلفة بكلّ مراحلها .

لقد صورّ أبو فراس وأسامة الفروسية تصويراً رائعاً في شعرهما ، ورسموا صوراً متعدّدة

(١) خريدة القصر ٥٠١/١ .

(٢) أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ، ص ٢٨٩ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٣١٦ .

للفارس ، ولم يغفلا عن الملامح الخاصة والعامة ، فهو فارسٌ بطل ، شجاع ، مقدم ، قادر على الحروب ، عارفٌ بها ، مدركٌ لعدتها ، كريم ، عفيف . وعملا على إبراز الصورة المعنوية للفارس أكثر من الصورة المادية ، وصورهم في الغالب صور تقليدية لا تختلف عن الصور القديمة للفرسان .

ومن الملاحظ عليهما في صورة الفارس قبل المعركة وأثناءها : قلة إنتاج الشعر ؛ وذلك لانشغالهما بالحروب والمعارك ، فطبيعة الفارس أن يكون في كَرٍّ وفرٍّ لا تسمح له بقول الشعر بكثرة ، ولكنهما عندما لم يستطيعا إظهار البراعة القتالية ، لجأ إلى البراعة الأدبية ، فكثر شعرهما ، وتفجرت ينابيعه عند عجزهم عن القتال . ويظهر أثر ذلك بكثرة في شعر أبي فراس ، فلقد غلب شعره الفروسي - أثناء الأسر - كل ما قاله قبل ذلك ، وشعرهما سهل بعيد عن التكلف ، وليس يعني هذا أنه بعيد عن الجمال الفني ، ولكن منشأ الجمال الفني فيه قائم على التلقائية والعفوية ؛ لأن ذلك ما يناسب شخصيتهما القتالية التي لا تقوم على الزيف والباطل ؛ وإنما على الحق والقوة ، وهذا ما سنحاول الوقوف عليه في الفصل الثاني من الدراسة - بمشيئة الله تعالى - .

فصورة الفارس في شعرهما ما هي إلا صورتهم الحقيقية عكساها على ذلك الشعر بكل وضوح وقوة وصدق وعفوية .



المبحث الثاني : أدوات الحرب (الفرس ، السيف ، الرمح ، السهم) :

شخصية الفارس البطولية لا تكتمل إلا بالعدة والاستعداد للعدو ، وهذا الاستعداد لا يكون إلا بتوفر أدوات القتال التي تقود إلى النصر - بإذن الله - ، قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾^(١) .

فهو يحتاج إلى هذه العدة التي تعينه في تحقيق نصره المنشود ، بالإضافة إلى أدواته المعنوية ؛ من دهاء ، وذكاء ، وحيلة ، وصبر ..

لذلك جاء اهتمام الفارس بأدواته الحربية ، فـ " السلاح زاد المحارب ، يدافع به عن نفسه ، ويرهب به عدوه ، ولذا كان الشعراء يفخرون بما يحملونه من سلاح ، ويتجهزون به ، ولكلِّ زمانٍ سلاحه ، وكان سلاح هؤلاء الفرسان في عصرهم : السيف والرمح "^(٢) .

" وقال حبيب بن المهلب : ما رأيت رجلاً في الحرب مستلماً إلا كان عندي رجلين ، ولا رأيت حاسرين إلا كانا عندي واحداً . فسمع هذا الحديث بعض أهل المعرفة ، فقال : صدق ، إن للسلاح فضيلة . أما تراهم ينادون عند الصريخ : السلاح السلاح ، ولا ينادون : الرجال الرجال ! "^(٣) .

يقول عامر بن الطفيل^(٤) :

يوم لا مال للمحارب في الحر	بِ سَوَى نَصْلِ أَسْمَرِ عَسَالِ
ولجامٍ في رأس أجرد كالجد	ع طِوَالٍ وَأَبْيَضِ قِصَالِ
ودلاصٍ كالتَّهْيِ ذات فضول	ذاك في حلبة الحوادث مالي

فالسلاح في نظر الفارس أعلى ما يملك ، حتى إنه لم يخلف وراءه بعد موته سوى تلك

(١) سورة الأنفال : الآية (٦٠) .

(٢) شعراء فرسان تحت راية الإسلام (تاريخ وظواهر فنية) ، د. علي أحمد علام ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، ط ١ ، ٢٠٠١م ، ص ٣٠٣ .

(٣) عيون الأخبار ، ص ١٢٩ .

(٤) ديوان عامر بن الطفيل ، ص ١٠٢ .

الأدوات الصماء التي لم يستفد منها سوى الفارس المحارب .

يقول عروة بن الورد^(١):

وذي أمل يرجو تراثي وإن ما يصير له منه غداً لقليل
وما لي مالٌ غير درعٍ ومغفرٍ وأبيض من ماء الحديد صقيلٌ
وأسمرٌ خطي القناة مثقف وأجرُدُ عريان السراة طويلٌ

غير أن هذا السلاح يستمدّ هذه القوة من فارسه ، فالعبرة ليست بالسلاح ، وإنما باليد التي تحمل السلاح . يقول المتنبي^(٢):

إِنَّ السَّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ المِخْلَبِ السَّبْعُ
ويقول^(٣):

إِنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا التَّقَى الْجَمْعَانِ
تَلْقَى الحُسَامَ عَلَى جَرَاءِ حَدِّهِ مِثْلَ الجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

فعلى الرغم من وصفهم للسلاح ، إلا أنه يظلّ أداة صماء ، يتحكّم فيها فارسها كيفما يشاء .

وقد بلغ من محبة الفارس لأدواته أن جعل من نفسه خادماً لها ، يقول المتنبي^(٤):

اكتُبْ بنا أبداً بعدَ الكتابِ بهِ فَإِنِ غَفَلْتُ فِدَائِي قَلَّةُ الفَهْمِ
أسمعتني ودوائي ما أشرت بهِ فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلأسْيَافِ كَالخَدَمِ

فالفارس الشاعر عندما يفاضل بين السيف والقلم ، لا يرى أفضل من السيف ، بل يعتبر نفسه خادماً له ، وفي ذلك تمام الفروسية ؛ لما تحمله كلمة (خادم) من قوة الملازمة ، فالخادم ملازمٌ لسيدهِ في كلِّ حين .

(١) ديوان عروة ، ص ٢٠٧ .

(٢) ديوان المتنبي ٢/٢٣٤ .

(٣) المصدر السابق ٤/١٨٤ .

(٤) السابق ٤/١٦٠ .

وأول أدوات الحرب هي : الفرس التي تقود الفارس إلى أرض المعركة ، وتشاركه البطولة حتى أصبح لها حضوراً مميزاً في الشعر ، وخاصة عند الشعراء الفرسان .

● الفرس :

لا تكتمل الصورة البطولية للفارس إلا بوجود فرسه ، ذلك الفرس الذي يُعدّ " أحسن الحيوانات شكلاً ... ، وأرشد الدواب عدواً وذكاءً ، وله خصال حميدة ، وأخلاق مرضية ، وله صفاء اللون ، وحسن الصورة ، وتناسب الأعضاء ، وحسن طاعته للفارس كيف شاء صرفه وانقاد له " (١) .

ولقد فضلها الله ﷻ إذ أقسم بها في كتابه الكريم ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَدِيدِ صُبْحًا ﴿١﴾ وَالْمُورِيَةِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْغَيْرِ صُبْحًا ﴿٣﴾ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٣) .

وقال الرسول ﷺ : « أعرافها أذفاؤها ، وأذناها مذايها ، والخير معقود في نواصيها إلى يوم القيامة » (٤) .

وهذا امرؤ القيس يفخر بفرسه ، فيقول (٥) :

مُطَلَّبٌ بِنَوَاصِي الْخَيْلِ مَعْصُوبٌ	الْخَيْرُ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَمَا غَرَبَتْ
جَرْدَاءٌ مَعْرُوقَةٌ اللَّحْيَيْنِ سُرْحُوبٌ	قَدْ أَشْهَدُ الْغَارَةَ الشَّعْوَاءَ تَحْمَلْنِي
قَعُوْ عَلَى بَكْرَةٍ زَوْرَاءٍ مَنصُوبٌ	كَأَنَّ هَادِيَهَا إِذْ قَامَ مُلْجِمُهَا

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، زكريا القزويني ، تحقيق : فاروق سعد ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، ص ٤٠٠ .

(٢) سورة العاديات : الآيات (١-٣) .

(٣) سورة الأنفال : الآية (٦٠) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، ص ١٣٦ .

(٥) ديوان امرئ القيس ، ص ٢٢٥ .

فهي فرس حرب ، قصيرة الشعر ، قليلة لحم اللحيين ، طويلة العنق ..

هذا ، وقد كثر الفخر بها ، فقد ذكر أبو عبيدة تلك المكانة للفرس منذ العصر الجاهلي بقوله : " لم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئاً من أموالها ولا تكرمه صيانتها الخيل وإكرامها لها ؛ لما كان لهم فيها من العزّ والجمال والمتعة والقوّة على عدوّهم ، حتى إن الرجل من العرب ليبيت طاوياً ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه وأهله وولده ، فيسقيه الحض ، ويشربون الماء القراح ، ويعير بعضهم بعضاً بإذالة الخيل وهزائها وسوء صيانتها ، ويدكرون ذلك في أشعارهم"^(١).

يقول الجاحظ : " لقد استأثرت الخيل بحبّ العرب منذ أقدم العهود ؛ لما تؤديه من خدمات يعجز عن أدائها سواها ؛ لذلك كانت عنايتهم بها عناية شديدة ، واهتمامهم بتربيتها اهتماماً بالغاً ، ففيها من خصال الشرف والمنافع ، والغناء في السفر والحضر ، وفي الحرب والسلم ، وفي الزينة والبهاء ، وفي العدة والعتاد ، ما ليس في غيرها من الحيوان"^(٢).

ولقد عبّر الشعراء الفرسان عن هذا الحبّ والولع بالخيل أصدق تعبير ، وقد ذكر الأصمعي أن ثلاثة من العرب لا يقاربهم أحد في وصف الخيل ، وهم : " أبو دؤاد الإيادي ، والطفيل الغنوي ، والنابغة الجعدي"^(٣).

فالفرس تُعدّ المعين المميز للفارس ، تحتلّ مكانة كبيرة في نفسه ، شاركته حروبته ، وقادته إلى النصر ، فهي أهمّ أدواته الحربية التي يحرص على اقتنائها ؛ لما فيها من الخير العميم العائد عليه ، فهي الأداة الأثيرة منذ القدم ، وهي حصون العرب .

ويعلّل الدكتور كامل الدقس سبب اهتمام العرب بالخيل وقربها من قلوبهم بقوله : " ذلك أن العرب أرباب حروب وغارات ، يغيرون أو يُغار عليهم ، فلا بدّ من قرب الخيل

(١) كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها ، لأبي عبد الله محمد الأعرابي ، تحقيق ودراسة : د. محمد عبد القادر

أحمد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ٥٨ .

(٢) الحيوان ، للجاحظ ، ١٢٠/٧ .

(٣) الشعر والشعراء ١/١٦٢ .

منهم ؛ لأنها حصونهم الحصينة التي يلجؤون إليها ، ومعاقلمهم التي يحتمون بها ، فالفرس عدّة الفارس في الحروب والغزوات ، وحصن حصين له من الأعداء في الغارات ، لحميتها وغيرها على فارسها" (١).

ولقد تغنى الشعراء بالفرس ، فصوروا شجاعتها ورشاققتها ، وقدموها على أبنائهم ، وفي ذلك تصوّر لعمق الارتباط بها والحفاظ عليها ؛ فمن ذلك ما قاله فيها يزيد العبيدي (٢) :

مفـدأة مكرمة علينا يُجـاع لها العيالُ ولا تُجـاعُ (٣)

ويقول ربيعة بن مقروم (٤) :

وَجُرْدًا يُقَرِّبَنَّ دُونَ الْعِيَالِ خِلالَ الْبُيُوتِ يَلْكُنَ الشُّكَيْمًا
تُعَوِّدُ فِي الْحَرْبِ أَنْ لَا بَرَّاحَ إِذَا كَلَّمْتَ لَا تَشْكِي الْكُلُومًا

فهو يفضلها على عياله ؛ لصبرها على شدة الحرب .

ومكانة الخيل لا تقتصر على مسألة الغنى والفقير ، يقول ابن هذيل : " لم تنزل العرب تفضّل الجياد من الخيل على الأولاد ، وتستكرمها للزينة والطراد ، على أنهم ليَطوونَ مع شبعها ، ويظمّون مع ريّها ، ويؤثرونها على أنفسهم وأهليهم عند حلول الأزمة والأواء ، واغبرار آفاق السنة الشهباء .

وعلى ذلك تدلّ أخبارهم وتشهد أشعارهم" (٥).

(١) وصف الخيل في الشعر الجاهلي ، كامل سلامة الدقس ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ، د.ط ،

١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م ، ص ١٥ .

(٢) يزيد بن خذاق العبيدي ، شاعر جاهلي قديم .

(٣) المفضليات ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، ط٧ ، ١٩٨٣م ، ص ١٨٣ .

(٤) ربيعة بن مقروم ، أحد شعراء مضر المعدودين في الجاهلية والإسلام .

ينظر في ترجمته : الإصابة ٢/٢٢٠ .

(٥) حلية الفرسان وشعار الشجعان ، لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل ، تحقيق : محمد عبد الغني حسن ، دار

المعارف ، د.ط ، ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م ، ص ١٧٧ .

يقول أبو دؤاد الإيادي موضحاً أسباب تعلقه بالخيال^(١):

علق الخيل حبُّ قلبي وليداً وإذا نابَ عندي الإكثارُ
 عقلت همتي بمن فمائمٍ —نع منّي الأئنة الإقتارُ
 جنة لي في كلِّ يوم رهان جمعتُ في رهاها الأعشارُ
 وانجرارٍ بمن نحو عدوي وارتحالي البلادَ والتسيار

والفرسُ شجاعة كفارسها ، فهذا عنتره يصف شجاعة فرسه بقوله^(٢):

ما زلت أرميهم بثغرةٍ نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
 وازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمحم
 لو كان يدري ما الخاورة اشتكى أو كان لو علم الكلام مكلمي
 والخيال تقحم الجنار عواباً ما بين شيطرةٍ وأجرد شيطم

يقول الدكتور كامل الدقس : " تفنن الشعراء الفرسان في أوصاف خيولهم في جميع حالاتها ، وصوِّروها تصويراً رائعاً دقيقاً ، فقد صوِّروا استعدادها للحرب ، واشتراكها في الموقعة ، ودورها فيها ، وحركاتها وهي تروح وتجيء ، وتكرّر وتفترّ ، أو تعلقو وتقوي في تداخل واختلاط ، وكأنّ العين تتبعها صعوداً وهبوطاً ، يمنة ويسرة ، فلم تقتصر أوصافهم على أعضائها الظاهرة ، صغيرها وكبيرها ، بل تحدّثوا كذلك عن أجزاء باطنية لا تراها العين ، (كالنسا والشظا) ، وتحدّثوا عن إحساساتها ، ورفعوها إلى درجة إنسانية راقية"^(٣).

غير أنّ هذه الأوصاف - وخصوصاً الأجزاء الباطنية - لم تكن عامّة ، فلم يجد البحث لها ذكراً عند أبي فراس وأسامة ، ولعلّ مردّد ذلك ؛ لأنّ وصفهم للفرس كان من خلال وصفهم لفارسها ، فلم يُطلِ الشاعران - رغم فروسيتهما - في وصف الفرّس وتصويرها ، على الرغم من شدّة ارتباطهما بها .

(١) الشعر والشعراء ، ص ١٨٩ .

(٢) ديوان عنتره ، ص ٢١٦-٢١٨ .

(٣) وصف الخيل في الشعر الجاهلي ، ص ١٤٤ .

ولعلّ ذكرهم للفرس ما هو إلا " رمز الشباب والقوة والشجاعة والإقدام " ^(١).

يقول أبو فراس ^(٢):

عَتَادِي لِدْفَعِ الْهَمِّ نَفْسٌ أَيْبَةٌ وَقَلْبٌ عَلَى مَا شَتُّ مِنْهُ مُصَاحِبٌ
وَجُرْدٌ كَأَمْثَالِ السَّعَالِي سَلَاهِبٌ وَخَوْصٌ كَأَمْثَالِ الْقِسِيِّ نَجَائِبٌ

فالفارس يخوف أعداءه بفرسه التي لها مميزات وصورة تبعث الرهبة والخوف في نفوسهم ،
ففرسه قصيرة الشعر ، ضيقة العين ، وشبهها بالغول ، وهذا الوصف للفرس قد جرى على
أسنة الشعراء ، فمن ذلك قول دريد بن الصمة ^(٣):

لست للصمة إن لم آتكم بالخناذيد تبارى في اللجم
فتقر العين منكم مرة بانبعاث الحر نوحاً تلتدم
وترى نجران منكم بلقعاً غير شطاء وطفل قد يتم
فانظروها كالسعالى شزباً قبل رأس الحول إن لم أخترم

كما يصف أبو فراس فرسه بقوله فيها ^(٤):

وجرشع عالى التليل آفقه خاطي مجال الدفين ناهقه
عبل الشوى تقاربت مرافقه أنجبه وجيهه ولاحقه
ضافي القرا عناقه عنائقه تحسبه إذا علاك فائقه
يمشي بجزع مشرف غرانقه نعم الفتى يوم الوغى مرافقه

فالشاعر هنا يخبر عن صفات فرسه ، فهو فرس " ضخم طويل العنق ، سمين الجنين ،
مكتنز الأطراف ، تتقارب مرافقه ، طويل الظهر ، يشبه الغرناق ، وهو طائر ضخم يشبه به

(١) دراسات نقدية في الشعر العربي ، د. بهجت عبد الغفور الحديثي ، المكتب الجامعي الحديث ،

٢٠٠٤م ، ص ٦٥ .

(٢) ديوان أبي فراس ٣٠/٢ .

(٣) ديوان دريد بن الصمة ، ص ١١٢ .

(٤) ديوان أبي فراس ٢٦٤/٢ .

ظهر الجواد" ^(١).

ونراه يشبهها كذلك بالقسى ، وذلك في قوله ^(٢):

وأمثالُ القسِيّ من المطايا يَجِبُ غراسُها خيلٌ عِرابُ

ويقول أبو فراس معبراً عن مهمة فرسه الحقيقية ^(٣):

وتعاف لي طمع الحريصِ أبوتي ومُروءتي وفتوّتي وعفافي

ما كثرة الخيل الجياد بزائدي شرفاً ولا عددُ السّوامِ الضّافي

خيلي وإن قلت كثيرٌ نفعُها بين الصّوارمِ والقنا الرّعافِ

يظهر الشاعر لابن عمه في الأبيات السابقة السبب في رده للعطايا التي تزاحم الناس عليها وسارعوا إليها ، رغم أنها من أحبّ الأشياء إليه والمقربة منه ؛ وذلك لأنّ كثرة تلك الخيول والمواشي لن تزيده شرفاً ، وأن ما عنده منها رغم قلتها في العدد ، فهي كثيرة النفع ، لاسيما في وقت الحرب الشديدة ، حيث عبر عن تلك الشدة بقوله : " والقنا الرّعاف " ، فتلك الخيول لا تخشى الحرب ، ولا تفرّ من مواجهة الأعداء ، وقد ألقت عيونها مشاهدة منظر دماء الأعداء وهي تسيل من السيوف والرماح .

فأبو فراس يظلّ الفارس القنوع الذي يقدر قيمة الفرس ، ولا ينكر حاجته لها ، وذلك يظهر في قوله ^(٤):

كفاني سَطوة الدّهْرِ جِوادٌ نَسَلُ أجِوادِ

نَمَاهُ خَيْرُ آبِاءِ نَمَتُهُمْ خَيْرُ أجِدادِ

فمما يصبو إلى أرضِ سِوى أرضِى ورؤادي

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، اعتنى به وشرحه : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٣ ،

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، ص ١٧٦ .

(٢) ديوان أبي فراس ٥١/٢ .

(٣) المصدر السابق ٢٥٦/٢ .

(٤) السابق ٩٠/٢ .

وقاه الله فيما عا ش شر الزمن العادي

ففرسه الفرس الأصيل الذي كفاه سطوة الدهر ، والمميز الذي ورثه من أجداده ،
والملازم له الذي يحن ويشتاق إلى ديار صاحبه ، ثم ختم حديثه عنه بالدعاء له ، وفي ذلك
دليل على شدة تعلق ذلك الفارس بفرسه الفريد والأثير لديه .

ولقد أعطى أبو فراس لفرسه صفات إنسانية ، فجعلها تشكي ، فمن ذلك قوله مخاطباً
سيف الدولة^(١) :

قد ضج جيشك من طول القتال به وقد شككت إلينا الخيل والإبل

كما جعلها تستوحش وتفتقد صاحبها ، وذلك في قوله^(٢) :

واستوحشت لفراقه يوم الوغى ، سرب الخيول

وفرسه من أغلى الأشياء عنده التي يهتم بها ويحافظ عليها للأعمال
الجليلة^(٣) :

ويصان مهري لأمر لا أبوح به والدرع والرمح والصمصامة الخدم^(٤)

غير أن من أهم تلك الأعمال : المشاركة في الحروب ، فيقول^(٥) :

ومعود للكر في حمس الوغى غادرتة والفر من عاداته

حمل القناة على أغر سميذع دخال ما بين الفتى وقناته

كما يصفه بسرعته في تلبية دعوة الحرب بقوله^(٦) :

وداع دعاني والأسنة دونه صبيت عليه بالجواب جوادي

(١) ديوان أبي فراس ٢٩٧/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٢١/٣ .

(٣) السابق ٣٤٨/٣ .

(٤) الصمصامة الخدم : السيف القاطع .

(٥) ديوان أبي فراس ٥٤/٢ .

(٦) المصدر السابق ٧١/٢ .

جنتُ إلى مُهري المنيعي مهرةً وجللتُ منه بالنجيع نجادي

ويقول مخاطباً سيف الدولة^(١):

دعوناك والهجرانُ دونك دعوةً أذاك بما يقظان فكرك لا البردُ
فأصبحت ما بين العدوِّ وبيننا تجارى بك الخيلُ المسومةُ الجردُ
أثيناك أدنى ما نُجيبك جُهدنا فأهونُ سير الخيلِ من تحتنا الشدُّ

فالشاعر الفارس يعتزُّ بمصاحبة الفرس له .

ويقول^(٢):

وفتيانِ صدقٍ ، كالتُّجومِ طوالعٍ على شُزبِ جُردٍ ، كرامٍ ، سواهم

ويقول أبو فراس معبراً عن مشاركة خيلهم لهم في المعارك الداخلية على وجه الخصوص^(٣):

قطعن إلى (الجباة) بنا معاناً ونكبن (الصبيرة) و (القبايا)
وجاوزن (البدية) صاديات يُلاحظن السراب ولا سرايا
عبرن (بماسح) والليل طفلاً وجئن إلى (سلمية) حين شابا

فتلك الخيول تقطع المسافات الطويلة ، وتمرّ على عدد من المواضع ، ويصيبها العطش والتعب ، حتى إنها ترى السراب فتحسبه ماء ، ولكنها تصبر وتصابر إلى أن تصل إلى مبتهاها بكلّ سرعة وثبات ، لذلك نراه يؤكد على ذلك بقوله^(٤):

فما شعروا بها إلا ثباتاً دوين الشدّ تصطخبُ اصطخابا
تناهبن الشاء بصبر يومٍ به الأرواحُ تُنتهب انتهابا
تنادوا فانبرت من كلِّ فجٍّ سوابق يُنتجن لنا انتجابا

(١) ديوان أبي فراس ٩١/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٣٨٤/٣ .

(٣) السابق ١٤/٢ .

(٤) نفسه ١٤/٢ .

بل وصف كثرة جياذ أعدائه ، التي أصبحت ملكاً لهم بقوله^(١) :

وقاد (ندي بن جعفر) من (عُقيل) شعوباً قد أسلنَ به الشعابا
فما كانوا لنا إلا أسارى وما كانت لنا إلا نهابا
كأنّ (ندي بن جعفر) قادّ منهم هدايا لم يُرغ عنها ثوابا

ويقول مصوراً بطولة فرس عدوه ، فقال فيه^(٢) :

لولا الجوادُ الأدهمُ الناجي به أضحت قوائمُ رجله في الأدهم
فالشاعر يوضح كيف نجا ذلك القائد ، فلم ينجُ إلا بسبب جواده الأدهم . فالفرس
يتحلى بشجاعة ليست متوفرة عند فارسها في بعض الأوقات .

ويقول في إقدامها^(٣) :

وملنا بالخيولِ إلى (ثمير) تُجاذبنا أعتتُها جذابا
فالخيول تريد أن تشاركهم البطولة ، وتحتهم على القتال .

ويظهر أبو فراس شجاعته من خلال عرضه لبطولات خيله ، وذلك في مثل قوله^(٤) :

ألم تُخبرك خيلي عن مقامي (بالس) يوم ضاقَ بها المقامُ
وولتَ تلتقي بعضاً ببعضٍ لهم - والأرضُ واسعةٌ - زحامُ
سَروا والليلُ يجمعنا ولكِن ييُوحُ بهم ويكتمنا الظلامُ
إلى أن صبَّحتهم بالمنايا كرائمُ فوق أظهرها كرامُ
من العرشاتِ تلحقُ ما رأته إذا طلبتَ وتُعطي ما تُسامُ
تنازعُ بي وبالفرسانِ حولي تُجفّلهم كما جفلَ النعامُ

فالشاعر يؤكّد على البطولات التي تحقّقه خيله التي ضاقت عليها أرض الأعداء رغم

(١) ديوان أبي فراس ١٥/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٧٧/٣ .

(٣) السابق ١٥/٢ .

(٤) نفسه ٣٦١/٣ .

اتساعها ؛ لما تميزت به تلك الخيول من كثرة في العدد وحقّة في الحركة ، ولم تهاجم الأعداء رغم استطاعتها إلا في الصباح الباكر ، حاملة معها الموت لهم والفناء ، فقد أرعبتهم في ديارهم ، وأرعبت خيولهم أيضاً ؛ لذلك نراه في موضعٍ آخر يشبه الخيل بالنعام النافر ؛ وذلك ليثبت لها الجبن ، ولفرسانها معها^(١) :

كفاه أخي والخيّل فوضى كأنّها وقد عصّت الحربُ النعامُ النَّوافِرُ

ويؤكد الشاعر على البطولات العظيمة التي حققتها خيوله ، وذلك في مثل قوله^(٢) :

ولي منّةٌ في رقابِ (الضباب) وأخرى تخصّ (بني جعفر)
عشيّة رَوْحَنَ من (عرقّة) وأصبحنَ فوضى على (شيزر)
وقد طال ما وردتْ (بالجباة) وعاودت الماءَ في تدمرِ
قددن (البيعة) قدّ الأديـ م والغربُ في شبه الأشقرِ
وجاوزن (حمص) ؛ فلم ينتظر نَ على موردٍ أو على مصدرِ
و(بالرستين) استلبتْ مورداً كورِدِ الحمّامةِ أو أنزَرَ
وجُزن المروجَ وقرني (حمّاة) و(شيزر) والفجرُ لم يُسفرِ
وغامضتِ الشمسُ إشراقها فلفّتْ (كفرطاب) بالعسكرِ
ولاقت بها عُصبَ الدارعيـ نَ بكلّ منيعِ الحمي مُسعرِ
على كلِّ سابقةٍ بالرديفِ وكُلُّ شبيهه بما مُجفّرِ
ولما اعتفرونَ ولما عرقنَ خرجنَ سراعاً من العثيرِ^(٣)
تُنكّبُ عنهنّ فرسانهنّ ونبداً بالأخيـ الأخيـ

فالفرس تتحمّل شدة الحرب ، وتصبر وتصابر مع قائدها ؛ لذلك يحرص الشاعر الفارس

على ذكرها .

(١) ديوان أبي فراس ١١٣/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٩٩/٢ وما بعدها .

(٣) العثير : الغبار .

ويقول فيها أيضاً^(١):

وَنَقْفُوهُمْ خَلْفَ الْخَلِيجِ بَضْمَرٍ تَخَوْضُ بَحَارًا بَعْضُ خُلْجَانِهَا دَمٌ
بِكُلِّ غَلَامٍ مِنْ (نِزَارٍ) وَغَيْرِهَا عَلَيْهِ مِنَ الْمَازِي دَرَعٌ مُخْتَمٌ
وَنَجِبَ مَا أَلْقَى (الْوَجِيهَ) وَ(لَا حِقَّ) إِلَى كُلِّ مَا أَبْقَى (الْجَدِيلُ) وَ(شَدَقْمُ)

فالشاعر يصور خيله التي تميزت بنحول جسمها ، والتي تتميز بقوتها ، فتخوض بهم المعارك التي امتلأت أرضها بالدماء ، حتى أصبحت وكأنها بحار .

ونراه يعبر عن التعب الذي تلقاه تلك الفرس بقوله^(٢):

فطاردت حتى أهر الجري أشقري وضاربت حتى أوهن الضرب ساعدي

ويعترف لها بالفضل في تقدمه وشجاعته ، فيقول :

جمعتُ سيوفَ الهندِ من كلِّ بلدةٍ وأعددتُ للهِجاءِ كلَّ مجالدٍ
وأكثرتُ للغاراتِ بيبي وبينهم بناتِ البكرياتِ حولَ المزاودِ

يقول زكي المحاسني : " ولو أن أبا فراس كتب تاريخ حياته في حربه لَمَا زاد على البيتين السابقان اللذين يصف فيهما هذه الحياة التي كثرت فيها الغارات وركوب المطايا بعد كسر أعدائه في كل البلاد " ^(٣) .

ويقول :

إذا كان غيرُ الله للمرءِ عُدةً أته الرزايا من وجوهِ الفوائدِ
فقد جرَّتِ (الحنفاءُ) حتفَ (حذيفة) وكان يراها عُدةً للشدائدِ "

وذلك لأن الشاعر يجد في نفسه الشجاعة الكافية في مواجهة الخصوم ، ولكنه على علم تامّ بعدم مقدرته على مواجهة مصائب الدهر التي ربما تأتيه من أحب الأشياء إليه وأقربه منه .

(١) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٨٧ .

(٢) شعر الحرب في أدب العرب ، زكي المحاسني ، ص ٣٢٣ .

(٣) شعر الحرب في أدب العرب ، زكي المحاسني ، ص ٣٢٣ . (بتصرف) .

ويقول^(١):

ومُهري لا يمَسّ الأرضَ زهواً كأنّ تراهما قُطبُ النِّبالِ
كأنّ الخيلَ تعرِفُ منَ عَليها ففي بعضِ على بعضِ تُعالي

ففرسه تشاركه التعالي ؛ لأنها تعلم من فارسها ، فمكانتها من مكانة فارسها .
" فرسم لها صورة المتكبر المتعالي ، فعلوها من علو راجبها ، ومن سرعتها لا تمس الأرض ،
تكرراً وزهواً ، فهي مهر أبي فراس . ويشبه تراب الأرض بقطب النبال ، فمهره يتحاشاها
مزهواً " ^(٢) .

ويقول أبو فراس^(٣):

ضربنا بما عرضَ (الفراتِ) كأنما تسيرُ بنا تحت السَّروجِ جزائرُ
إلى أن وردنا (أرقنين) نسوقها وقد نكلت أعقابها والمخاصِرُ
ومال بما ذات اليمين (بمرعش) مجاهيدُ يتلو الصَّابِرَ المتصايرُ
فلما رأت جيشَ (الدمستق) راجعتُ عزائمها واستنهضتها البصائرُ
وما زلنَ يحملنَ النفوسَ على الوجى إلى أن خُصِنَ بالدماءِ الأشاعرُ

فالشاعر يصور الفرس بأنها مثل الجزائر . " فما أجمل تشبيه أبي فراس للخيل وهي
تعبّر الفرات وعلى ظهورها الفرسان بالجزائر تحت السروج ، ثم حينما رأت جيش
الدمستق وكان صبرها قد نفذ ، وأخذ منها الجهد كل مأخذ ، تراجع عزائمها ثم
اندفعت إلى الأمام " ^(٤) .

فقد عادت لها الهمة والعزم ، وأصبحت تريد الانتقام من الأعداء ؛ وذلك لأنها خيول
شجاعة مثل فرسانها ، مطيعة لهم ؛ لذلك نراه يذكر لها ذلك الصنيع وهو أسير في بلاد الروم ،

(١) ديوان أبي فراس ٢٨٤/٢ .

(٢) شعر أبي فراس الحمداني ، دراسة فنية ، ص ٣١٢ وما بعدها .

(٣) ديوان أبي فراس ١١٧/٢ وما بعدها .

(٤) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، ص ٢٤١ .

وذلك بقوله :

وكان إذا دعانا الأمر حفت بنا الفتيان تبدر ابتدارا
بخيّل لا تعاند من عليها وقوم لا يرون الموت عارا
وراء القافلين بكلّ أرضٍ وأول من يغير إذا أغارا
وأرض كنت أملؤها خيولاً وجو كنت أرهقه غبارا
فأشفي من طعان الخيل صدراً وأدرك من صروف الدهر ثارا

فلاحظ أنّ " الشاعر يهتمّ بالخيل اهتماماً كبيراً ؛ لأنّها من أقوى أسلحة المعركة ، وقد رسم صورةً لهذه الخيل المغيرة ، فهي قويّة رشيقة ضامرة ؛ لتستطيع الحركة بسرعة ، ومن كثرة اندفاعها في المعركة ملأت الجوّ غباراً كثيفاً مرهقاً . صورة الخيل هذه كما صورها الشعراء الجاهليون في شعرهم "(1).

وكذلك لأسامة أبيات تحدّث فيها عن الفرس وصلته بها وصلتها بالحروب ، ولكنه كان أقلّ احتفاءً بها من أبي فراس ، فنراه لكثرة القتال الذي حضره أصبح بين فرسه وبين الحرب ألفة ومحبة(2) :

ألفت مقارعة الكمأة جيادُهُ وسُرى الهواجر لايني ذملانهُ
يومان أجمعُ دهره إمّا سُرى أو يومٌ حربٍ تلتظي نيرائهُ

فشجاعة الفرس دليل على شجاعة فارسها ، لذلك رسم صورة بطولية لفرسه ، فقد تعودت منظر القتال ، ولشدة تعودها جعلها هي التي تقاتل الشجعان ، وكأنه ينفي الشجاعة عن نفسه ويثبتها لفرسه ؛ ليظهر لها التمييز عن غيرها .

غير أنّ أسامة عانى من الغربة وكثرة التنقل والترحال ، فأسقط تلك المعاناة على فرسه

(1) شعر أبي فراس الحمداني (دراسة فنية) ، ص ٣١١ .

(2) ديوان أسامة ، ص ٢٠٠ .

أيضاً ، يقول في ذلك^(١) :

أهكذا أنا ، باقي العُمر مُغْتَرِبُ ناءٍ عنِ الأهلِ والأوطانِ والسكنِ
لا تستقرّ جيادي في مُعرّسها حتّى أروّعها بالشدّ والطّعنِ

حتى إنّها من كثرة الترحال والتنقل بها أصبحت مثل هلال الشهر^(٢) :

ما هاجَ هذا الشوق غير الذّكرِ وزورة الطيفِ سرى من مصرِ
من بعدِ طولِ جفوةٍ وهجرِ كم خاض بحراً وفلاً كبحرِ
يجوبه الليل حليفَ ذُعرِ حتّى أتى طلائحاً في قفرِ
قد انطوينَ من سُرى وضُمرِ حتّى اغتدينَ كهلالِ الشّهرِ

كما نراه يعتزّ بمصاحبة الخيول ، ولا ينكر فضلها عليه في تقريب المسافات ،
فيقول في ذلك^(٣) :

عقلتُ به العيسَ المراسيلَ بالوَجى^(٤) إليك فأذنتنا المطهّمةُ القُب^(٥)
ويقول^(٦) :

ودّع أخا العزم مصرأ لا ليس وخُضْ بالسّابحاتِ بحارَ المهمةِ البيدِ
وسرّ عن الأرضِ تنبو بالكرامِ فقد طالَ انتظارُ الجنى من يابسِ العُودِ

ويتحدّث أسامة عن شجاعة الخيل عموماً في المعركة ، فيقول^(٧) :

أغشى الوغى مفرداً من أسرتي وهم همُّ إذا الخيلُ خاضت لجةَ العلقِ

(١) ديوان أسامة ، ص ١٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٣) السابق ، ص ١٠٤ .

(٤) الوجى : دماء الأخفاف .

(٥) المطهّمة القُب : الخيل الضوامر .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٩٨ .

(٧) السابق ، ص ١٧٩ .

فقد قرن الشاعر شجاعته وإقدامه بشجاعة الخيل وإقدامها في الحروب ؛ وذلك لأنّ الخيل وقت الحروب تتميز بشجاعة نادرة تغلب شجاعة فرسانها .

ويخصّ خيول المسلمين بقوله^(١) :

وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها فلم يُنجه برّ ولم يحمه بحرُ
أفي غدره بالخيل بعد يمينه بإنجيله بين الأنام له عذرُ
دعته إلى نكث اليمين وغدره بذمته النفسُ الحسيّةُ والمكرُ
وقد كان لون الخيل شتّى فأصبحت تُعادُ إلينا وهي من دمهم شقْرُ

فقد صورّ الشاعر الانتصار على الأعداء من خلال تغير لون الخيل الذي كان قبل بدء المعركة مختلفاً ، أما في نهايتها فقد أصبحت ذات لون واحد ، لا يستطيع أحد أن يميّزها عن بعضها ، فعدت خيول المسلمين تتحلى باللون الأشقر الذي اكتسبته من دماء الأعداء .

كما وصف سرعتها بقوله^(٢) :

وما تنثني عنه أعنة خيلنا ولو طارَ في أفقِ السّماءِ به النَّسرُ
كما أنّها تسارع إلى القتال وتستجيب لدعوة القائد ، وذلك من خلال أفعالها^(٣) :

وأجابته بالصّليلِ سُيوفُ ظمائماتُ ، وبالصّهيلِ خيولُ

كما أنّها هي المصاحبة للفرسان وتقودهم إلى الموت^(٤) :

رमित العدا بالأسد في أجَم القنا على الجردِ ، تقنأُ الردى وهو راغمُ

● السيف :

السيف من أهمّ أدوات الفارس ، فهو الذي يدلّ على الشجاعة والتلاحم بين الفرسان ، لذلك كان له نصيب كبير من شعر الفرسان ، فهو المصاحب الثاني لهم بعد الفرس . وله

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

(٣) السابق ، ص ٢٤٢ .

(٤) نفسه ، ص ٢٧٤ .

أسماء عديدة ، منها : الصمصامة ، المشرفي ، العضب ، الحسام ، الصارم ، المنصل^(١) ... ولا يعني أن الفارس يؤثر شيئاً من أدواته على الآخر ، وإنما يتفاوتون في مقدار عشقهم لها ، فهناك من الشعراء الفرسان من جاد في وصف الفرس حتى ارتبطت أسماءهم بها . وهناك من جاد في وصف السلاح ، من أمثال أوس بن حجر^(٢) الذي يقول في سيفه الذي أعده للقتال^(٣) :

وأبيض هندياً كأن غراره تألؤ برق في حبي تكلا
إذا سل من جفن تأكل أثره على مثل مصحاة اللجين تأكلا

فسيفه المصنوع في بلاد الهند - والتي اشتهرت بجودة سيوفها - يشبه في حده السحاب المرتفع الذي يتميز بشدة إضاءة برقه ، كما أنه إذا أُخرج من غمده توهج واشتد لمعانه كأنه مسحاة فضة .

يقول أبو فراس^(٤) :

تخالط فيها الجحفلان كلاهما فغبن القنا عنها ونبن البواتر

فعندما يختلط الجيشان فلا سلاح يغني غير السيف ، لذلك عبر الشاعر عن ذلك بغياب الرماح من أيدي الفرسان في ذلك الوقت .

وكذلك قوله^(٥) :

(١) ينظر : المخصص ، تأليف أبي الحسين علي إسماعيل ، المعروف بابن سيده ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، ١٦/٢ .

وكتاب السلاح ، تأليف : أبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق : حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ١٧ .

(٢) أوس بن حجر بن عتاب التميمي ، من فحول الشعراء ، جعله ابن سلام في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية .

(٣) ديوان أوس بن حجر ، تحقيق : د. محمد يوسف نجم ، دار بيروت ، بيروت ، ط ٢ ، ص ٨٤ وما بعدها .

(٤) ديوان أبي فراس ١١٢/٢ .

(٥) المصدر السابق ٣٠٦/٢ .

سلي عَنَّا سِراة (بني كلاب) بـ(بالس) عند مشتجر العوالي
لقيناهم بأسيافٍ قـصارٍ كفين مؤونة الأسل الطّوال

فأدوات الحرب لها أوقات تفضل فيه على بعضها البعض ، غير أنه يظل للسيف المكانة الخاصة ، فهو السلاح المستخدم عند المواجهة مع الفرسان واشتداد الحرب .

فالسيف مقدم على الرمح عند الفارس الشجاع ، يقول المتنبي^(١):

بضرب أتى الهامات والنصر غائب و صار إلى اللبات والنصر قادم
حقرت الردينيات حتى طرحتها وحتى كأنّ السيف للرمح شاتم^(٢)

فالرمح يستخدم لطعن مَنْ بَعْدَ ، أما السيف فيضرب به مَنْ قُرْبَ ، لذلك فهو المقرب إلى الفارس ، وإن كانت كلّ أدواته الحربية مقربة محبة إليه ، يقول أبو فراس^(٣):

فمالي إلا البيض والبيض والقنا ووجد كرام مخصرات الجوانب
ويقول أسامة^(٤):

ولم أذخرُ للدهرِ ، إن نابَ أو نَبَا وللخطبِ إلا صارمي وسِناني

" إنّ المحاربين إنما يستخدمون النبال حينما يكون الأعداء على بُعد يبيّن ، والرمح حينما يكونون أقلّ بعداً ، والسيوف هي الآلة التي يلجأ إليها حينما يتمّ الالتحام التام بين الأطراف المتقابلة ، وهي أيضاً الآلة التي يندر أن تخون أو تطيش ، بعكس الرمح الذي يخون عادة بانكساره ، والنبال الذي يطيش عن هدفه ، لكلّ ذلك يرتاح الشجاع إلى السيف ؛ إذ يجد فيه المتنفس الأكثر ضماناً لأحقادَه وأضغانه ... إذ نجدهم غالباً يعنون بسيوفهم أكثر . إنهم في اقتنائها راغبون ، وبها ضنينون ، وعلى

(١) ديوان المتنبي ٣٨٨/٢ .

(٢) الردينيات : الرماح .

(٣) ديوان أبي فراس ، ص ٤٩/٢ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٢٧٩ .

ارتباط أسمائها بهم حريصون" ^(١)، لذلك نرى أبا فراس يصوّر سيوفهم وقد تحوّل لونها إلى لون الدم ^(٢):

وَحُمِرِ سِوْفٍ لَا تَجْفَ لَهَا ظَبْيٌ بِأَيْدِي رِجَالٍ لَا يَحْطُّ لَهَا لَبْدٌ

فهذه السيوف براعتها من براعة فرسانها .

كما تتحكم الأسياف بالأعداء ^(٣):

طَلَبَ النَّجَاءَ بِنَفْسِهِ فَتَحَكَّمَتْ فِي جَيْشِهِ الْأَسْيَافُ أَيَّ تَحَكَّمِ

ويثبت لها الحكم حتى في أمر الفداء ^(٤):

قَالُوا الْفِدَاءَ وَلَا فِدَاءَ بَيْنَنَا إِلَّا بِحُكْمِ الْمَشْرِفِيِّ الْحَكَمِ

هِيَهَاتَ لَا صَلْحٌ وَقَدْ بَقِيَتْ لَنَا بَيْضَ رَقِيقَاتِ الظُّبْيِ لَمْ تُثَلِّمِ

ويستمرّ في عرض مهام السيف ، فيقول ^(٥):

كَمْ ذَاتَ حَجَلٍ مَا رَأَاهَا النَّاسُ قَدْ بَرَزَتْ لِأَعْيُنِهِمْ بِأَنْفٍ مُرْغَمِ !

خُطِبَتْ بِحَدِّ السِّيفِ حَتَّى زُوِّجَتْ كَرِهًا وَكَانَ صِدَاقُهَا فِي الْمَقْسَمِ

بَانَتْ وَصَاحِبُهَا بِعُرْسٍ حَاضِرٌ يُرْضِي الْإِلَهَ وَأَهْلَهَا فِي مَأْتَمِ

فالفداء لا يكون إلا بالسيف ، رغم أنّ هذه النظرة كانت عند الفارس قبل أن يؤسر ،

ولكن بعد أن جرّب الأسر ومرارته طلب الفداء الذي كان لا يقبل به إلا بالسيف ، ولذلك

نلاحظ عليه تبرير أسباب طلبه للفداء ، حتى لا يحدث تناقض بين أقواله وأفعاله ^(٦):

وَخَرِيدَةٌ كَرَمَتْ عَلَيَّ آبَائُهَا وَعَلَى بَوَادِرِ خَيْلِنَا لَمْ تُكْرَمِ

(١) ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت ، ص ١٥ وما بعدها .

(٢) ديوان أبي فراس ٩٢/٢ .

(٣) المصدر السابق ٣٧٧/٣ .

(٤) السابق ٣٧٩/٣ .

(٥) ديوان أبي فراس ٣٧٨/٣ .

(٦) المصدر السابق ٣٦٥/٣ .

خُطبت بحدّ السيف حتى زوّجت كرهاً وكان صداقها للمقسم
راحت وصاحبها بعرسٍ حاضرٍ يُرضي الإلهَ وأهلها في مآتم

ولقد أكثر أبو فراس من ذكر السيوف وأفعالها في أعدائه ، فيقول^(١):

وويلك من أردى أخاك بمَرْعَشٍ وجلّ ضرباً وجهه والدك العَضْبَا^(٢)
وسل صيدكم آل (الملايين) إننا نهبنا بيض الهند عزهم فبنا
ألم تُفْنِهِم قَتلاً وأسراً سيوفنا ؟ وأسد الشرى المَلأى وإن جَمَدت رُعبا ؟
بأقلامنا أبحرت أم بسيوفنا وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا

فلقد تكررت لفظة السيف أكثر من مرّة ، وهذا دليلٌ على المكانة العالية للسيف عند الفارس ، فقد نسب صفات الشجاعة إليه ، وبذلك اكتسب السلاح صفات إنسانية رائعة ، فسيوف العرب هي التي أفنت الأعداء ، إما بالقتل أو الأسر ، وهي التي أبحرت الدمستق الذي صورته بصورة مخزية ، فهو مثل الفار يلتجئ إلى الجحر ليستر وجهه بالتراب خوفاً وفزعاً من السيف الذي يتصيد^(٣):

عزماً بنا إن الحسامَ لكافلٍ بنفوسِهِمْ وشبّا الأصمّ اللّهذم
لأصارٍ منّ الجيش ما لم أستمع وقّع الصّوارمِ والقنا المتحطّم

فالشاعر يعتزّ بسيفه ، ولا يعترف بنسبة الجيش إليهم ؛ إذ لم يستمع لأصوات السيوف والرماح وهي تنكسر في أجساد أعدائه ؛ يقول^(٤):

وفي (طيّء) لما أثارت سيوفه كمأثمهم مرأى لمن كان مبصرا
ويقول^(٥):

وما صحبّني قطّ إلا مطيبي وعضبُ حسامٍ مخدّم الحَدِّ صارمُهُ

(١) ديوان أبي فراس ٣٦/٢ وما بعدها .

(٢) والعضب : السيف .

(٣) ديوان أبي فراس ٣٨٠/٣ .

(٤) المصدر السابق ١٩٨/٢ .

(٥) السابق ٣٨٢/٣ .

وإنَّ انفراد المرءِ في كلِّ مشهدٍ
والسيف مصاحب للفراس ، يقول^(١):

أقول لـ (مُطعم) لما التقينا
أجعلُ بيننا عشرين كعباً
وقد ولى وفي يدي الحُسامُ
وتهربُ سوءة لك يا غلامُ!

فالسيف من أهمِّ الأدوات التي يهدد بها الفرّاس أعداءه^(٢) بل هو أهمها:

سنضربهم ما دام للسيفُ قائمٌ
ونقطعنهم ما دام للرمح لهذمٌ
ونعتقل الصمّ العوالي إتها
طريقٌ إلى نيل المعالي وسلمٌ
رأيتهم يرجون ثأراً بسالفٍ
وفي كلِّ يومٍ يأخذ السيفُ منهم

فقد نسب الشاعر إلى السيف عدة أعمال جليلة تبين عظيم مكانته لدى فرّاسه .

ويقول^(٣):

وولّى على الرسمِ الدُّمستقُ هارباً
فدى نفسه بابنٍ عليه كنفسه
وفي وجهه عذراً من السيف عاذراً
وللشدّة الصماء تقنى الذخائر!

فالشاعر يصوّر هروب ملك الروم وفي وجهه أثر السيف ، ذلك الأثر الذي سيبقى خير

دليل على قوّة المسلمين بفعل سيوفهم وضعف أعدائهم ..

ويقول^(٤):

ويومٌ للكمأة به اعتناقٌ
بقاء البيضِ عمرُ الشملِ فيهم
ولكنّ التصافح بالصفاح
وحطّ السيف أعمار اللقاح

ويقول^(٥):

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٦٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/٣٨٧ وما بعدها .

(٣) السابق ٢/١١٨ .

(٤) نفسه ٢/٦٢ .

(٥) نفسه ٢/٢٦٠ .

إذا بليت بنصل السيف منصلتاً
فما أبالي أوالى الدهر أم جافي
ويقول^(١):

لا عزّ إلا بالחסامِ المخدّمِ
وقراع كلّ كتيبةٍ بكتيبةٍ
وضراب كلّ مدججٍ مستلّم^(٢)
ولقاء كلّ عرمرمٍ بعمرم^(٣)

فالسيف هو مصدر العزّ الوحيد للفارس ، فهو رمز القوة التي يحتاجها ، ويؤكد على ذلك بقوله^(٤):

ظفروا بها بالسيف أول مرةٍ
وبقاؤها بالسيف أصبح فيهم
فهو بذلك يثبت القوة والسيادة والحكم للسيف .

وجعل أدواته - وفي مقدمتها السيف - هي التي تطالبه بالشجاعة ، ويعتذر لها بقوله^(٥):

تُطالبني بيض الصّوارمِ والقنا
ولكنّ دهرًا دافعتي خُطوبُهُ
بما وعدت جديّ فيّ المخايلُ
كما دافع الدّين الغريمُ المماطلُ
ومن بديع وصفه للسيف ، قوله^(٦):

بكلّ حسامٍ بين حديّه شعلةٌ
على كل طيار الضلوع كآته
بكفّ غلامٍ حشو درعيه خادرُ
إذا انقضّ من علياء فتخاء كاسرُ

وكذلك نجد أسامة يخبر مثل أبي فراس بوقت استخدام السيف ، وذلك بقوله^(٧):

صبرٌ إذا ما ضاق مُعتركُ القنا
فرجت سيوفهم مضيق المنهج

(١) ديوان أبي فراس ٣٧٦/٣ وما بعدها .

(٢) المخدّم: السيف القاطع . مدحج: لابس السلاح . المستلّم: اللابس الأمانة ، وهي الدرع .

(٣) العرمرم: الجيش العظيم .

(٤) ديوان أبي فراس ٣٧٧/٣ .

(٥) المصدر السابق ٢٩١/٢ .

(٦) السابق ١٢٠/٢ .

(٧) ديوان أسامة ، ص ٢٥٩ .

فعندما يلتقي الفرسان في ساحة الحرب ، لا سلاح يفيد إلا السيف ، ولا تجد الرماح - رغم أهميتها - مكاناً ؛ وذلك لتقارب المتحاربين .

ويعتزّ أسامة بمصاحبته لسيفه في الحروب ، فيقول^(١) :

بصارمٍ من رآه في قتامٍ وغيٍّ أفري به الهامَ ظنَّ البرقَ قد لمحا
أغدو لنارِ الوغى في الحربِ إن خمدت بالبيض في البيض والهلمات مُقتدحا

فقد رسم الشاعر صورة جميلة لمنظر سيفه حينما ينهال على رؤوس الأعداء ، فهو من شدة ضربه به يظنّ من رآه أن البرق قد لمحا ، فسيفه قويّ شديد اللمعان ، وقوة هذا السيف مستمدة من قوة صاحبه .

ويقول فيه أيضاً^(٢) :

أخوضها كشهاب القذفِ يصحبي غضبٌ كبرقٍ سرى أو ضوء مقباسٍ
إذا ضربتُ به قرناً أنزله أوحاه عن عائدٍ يغشاهُ أو آسي

فالشاعر يشير إلى مشاركة السيف له في معاركه ، فهو الأداة الفعالة للقضاء على الأعداء .

ويقول أسامة معبراً عن فروسيته من خلال أدواته^(٣) :

وأبيك ما أحجمت عن خوض الردى في الحرب يشهد لي بذاك المنصل^(٤)

فقد أخذ الشهادة من أدواته القتالية ؛ لأنها هي التي شاركته الحروب ، وهي الأجرى بإثبات الشجاعة له .

ويقول واصفاً أفعال أدواته الحربية^(٥) :

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٣) السابق ، ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٤) المنصل : السيف .

(٥) نفسه ، ص ٢١٨ وما بعدها .

والبيض دون خدور البيض مُصلته
والبيضُ والسمرُ لا تُروى بغير دمٍ
صدين حتى جلاها في النحور وفي الـ
حكت جداول ماء غير مُطردٍ
من كلّ جائشة الأرجاء بالزبدِ
هواماتٍ أروعُ يُروى غلّ كلّ صدِ

فسيوفهم ورماحهم لا تُروى بغير الدماء ، بل إنه ليصيبها العطش حتى يحملها فارسها
للارتواء من دماء الأعداء .

ويقول واصفاً لمنظر تلك الأدوات في المعارك^(١):

موقف توديع ترى البيضَ به شهباً وهابي النقع ليلاً أسودا

فما أجمل الموقف الذي يصفه الفارس ، وما أبدعه !.

ويقول^(٢):

وهمّ الملوك البيضُ والسمرُ كالدمي
صوارمنا حمراً المضارب من دمٍ
ولم يبقَ إلا من أسرنَ وكيف بالـ
وهمتنا البيضُ الصوارمُ والسمرُ
قوائمها من جودنا نَضرةً خضرُ
بقاءً لمن أخنت عليه الظبا البترُ

وجعل أسامة من السيوف مفاتيح للحصون والقلاع^(٣):

إذا استغلقت شَمَّ الحصونِ فعندنا مفاتيحها بيضٌ مضاربها حُمُرُ

ويؤكد على هذه الميزة لسيوفهم بقوله^(٤):

وإن وعدوا بالغزو نظماً فهذه سنلقى العدا عنهم بيضٍ صقالها
رؤوسُ أعاديهم بأسيافنا نثرُ
هداياهم والبترُ يرهفها البترُ

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(٣) السابق ، ص ٢٥٤ .

(٤) نفسه ، ص ٢٥٦ .

ويقول مخاطباً طلائع^(١):

لك الفضل من دون الورى والمكارم فمن حاتم ما نال ذا الفخر حاتم
وصلت فأغنيت الأنام عن الحيا وصلت فخافت من سطاك الصوارم
فقد جعل للقائد هيبة يخاف منه حتى السيوف ، فأكسب السيوف صفات إنسانية ،
حيث نسب الخوف إلى سيوف الأعداء .

أما سيوفهم فهي شجاعة مثل أصحابها . يقول مثبتاً الشجاعة لها^(٢):

فلما أبادتكم سيوفك وانحلت عن الأرض منهم ظلمة ومظالم
ويؤكد على العمل البطولي لهذه السيوف بقوله^(٣):

حذار من مصرع الباغين قبلكم فالسيف منصلتٌ في كفّ مصطم
وفي تميمٍ ومَن والاه موعظةً إنذارها يُسمع الأموات في الرجم
كم غمّة كشفت عنكم صوارمه ولم يزل كاشفَ اللأواءِ والغمم
● الرَّمح :

يُعدّ الرمح من الأسلحة المهمة للفارس ، فبه يوجّه طعناته للأعداء . وقد أطلق العرب
عليه العديد من الأسماء ، فأسموه بالخطي ، والسهمري ، والقنا ، والرديني ، وغيرها من
الأسماء^(٤) ..

" وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمر بن معديكرب : أخبرني عن السلاح ؟. قال : سل
عما شئت منه ، قال : الرمح ، قال : أخوك ، وربما خانك . قال : النبل ، قال : منايا
تخطئ وتصيب . قال : الترس ، قال : ذاك المِجَنّ ، وعليه تدور الدوائر . قال : الدرّع ؟.
قال : مثقلة للرجال ، متعبة للفارس ، وإنّها لحصن حصين . قال : السيف ؟. قال : ثم

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(٣) السابق ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

(٤) ينظر : المخصص ، وكتاب السلاح .

قارعتك أمك عن الثكل . قال عمر : بل أمك . قال : (الحمى أضرعتني لك) ^(١) .

يقول أوس بن حجر في الرمح ^(٢) :

وإني امرؤٌ أعددتُ للحربَ بعدما رأيتُ لها ناباً من الشرِّ أعصلا
أصمَّ رُدِينياً كأنَّ كُعبَوه نوى القَسْبِ عَرَّاصاً مُزَجَّجاً مُنْصَلاً
عليه كَمِصباحِ العَزِيزِ يَشْبُهه لَفِصْحٍ وَيَحْشُوهُ الذَّبَالُ الْمُفْتَلَا

فعددة رمحه الرديني كأنها تمر يابس ؛ لصلابتها ، وهو رمح يشبه سراج الملك في يوم الفصح عند النصاري ؛ لشدة توهجها واشتعالها في الأجساد .

ويقول أبو فراس في شدة اتصاله بالرمح ^(٣) :

رُحْمِي أَخِي وَمَعَاوِنِي فِي شِدَّتِي نَعَمَ الْمَعَاوِنُ لِلشَّجَاعِ الْحَسَنِ !
وَحَمَلْتَهُ لِلطَّعْنِ فِي يَوْمِ الْوَعْيِ وَعَلَامَ أَحْمَلُهُ إِذَا لَمْ أَطْعَنْ !

لذلك نجد أبا فراس يؤكد على أهمية هذا الرمح له ، وأنه أداة للطعن في الحرب . فالفارس شديد الارتباط برمحه ، فهو الأخ المعاون للفارس في الشدة ، أما غير الفارس فقد يكون أداة للقضاء عليه .

ويقول ^(٤) :

وَإِنَّ امْرَأً لَمْ يَجْعَلِ الطَّرْفَ حِصْنَهُ وَسُمِرَ الْقَنَا إِخْوَانَهُ غَيْرُ حَازِمٍ ^(٥)

ويؤكد المتنبي هذه العلاقة ، بل يبالغ في وضعها بقوله ^(٦) :

وَإِنْ عَمِرَتْ جَعَلَتْ الْحَرْبَ وَالِدَةَ وَالسَّمْهَرِيَّ أَخاً وَالْمَشْرَفِيَّ أَبَا

(١) عيون الأخبار ١/١٢٩ وما بعدها .

(٢) ديوان أوس بن حجر ، ص ٨٣ وما بعدها .

(٣) ديوان أبي فراس ٣/٤٠٤ .

(٤) المصدر السابق ٣/٣٨٣ .

(٥) الطرف : كريم الأصل من الخيل .

(٦) ديوان المتنبي ١/٢٤٦ .

فمن الملاحظ على أبي فراس أن ربحه قريبٌ منه ؛ لذلك أكثرَ من ذكره ، وقدمه في شعره على أدوات الحرب الأخرى أكثر من مرة ، ولعلَّ مرَدَّ ذلك أن أكثر معاركه استخدم فيها الرمح ، ولم يواجه الأعداء ؛ لأنَّهم أجبن من أن يواجهوا فارساً مثله^(١) :

إِبَاءٌ إِبَاءٌ الْبَكْرِ غَيْرُ مَذَلِّ وَعِزْمٌ كَحَدِّ السِّيفِ غَيْرُ مَقْلَلِ
أُغْضِي عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ وَلَمَّا يَقُمُ بِالْعُنْدِ رُحْمِي وَمَنْصَلِي
أَبِي اللَّهِ وَالْمَهْرُ الْمُنِيعِيُّ وَالْقَنَا وَأَبْيَضُ وَقَاقُ عَلَى كُلِّ مَفْصَلِ
ويقول معبراً عن الدور العظيم للرمح^(٢) :

عجبت وقد لقيت بني (كلاب) وأرواح الفوارس تُستباحُ
وكيف رددت غرب الجيش عنهم وقد أخذت مآخذها الرِّمَّاحُ
ويقول^(٣) :

وعطافٍ على الغمرات نحوي تحفُّ به المثقفة الطَّوالُ
تركتُ الرمحَ يخطرُ في حشاهُ له ما بين أضلعه مَجَالُ
يقولُ وقد تعدَّلَ فيه رُحْمِي (لأمرٍ ما تحاماك الرِّجالُ) !

فقد افتخر أبو فراس باستخدامه للرمح ، على الرغم من أنه غالباً ما يُستخدم عن بُعد ؛ وذلك ليثبت شجاعته وسرعته ودقته في الطعن ، ويقلل من شأن أعدائه الذين يتحاشون مواجهته بالسيوف .

كما يجعل أبو فراس من أدواته شاهداً على فروسيته وبراعته في القتال ، وخصَّ الرماح بقوله^(٤) :

(١) ديوان أبي فراس ٢٨٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ٦٦/٢ .

(٣) السابق ٢٩٩/٢ .

(٤) نفسه ٢٧٩/٢ ، وينظر : ٤٠٦/٣ .

يعيبُ عليّ إذ سَمَّيتُ نفسي
فقل للعلجِ لو لم أَسْمِ نفسي
وقد كانت الرماح سبباً في السيادة لهم^(٢):

بأطرافِ المثقفة الطَّوالِ
وما تحلوا مَجاني العزِّ يوماً
تفردنا بأوساطِ المعالي
إذا لم تجنِّها سُمرُ العوالي

فقد خصَّ الشاعر الرماح الطويلة ؛ لما لها من مميزات على غيرها ، فمن " مميزات الرمح الطويل أنه أقوى فتكاً ، وأنه يطعن به من بعد " ^(٣).

ويقول^(٤):

علونا (جوشنا) بأشدّ منه
بجيشِ جاشٍ بالفرسانِ حتى
وألسنه من العذباتِ حُمِر
فجادت ليلها سحاً وهطلاً
وأثبت عند مشتجرِ الرماح
ظننت البرّ بحراً من سلاح
تُخاطبنا بأفواه الرماح
وتسكاباً كأفواه الجراح

وقال^(٥):

ما كنتُ أبدلُ نفسي للرماح ولا
ألقى الكميّ بقلبٍ غيرٍ مُختلسٍ
ويقول^(٦):

ألا ليت قومي والأماني كثيرةً
شهودي والأرواحُ غيرُ لوابثٍ

(١) القنا : الرماح .

(٢) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٣٨ .

(٣) معجم التراث السلاح ، سعد بن عبد الله الجنيدل ، داره الملك عبد العزيز ، د.ط ، ١٤١٧هـ ، ص ١٢١ .

(٤) ديوان أبي فراس ٢/ ٦٥ .

(٥) المصدر السابق ٢/ ٢٣٧ .

(٦) السابق ٢/ ٥٧ .

غداة تُناديني الفوارسُ والقنا تردّ إلى حدّ الظبا كلّ ناكثٍ
(أحارث) إن لم تُصدرِ الرّمحَ قانياً ولم تدفعِ الجُلّيّ فلستَ (بحارث)

ويقول معبراً عن شجاعته وارتباطه بالرماح^(١):

وأهنتُ نفسي للرماح وإنه من لم يهن بين القنا لم يكرم
ويقول^(٢):

فلما أن طغت سفهاء (كعب) فتحننا بيننا للحربِ باباً
منحناها الرغائبَ غير أنّا إذا شئنا منحناها الحرابا

فالرماح هي الأداة الفعالة في الحروب ، وهي الوسيلة السريعة في التغلب على الأعداء^(٣):

سقيننا بالرّماح بني (قشير) ببطن (العُشير) العُمّ المذابا
وأمطرن (الجباة) بمُرجحن ولكن بالطعانِ المرّ صابا

وللرماح سكن في قلوب أعدائهم ، يقول أبو فراس^(٤):

وزرّق تشقّ البرد عن مُهَج العدا وتسكنُ منهم أينما سكن الحِقْدُ
ويقول^(٥):

ويومٍ تخال الرّعدُ في جنباته لشدة أصواتِ القنا والهماهم
شفيتُ بعزمٍ صادقٍ غير كاذبٍ ورُمحِ رُدَيْنيّ وأبيضِ صارمٍ

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٧٧ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٣ .

(٣) السابق ٢/١٥ .

(٤) نفسه ٢/٩٢ .

(٥) نفسه ٣/٣٨٣ .

كما وصف الشاعر الفارس ديونه التي عند الأعداء ، وتكلفت الرماح بسدادها^(١) :

إذا ما عن لي أربُّ بأرضٍ ركبْتُ له ضَمِيناتِ النجاحِ
ولي عند العُداةِ بكلِّ أرضٍ دُيونٌ في كَفالاتِ الرِّماحِ
ويقول^(٢) :

لأَملاكِ البلادِ عليّ طعنٌ يحلُّ عزيمةَ الدَّرعِ الوقاحِ
وما للمالِ يزوي عن ذويه ويُصبحُ في الرعايدِ الشَّحاحِ
لنا منه وإن لُوِيَتْ قَليلًا ديونٌ في كَفالاتِ الرِّماحِ
ومن ذلك قول عنتره^(٣) :

إذا خَصَمي تقاضاني بِدِينِ قَضيتُ الدَّينَ بِالرُّمَحِ الرُّدِينِ
ويقول أبو فراس واصفًا فعل الرماح في الأعداء^(٤) :

وأرماحنا في كلِّ لَبَّةٍ فارسٍ تثقَّبُ تثقيبَ الجُمانِ وتَنْظُمُ
وكذلك يصف أسامة عمل الرماح في الأعداء بوصفٍ رائع^(٥) :

وكلُّ أَسْمَرٍ فِيهِ لَهْذَمٌ ذَرِبٌ لَجذوةِ النارِ لم تُقبَسِ ولم تُقَدِ
إذا تَسَدَّدَ داوِيٌّ كَلَّ ذِي لَدَدٍ وإن تَأوَّدَ ساوِيٌّ مَيْلَ ذِي الأَوَدِ

فقد صورَّ الرمح بجذوة النار التي لم تقبس ، وأن فيه الدواء الذي يشفي .

كما وصف الرماح وقت الحرب - لكثرتها - بالشجر الكثيف الملتف ، وذلك بقوله^(٦) :

كلُّ أرضٍ فيها من الأَسَدِ جيشٌ سائرٌ فوقه من السُّمْرِ غيلٌ

(١) ديوان أبي فراس ٦٤/٢ .

(٢) المصدر السابق ٦٤/٢ .

(٣) ديوان عنتره ، ص ١٧٢ .

(٤) ديوان أبي فراس ٣٨٧/٣ .

(٥) ديوان أسامة ، ص ٢١٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

كسّاط وشي جردت أيدي القيون عليه نصلا
ويقول أسامة^(١):

أبا حسنٍ وافي كتابك شاهراً صوارم عتب كلّ صفح لها حدّ
فقابلت بالعتبي مضيض عتابه ولم يتجهّمهُ الحجاجُ ولا الجحدُ
وأعجبني عيّبي لديه ولم أزل إذا لم تكن خصمي لي الحججُ اللدّ
كما لم تخلُ حِكمَ الفرسان من ذكر أدوات الحرب . يقول أسامة^(٢):

ولا تحتقرُ كيدَ الضعيفِ فإنما تقدُّ شفارَ المرهفاتِ المباردُ
ويقول^(٣):

وجنّتي من زماني حُسنُ رأيك لي أكرم بها جنّة لا البيضَ والزغفا^(٤)
لم يجد الشاعر أفضل من السيوف والدروع ليعبر عن حبه ، فهو يعلم أنّه من يخاطبه
على علم بشغفه بالسيوف ، ولكنه يثبت له أنّ عنده أفضل منها .
وقال^(٥):

صحاً ، وللجهل أوقاتٌ وميقاتُ وللغوايات والأهواء غاياتُ
رأى المشيبَ كبيضِ الهندِ لامعةً لها على فوده الغريبِ إصلا^(٦)
وقال^(٧):

لا تغتورر بنحولٍ خصرٍ أهيفٍ فالموتُ في حدّ الحسامِ المرهفِ

(١) ديوان أسامة ، ص ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ١٧٦ .

(٤) الزغف : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

(٦) الغريب : الشديد السواد . أصلت السيف : جرّده .

(٧) السابق ، ص ٧٨ .

وهذه الصورة ناتجة عن خبرة وتجربة ، فالسيف المرهف له وقع كبير في الأجساد .

وذكر الرماح في غزله فقال^(١):

ظبي تغار الشمس من حسنه ماء الحيامن خده يقطر
مُتيسم عن جواهر رائع يفوح منه المسك والعنبر
إذا مشى أخجل سمر القنا وحرار فيه عقل من ينظر
وقال^(٢):

ولحظ أم سنان ركبوه بأسمر من نبات الخط لدن

إن أهم الأدوات الحربية دوراناً في شعرهما ، هي تلك الأدوات الهجومية التي تستخدم في الهجوم على الأعداء . ولقد خصّ السهم بحضور مميز ، لاسيما في أغراضهما الشعرية الأخرى . أما الأدوات الدفاعية فقد أتت في شعرهما على شكل إشارات سريعة .

يقول أبو فراس^(٣):

بخلت بنفسي أن يقال مبخل وأقدمت جناً أن يقال جبان
وملكي بقايا ما وهبت مفاضةً ورُمح وسيف صارم وسنان

فالفارس الكريم لا يبقى من أملاكه إلا درعه ، ورمحه ، وسيفه القاطع ؛ لأنه أعلى ما يملك ، فقد ذكر الدرع من ضمن الأدوات ، ولم يفصل في وصفه .

وكذلك يقول أسامة^(٤):

وثير حشاينا السروج وقمصنا الد روع ومنصب الخيام لنا قصر
ترى الأرض مثل الأفق وهي نجومه وإن حسدتها عزها الأنجم الزهر

(١) ديوان أسامة ، ص ٧٣ .

(٢) نفسه ، ص ٩٧ .

(٣) ديوان أبي فراس ٤٠١/٣ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٢٥٣ .

فهذه الأدوات ما هي إلا وسيلته لتحقيق أهداف الفارس المنشودة ، وباعتبار أن اهتمامه بسلاحه نابع من حرصه على إبراز البطولة وإثباتها لنفسه ، فقد استطاع الفارس أن توظيف أدوات الحرب في شعرهما خير توظيف ؛ وذلك لغرض إبراز قوتهما البطولية ، فقد أكسبا أدواتهما صفات إنسانية عدّة ، فهي تقاتل وتبيد ، وتخاف ، وتخطب ، وتحكم ... وتقوم بجميع الأعمال البطولية التي يقوم بها الفارس ، فلذلك اهتمّ الشاعران الفارسان بذكرها في شعرهما ، وحرصا على أن يكون لأدواتهما الحربية الهجومية النصيب الأوفر ، فكان اهتمامهما منصباً على تلك الأدوات الهجومية دون الدفاعية ؛ وذلك ليظهر مدى ما تحلّيا به من شجاعة وقوّة ، فالهجوم هي الصفة الملازمة للفارس ؛ لأنّه حريص على الهجوم على الأعداء ، قوي لا يحتاج إلى الأدوات الدفاعية التي يتنافى استخدامها مع حقيقة إقباله على الموت وحرصه عليه في ساحات الوغى ، ولذلك نادراً ما يشغل نفسه بوصف الأسلحة الدفاعية .

وخير مثال على ذلك : قول أبي فراس^(١) :

وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ إِلَّا فِرَارًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْمَيَّةِ أَوْ حَمَامَا
حَمَلْتُ عَلَى وُرُودِ الْمَوْتِ نَفْسِي وَقَلْتُ لِعُصْبَتِي (موتوا كراماً) !
وَلَمْ أَبْذُلْ لِحَوْفِهِمْ مِجَنًّا وَلَمْ أَلْبَسْ حِذَارَ الْمَوْتِ لَأَمَّا^(٢)

فكيف يصف الشاعر الفارس أدوات يرى أنّ استخدامها نقص في فروسيته ؟.



(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٦٣ .

(٢) المجن : الترس . اللام : الدرع .

المبحث الثالث : المعركة ونتائجها :

بطولة الفارس العربي لا تتجلى بكثرة إلا في خضمّ المعركة ، لذا فقد كان للمعركة نصيبٌ من شعر الفارسيين الشعاعيين ، يتعرض البحث لذكرها في هذا المبحث - بمشيئة الله - .

فالفارس الشاعر يكون له في الحرب فعالٌ يحرص على إثباتها في شعره ؛ ليجعل منه سجلاً تاريخياً لمعاركه ضدّ أعدائه .

وقد أثنى أبو فراس بالعجز عن وصف المعركة ؛ يقول جورج غريب : " ولو أنّ عنايته بالوصف بلغت عنايته بالرواية وسرد الأخبار ، لأعدّ أن يترك في الشعر الملحمي ما ترنو إليه الآداب العربية في هذا الباب " ^(١) .

والبعض يرى أن أكثر شعره في الحرب ، " وأشعار أبي فراس في حروب الروم تشكل الحيز الأكبر من ديوانه ، ويتميز بعضها بطول النفس ، وقد قال كثيراً منها وهو في أسره بالقسطنطينية " ^(٢) .

غير أنّ تلك الكثرة من الأشعار لم تُعنَ بالوصف التفصيلي ، وكذلك أسامة .

فمع تفسيرهما الصادق عن معاركهما ، إلا أنّهما لم يتعدّا كونهما قد عدّدا بطولاهما ، فإن الملاحظ على وصفهما للمعارك لم يكن الوصف التفصيلي للمعركة وما دار فيها من أحداث ، كأن الشاعرين أرادا للقارئ أن يحرك خياله ويترك له العنان ؛ ليتصوّر عجائب الفروسية وفنونها التي أظهرها الفرسان في المعركة ، فهما شاعران لا يريدان من وصفهما تكسباً حتى يجهدا فكرهما طمعاً بالمال ، وإنما كان اهتمامهما بشعرهما نابعاً من حرصهما على إظهار الفروسية والدعوة إلى طلبها ، والحرص على التحلي بها ، وتمجيداً لذكرها وذكرهما معها . وقد أظهر البحث في المبحث الأول من هذه الدراسة ما يؤكّد هذا القول .

(١) أبو فراس الحمداني ، دراسة في الشعر والتاريخ ، جورج غريب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧١ م ، ص ٩٦ .

(٢) في الأدب العباسي ، عز الدين إسماعيل ، الرؤية والفن ، عز الدين إسماعيل ، دار النهضة العربية ، بيروت ،

١٩٧٥ م ، ص ١٦٤ .

يقول بطرس البستاني متحدثاً عن أبي فراس : " له رائية طويلة تبلغ مائتي بيت وخمسة عشر بيتاً ، تكاد تشتمل على جميع خصائصه في الفخر ، أكثرَ فيها من ذكر الغزوات والوقائع . ولو عني بالوصف والتصوير ، كما عني عني بسرد الأخبار ، لترك ملحمة من فرائد الشعر القصصي . (ووصفُ المعارك والجيوش والعُدُد ضعيف في شعر أبي فراس على الإجمال ، فقد كان همّه تعداد انتصاراته ، والإدلال بشجاعته وكرمه ، وعفته وحلمه) " (١) .

فهذا مرتبط بنفسية الشاعر ، حيث يرى أن وجوده في المعركة يكفي أن يكون أفضل من أيّ وصف ، فمعركة هو فيها معلومة نتائجها ؛ إذ إنه الفارس الذي لا يشقّ له غبار . فلو شاء أن يطيل في وصف المعركة لم يعجز عن ذلك ، وهو الشاعر الذي طال به النفس ، حتى وصلت إحدى قصائده إلى مائتين وخمسة وعشرين بيتاً ، بل ذلك البعد عن الوصف للمعركة ؛ لعلمه أنه مهما بلغ من ذلك الوصف لن يكون كالفعل الذي دار فيها ، وقد عبر عن ذلك بقوله في وصف بطولة سيف الدولة (٢) :

ألا قُلْ (لسيفِ الدولة) القرمِ إني على كلِّ شيءٍ غيرِ وِصفِكَ قَادِرٌ

فلم يكثر أبو فراس من وصفه للمعارك ، وعلل ذلك بقوله : " أيامُ أسلافي ، ومفاخرُ آبائي وأجدادي ، أكثرُ من أن يجمعها شعري ، فقد اضطرتُّ إلى ذكر الوقائع المشهورة والعساكر الجامعة ، فلم أذكر من الوقائع إلا ما كان بقبائل بأسرها ، فلو عددتُ ما عددتُ العربُ أمثاله ، مثل : يوم (رحرحان) ، ويوم (فيف الرّيح) ، ويوم (شعب جبّله) ، لعددتُ ما لا تسعه الكتبُ ، فاقتصرتُ على ما ذكرتُ ، والفضلُ مشتركٌ " (٣) .

وهذا القول ليس بمستغرب على شاعرٍ كان الفخرُ سلاحه البارز في أغلب ديوانه ، وهذا ما يبرز طغيان شخصية الفارس على شخصية الشاعر . فهو يرى أن شعره عاجزٌ على أن يرصد فروسيته وفروسية أجداده ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، بحيث إنه لو حاول رصدها لعجزت الكتب عن احتواء هذه البطولة .

(١) أدباء العرب في الأعصر العباسية ، بطرس البستاني ، دار نظير عبود ، طبعة جديدة منقحة ، ص ٣٧١ .

(٢) ديوان أبي فراس ١١٥/٢ .

(٣) المصدر السابق ١٠٢/٢ .

ومن أبرز قصائد أبي فراس في وصف المعارك ، قصيدته المشهورة^(١) :

لعلَّ خيالَ العامريّةِ زائرُ فيسعدَ مهجُورٌ ويُسعدَ هاجرُ !

فقد بدأ الشاعر هذه القصيدة بغزلٍ على عادة الشعراء ، ولكنه غزل ممزوج بالفروسية ، فهو يقابل محبوبته فيجدها قد اتخذت لها ستائر من دروع المقاتلين ؛ ليدودوا عنها .

وبعد عرض مطوّل للغزل ، ينتقل إلى الفخر بمآثر قومه البطولية ، فمن ذلك قوله^(٢) :

فجدي الذي لمّ العشيرة جوده وقد طارَ فيها للتفرّق طائرُ
تحمّل قتلها وساق دياتها حمولٌ لما جرّت عليه الجرائرُ
ودى مائة لولاه جرّت دماؤهم موارِدَ موتٍ مالهنّ مصادِرُ

فلم يغفل الشاعر عن رصد محاولات الصلح بين القبائل وتحمل الديات ؛ لمنع الحروب التي تجرّ عليهم الويلات ، فهي من أجل الأعمال التي يفخر بها الفارس الشاعر ، ويتحدّث عن عمّه فيقول فيه^(٣) :

وعمي الذي أردي (الوزير) وفاتكاً وما الفارسُ الفتاكُ إلا المُجَاهرُ
أذاقهُما كأسَ الحِمَامِ مشيّعُ مُشاورُ غاراتِ الزّمانِ مُساورُ
يُطيعهُم ما أصبحَ العَدْلُ فيهم ولا طاعةٌ للمرءِ والمرءُ جائرُ

فلم يكتفِ بذكر بطولات عمّه ، وإنما ذكر السياسة العسكرية التي يتحلّى بها في مواجهة أعدائه .

ومن أهمّ ما ذكره من غزوات في هذه القصيدة : هو غزوهم للروم ، حيث يقول في ذلك^(٤) :

(١) ديوان أبي فراس ١٠٣/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٠٩/٢ وما بعدها .

(٣) السابق ١١١/٢ .

(٤) نفسه ١١٤/٢ .

غزا الروم لم يقصد جوانب غرة
فلم تر إلا فالقاً هاماً فيلق
ومستردفات من نساء وصبية
بنيات أملاك أتين فجاءة
ولا سبقته بالمراد النذائر
وبحراً له تحت العجاجة ماخر!
تثنى على أكتافهن الصفائر!
قهرن وفي أعناقهن الجواهر!

فصور الشاعر جوّ المعركة التي كثر الطعان فيها ، حتى إن أرض المعركة تحولت إلى بحر من كثرة الدماء ، والغبار يتطاير من حوافر الخيل .

وبعد ذلك انتقل إلى وصف ما لحق بنسائهم ، وخصّ بنات الملوك بالذكر ؛ إمعاناً منه بمزيد من القهر والذلّ للأعداء ، فهم غير قادرين على حماية نسائهم .

ويقول^(١) :

بناهن بان الثغر والثغر دارس
ونازل منه (الديلمي) (بأرزن)
وذلت له بالسيف بعد إبانها
وشق إلى ثغر (الدّمستق) جيشه
سقى (أرسناساً) مثله من دمائهم
وعامر دين الله والدين دائر
لجوج إذا ناوى مطول مصابر^(٢)
ملوك بني (الجحاف) تلك المساعر
بأرض (سُلام) والقنا متشاجر
عشية غصت بالقلوب الحناجر^(٣)

فقد عبّر الشاعر عن البطولات التي حققها سيف الدولة ، حتى إنه هو بنفسه من قاد الجيوش إلى أرض الروم ، حتى سقى نهرهم بدمائهم .

كما عبّر الشاعر عن الحرب التي انتهت بالمصاهرة بين سيف الدولة والأخشيذ - ملك مصر - ، حيث تزوج سيف الدولة ابنة الأخشيذ^(٤) :

فلما رأى (الإخشيذ) ما قد أظله
تلافاه يثني غربه ويكاشر

(١) ديوان أبي فراس ١١٦/٢ .

(٢) الديلمي : أحد الذين عاصر سيف الدولة .

(٣) أرسناسا : نهر في بلاد الروم .

(٤) ديوان أبي فراس ١١٧/٢ .

رَأَى الصَّهْرَ والرُّسْلَ الَّذِي هُوَ عَاقِدٌ يُنَالُ بِهِ مَا لَا تَنَالُ الْعَسَاكِرُ

فقد أيقن الإخشيد أنه سوف ينال من مصاهرته له ما لم ينلّه بجيوشه : " والحقّ أنّ أبا فراس كان صادقاً فيما ذهب إليه في هذين البيتين من أنّ العلاج الذي يستدعيه خلاف الإخشيد وسيف الدولة لم يكن في الحرب على الإطلاق ، ولكن كان في المسالمة والملاينة " (١).

ثم عاد الشاعر إلى ذكر أرض الروم وما دار فيها من معارك طاحنة بين الطرفين (٢) :

وأَوْقَعَ فِي (جُلْبَاطٍ) بِالرُّومِ وَقَعَةً بِهَا (الْعَمَقُ) وَ(الْمُكَّامُ) وَ(الْبَرْجُ) فَاخْرُ (٣)
وأوردَها بطنَ (اللُّقَانِ) وظَهْرَهُ يَطَّانُ بِهِ الْقَتْلَى خِفَافٌ حَوَادِرُ
أَخَذَنَ بِأَنْفَاسِ (الدَّمَسْتِقِ) وَابْنِهِ وَعَبَّرَنَ بِالتَّيْجَانِ مَنْ هُوَ عَابِرُ !
وَجُبْنَ بِلَادِ (الرُّومِ) سَتَيْنَ لَيْلَةً تُغَاوِرُ مَلِكَ الرُّومِ فَيَمْنُ تُغَاوِرُ
تَخْرُ لَنَا تِلْكَ الْمَعَاقِلُ سُجْدًا وَتَرْمِي لَنَا بِالْأَهْلِ تِلْكَ الْمَطَامِرُ

فالشاعر يعبر عن الفخر بتلك الهزائم التي حلت بالروم في أرضهم ، وقد شاركهم ذلك المجد حيولاً تدوس القتلى بجوافره من كثرتهم ، ولم يغفل عن تحديد المدة التي يستغرقها ، فعدّها ستين ليلة .

ثم عبر عن خنوع تلك المعازل وذللها لهم ، فهي تخرّ سجداً ، وهذه مبالغة من الشاعر يقوده لها غروره المعروف عنه ، كما عرض الشاعر صورة مخزية لعدوّه ، وذلك بقوله (٤) :

وَإِبْنَ (بِقِسْطَنَظِينَ) وَهُوَ مَكْبَلٌ تَحْفُ بِطَارِيقٍ بِهِ وَزَرَاوِرُ
وَوَلَّى عَلَى الرَّسْمِ (الدَّمَسْتِقُ) هَارِبًا وَفِي وَجْهِهِ عُذْرٌ مِنَ السِّيفِ عَاذِرُ

(١) سيف الدولة ، أو مملكة السيف ودولة الأقاليم ، د. مصطفى الشكعة ، عالم الكتب ، بيروت ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، ص ٧٣ .

(٢) ديوان أبي فراس ١١٧/٢ .

(٣) جلباط : " ناحية بجبل اللكّام بين أنطاكية ومركش ، كانت بها وقعة لسيف الدولة بن حمدان بالروم ، افتخر بها أبو فراس " .

معجم البلدان ، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ، دار بيروت ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م ، ٢٥٠/١ .

(٤) ديوان أبي فراس ١١٨/٢ .

فدى نفسه بآبن عليه كنفسه وللشدة الصمء ثقنى الذخائر !
وقد يقطع العضو النفس لغيره وتُدفعُ بالأمر الكبير الكبائر !

تعرّض الشاعر إلى ذكر ابن الدمستق قائد الروم (قسطنطين) وقد وقع في أسرهم ، ثم رصد موقف والده الذي هرب وترك ابنه وراءه ، وقد حاول الشاعر إظهار المبررات له على هذا العمل من باب السخرية والاستهزاء بهم ، غير أن هذا العمل طبع فيهم ، فهم جبناء ، كما تحدث الشاعر في هذه القصيدة عن موقعة الحدث^(١) :

وحسبي بما يوم (الأحيدب) وقعة ! على مثلها في العزّ تُثنى الخناصر !
عدلنا بما في قسمة الموت بينهم وللسيف حكم في الكتيبة جائر
إذ الشيخ لا يلوي (ونقفور) مُجحر وفي القيد ألف كالليوث قساور
ولم يبق إلا صهرة وابن بنته وثور بالباقيين من هو ثائر

فقد أشاد الشاعر بانتصار سيف الدولة على الروم في جبل الأحيدب ، وصور ما أحلّ بالأعداء ، حيث هرب قائدهم وتركهم يواجهون الموت ، ولم يبق منهم إلا صهر الدمستق وابن بنته وقرابات له ، كما ذكر ابن خالويه .

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن معارك سيف الدولة الداخلية^(٢) :

وأجلى إلى (الجولان) (كلباً) و (طيئاً) وأقفر (عجب) منهم و (أشاعر)^(٣)
وباتت (نزار) يقسم الشام بينها كريم المحيي لودعي مغاور
علاء (كليب) (للضباب) علاءة وحاضر (طيء) (للجعافر) حاضر
وأنقذ من مس الحديد وثقله (أبا وائل) والدهر أجدع صاغر

فقد أشار الشاعر إلى القبائل التي قضى عليها سيف الدولة ، وخصّ (أبا وائل) وهو تغلب بن حمدان الذي أسره رجل من طيء ، فأنقذه سيف الدولة وقتل أسره .

(١) ديوان أبي فراس ١١٨/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ١١٩/٢ .

(٣) الجولان ، عجب ، أشاعر : مواضع بالشام .

ثم إن الشاعر لم يغفل عن تصوير عفة الفارس وحلمه في تلك المعارك ،
وذلك بقوله^(١) :

وَصُنَّا نِسَاءً نَحْنُ أَوْلَىٰ بِصَوْنِهَا رَجَعْنَ وَلَمْ تُكشَفْ لهنَّ سِتَاتِرُ
يُنَادِينَهُ وَالْعَيْسُ تُرْجَىٰ كَأَنَّهَا عَلَىٰ شُرَفَاتِ الرُّومِ نَحْلٌ مَّوَأِقِرُ
(أَلَا إِنَّ مِنْ أَبْقِيَتِ يَا خَيْرَ مَنْعِمٍ عَيْدُكَ مَا نَحَّ الْحَمَامُ السَّوَاغِرُ !
فَرَجُوكَ إِحْسَانًا وَنَخْشَاكَ صَوْلَةً لِأَتِكَ جَبَّارٌ وَأَتَكَ جَابِرُ !)

تحدث الشاعر عن عفة الجيش الإسلامي وحرصه على حماية النساء وصيانتهم ، ثم
موقف النساء اللاتي قدرن للقائد هذا الصنيع الجميل ، فنأدينه ونياقهن تساق على شرفات
الروم وكأنها نخل موفور الحمل ، ويعترفن له بأنه جبار وجابر جبار على رجالهم ، وجابر
كسر نسائهم^(٢) :

فَلَمَا اسْتَقَرَّتْ (بِالْجَزِيرَةِ) خَيْلُهُ تَضَعُضَعُ بَادٍ (بِالشَّامِ) وَحَاضِرُ
مَمَالِكِهَا لِلْبَيْضِ بَيْضٌ سُيُوفُنَا سَبَايَا وَمِنْهَا لِلْمَلُوكِ مَهَابِرُ
وَحَلَّ (بِبَالِيَا) عُرَى الْجَيْشِ كُلِّهِ وَحُكْمَ (حِرَّانَ) وَمَوْلَاهُ (دَاغِرُ)
لَهُ يَوْمَ (عَدَلٍ) مَوْقِفٌ بَلْ مَوَاقِفُ رَدَدَنَّ إِلَيْنَا الْعِزَّ وَالْعِزَّ نَافِرُ
غَدَاةً يَصْبُ الْجَيْشُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بَصِيرٌ بِضَرْبِ الْخَيْلِ وَالْجَيْشِ مَاهِرُ

ففي هذه الأبيات إشادة بسيف الدولة وجيشه الماهر .

واستمر في عرض البطولات إلى أن ختم تلك القصيدة بنفسه للشعر ، وبذلك يكون أبو
فراس قد أخرج نفسه من كل نقدٍ قد يوجه إليه ؛ لكونه شاعراً ، فهو فارس ، ويريد أن
يجاسب على فروسيته التي فقدتها ، وليس على شعره الذي ذكره من باب الإشادة بتلك
الفروسية^(٣) :

(١) ديوان أبي فراس ١١٩/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ١٢١/٢ .

(٣) السابق ١٢٣/٢ .

لنا في بني عمّي وأحياء إخوتي
 وإنهم الساداتُ والعُررُ التي
 ولولا اجتنابي العتبَ من غير منصفٍ
 ولا أنا فيما قد تقدّم طالبٌ
 يسرُّ صديقي أنّ أكثر واصفي
 وهل تُجحدُ الشمسُ المنيرةُ ضوءها
 نطقتُ بفضلي وامتدحتُ عشيرتي
 علّاً ، حيثُ سار النيرانِ سوائرُ
 أطولُ على خصمي بها وأكاثرُ !
 لَمّا عزّني قولٌ ولا خانَ خاطرُ !
 جزاءً ولا فيما قد تأخّرَ وازرُ
 عدوّي وإن ساءتُه تلك المفاخرُ
 ويسترُ نورُ البدرِ والبدرُ زاهرُ
 وما أنا مدّاحٌ ولا أنا شاعرُ !

وقد تعرض النقاد والدارسون إلى شعر أبي فراس ، يقول الدكتور مصطفى الشكعة :
 " وهذه القصيدة من أطول ما أنشد أبو فراس في مختلف فنون الشعر التي أنشد فيها ، فقد
 بلغت مائتين وخمسة وعشرين بيتاً ، إذا اقتطعنا منها الأربعين بيتاً التي قيلت في الغزل كانت
 من أطول قصائد الفخر التي قيلت في الشعر العربي ، وهي بذلك قد اتخذت نهج الملاحم عند
 الروم " (١) .

غير أنه قد " يكون من الإنصاف اعتبار المطولات العربية من قبيل الفخر والحماسة ، لا من
 قبيل الملاحم ؛ إذ إن الحماسة - وهي في الأصل الشجاعة - تعتبر في الشعر وصفاً للمغامرات " (٢) .
 لذا لا تعدّ قصيدة أبي فراس من شعر الملاحم ، " فهي ليست منه ؛ لعنايتها بسرد
 الأخبار الحقيقية والأحداث التاريخية ، ولإغفالها إلى حدّ بعيد قيم الوصف والتصوير الفني
 المغرق في الخيال والإيهام " (٣) .

على الرغم من أنّ هناك بعض الدارسين يعدّ قصيدته الرائية من الملاحم .

تقول ماجدولين : " أما عن قصيدته الرائية التي نعتبرها ضرباً من الملاحم فلأسباب الآتية :

أولاً : هذه القصيدة تزيد عن المائتي بيت ، وهي من أطول القصائد العربية ، مع أنّها لا

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، ص ٢٤٢ .

(٢) الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه ، جورج غريب ، ص ١٠ .

(٣) أبو فراس الحمداني ، الموقف والشكل الجمالي ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

تعدّ شيئاً بالنسبة لإلياذة هوميروس التي تعد بألاف الأبيات ، وقد أوضحت صعوبة نظم الآلاف من الأبيات في الشعر العربي .

ثانياً : هذه القصيدة تضمّ سيرة أبطال حمدانيين وقصص بطولاتهم ، فهي أقرب إلى الملاحم منها إلى القصيدة الشعرية .

لم يسبق شاعر آخر أبا فراس في نظم قصيدة تشبه هذه القصيدة ؛ لأنه ليس لكلّ شاعر أمجاد و بطولات حربية له ولقومه يتغنى بها مثل أبي فراس ، ولذا أعتبر هذا الشعر تجديداً للشاعر في الشعر العربي " (١) .

ويرى الدكتور عز الدين إسماعيل أنّ ما قاله أبو فراس والمتنبي تضع اللبّات اللازمة لبناء الفن الملحمي : " ولم يكن ما ردّ به أبو فراس ادّعاءً ، بل كان وقائع مشهودة يعرفها الروم معرفة تامة .

وهكذا شغلت الحروب بين العرب والروم الجانب الأكبر من اهتمام الحمدانيين ، ورصدها الشعر وقعة بعد أخرى رصداً دقيقاً وأميناً ، واستنفد قدراً كبيراً من طاقة الشعارين الكبيرين : المتنبي وأبي فراس الإبداعية ، فأنتجا رصيذاً هائلاً من الشعر الجاد ، في وقت كان الشعر العربي فيه قد أخذ ينصرف معظمه إلى اللهو والمجون والموضوعات الهزيلة التي تصرف الروح عن تطلّعاتها الكبرى ، وتنتهي بها إلى التحلل ، وإذا لم يكن واحد منهما قد صاغ كلّ هذه الحروب وما يتعلق بها في ملحمة شعرية ، فإن مجموع ما قاله فيها يصنع اللبّات اللازمة لبناء مثل هذه الملحمة " (٢) .

ويقول الدكتور : أحمد عدوان : " وهكذا نلاحظ أن الخلق الطيب يرافق سيف الدولة أينما ذهب ، فهو يسمح عن الأعراب رغم خروجهم عليه ، ولعلّه أراد من ناحية ثانية ألا يوسع هُوّة الخلاف بينه وبين تلك القبائل العربية ؛ لأنّها كانت تكون عنصراً مهماً وخطيراً في مملكته ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه أراد أن يتفرغ لخطر الروم ؛ لأنه كان

(١) شعر أبي فراس الحمداني (دراسة فنية) ، ص ٣٤٩ .

(٢) في الأدب العباسي ، عز الدين إسماعيل ، ص ١٦٦ .

أشدّ من خطر هذه القبائل" ^(١)، ذلك الخطر الذي لم يوفق أبو فراس في رصد أحداثه . يقول الدكتور السيد محمد : " نجد معظم الشعر الحماسي عند أبي فراس يتناول حروب سيف الدولة مع القبائل العربية المجاورة ، والقليل من شعره الحماسي عن حروب الروم ، هذا غير الروميات ، فإن لها طابعاً خاصاً ، وكان الكثير منها عبارة عن شكوى وأنين وعتاب وحين إلى قومه ، والباقي موزّع بين جدال مع الروم وأمنيات بالنصر عليهم ، حتى وهو في أرضهم ، ويبدو أن الملكة الشعرية لم تكن قد استوت ونضجت عنده في الزمن الذي كان فيه سيف الدولة يحقق الانتصارات العظيمة على الروم ، أو أن معظم الحروب التي اشترك فيها مع ابن عمّه ، أو التي انفرد فيها بالقتال كانت مع العرب ، ولم يكن يقدر على إشادة بانتصارات لم يشهدها ، أو وصف معارك لم يشارك فيها" ^(٢).

ويقول الدكتور نصرت : " فإن الشاعر الذي برز في تصوير الحمدانية وهي تحزّ رقاب الأعراب في الشام قد أحقق في تصوير السيوف العرب تستلّ من أغمادها لقتال الروم ، حتى تبدت تلك السيوف كليلة لا تقطع" ^(٣)، ولعلّ السبب في ذلك : أن العرب عموماً اعتادت التفاخر على بعضها البعض ، ومع ذلك هناك من النقاد من أنصف أبا فراس ، وذلك بقوله : " ومن يدرس هذه الرائية الحماسية الطويلة فسوف يجد أبا فراس قد أجمل حروب قبيلته وجمعها من غير تفصيل ، وافتخر بقومه ، وأشاد بانتصاراتهم على الروم والعرب جميعاً" ^(٤).

تميز أبو فراس بوصفه للمعارك الداخلية التي كانت بينهم وبين القبائل المتمردة على سيف الدولة . فعلى الرغم من صفح وحلم سيف الدولة عليهم ، إلا أنهم يصرون على هذا التمرد الذي عبر عنه أبو فراس بقوله ^(٥) :

إلى الله أشكو ما أرى من عشائرٍ إذا ما دنونا زاد جاهلهم بُعدا

- (١) الدولة الحمدانية ، د. أحمد عدوان ، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع ، د.ت ، ص ٢٥٣ .
- (٢) شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني ، د. السيد محمد ديب ، مطبعة السعادة ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ —
- ١٩٨٤م ، ص ١٥٤ وما بعدها .
- (٣) شعر الصراع مع الروم ، ص ٣٠٩ .
- (٤) شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني ، ص ١٤٠ .
- (٥) ديون أبي فراس ٧٤/٢ وما بعدها .

وإنا لثنيننا عواطف حلمنا
ويمعنا ظلم العشيّة أنّا
وأنّا إذا شئنا بعباد قبيلة
ولو عرفت هذي العشائر رُشدّها
ولكن أراها - أصلح الله حالها
عليهم وإن ساءت طرائقهم جدّا
إلى ضرّها لو نبتغي ضرّها أهدي
جعلنا عجالاً دون أهلهم نجدّا
إذا جعلتّا دون أعدائها سداً
وأخلفها بالرشد - قد عدمت رُشداً

ولقد أبدع الشاعر في وصف الذلّ الذي أصاب القبائل المتمردة ، ففي ذلها عزّ لهم ،
كما عبر عن سرعتهم للقضاء عليها^(١) .

وسقناهم إلى (الحيّران) سَوْقاً
ونكّبتنا (الفُرْقُلس) لم نردّه
وملنّ عن (الغويّير) وسرن حتى
كما نستاق آبالاً صعباً
كأنّ بنا عن الماء اجتناباً
ورذنّ عيون (تدمر) و (الجبابا)

كما جعل من أجسادهم طعاماً للطيور والسباع نتيجة كثرة القتلى الذين يخلفونهم
وراءهم^(٢) :

وجزن (الصحصحان) يخذنّ وخذاً
قرينا (بالسّماوة) من (عقيل)
ويجتبنّ الفلاة بنا اجتباباً
سباع الأرض والطير السّغاباً

كما لم يغفل الشاعر عن تحديد وقت الهجوم عليهم ، ووصف حال نسايتهم بعد
المعركة ، وكذلك الحدود والأنظمة التي يعملون بها مع القبائل^(٣) :

و(بالصّباح) و(الصّباح) عبداً
تركنا في بيوت بني (المهنا)
شفت فيها (بنو بكر) حُقوداً
وأبعدنا لسوء الفعل (كعباً)
قتلنا من لباهم اللّبابا
نوادب ينتحبنّ بها انتحاباً
وغادرت (الصّباب) بها صّباباً
وأذنيننا لطاعتها (كلابا)

(١) ديوان أبي فراس ١٥/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٥/٢ .

(٣) السابق ١٥/٢ .

وشردنا إلى (الجولان) (طَيِّئاً) وجنّبنا (سَماوتها) جنابا
سحابٌ ما أناخ على (عُقَيْلٍ) وجرّ على جوارهم ذنابى

ولم يغفل الشاعر الفارس كذلك عن تخويف أعدائه والتعالي عليهم^(١):

عُلُوجَ (بني كعب) بأيّ مشيئة ترومون يا حُمر الأنوفِ مقامي
نفيتكم عن جانبِ الشامِ عَنوةً يتدبير كهلٍ في طعانِ غلامِ
وفتيانِ صدقٍ من غطاريفِ (وائِلٍ) خفافِ اللّحي شمّ الأنوفِ كرامِ

ويصور أبو فراس (موقعة الحدث) تصويراً رائعاً ، يقول فيه^(٢):

ومصطحبات قاربَ الرِكضِ بينها ولكن بها عن غيرها أبداً بُعدُ
نُشردهم ضرباً كما شُرِدَ القطا وننظّمهم طَعناً كما نُظِمَ العَقْدُ
لئن خانك المقدورُ فيما نويتُهُ فما خانك الرِكضُ المواصلُ والجُهدُ
تعادُ كما عودتَ والهَامُ صخرُها ويبنى بها الجُدُّ المؤثّلُ والحمدُ

فصوّر أعداءه وكأنهم يشردونهم كما شرد القطا ، وينظّمونهم كما ينظّم العقد ، وفي ذلك إشارة من الشاعر بأن الأعداء لم يواجههم بشجاعة ، بل أصابهم الخوف والهلع عند اللقاء ، فكانوا طوعاً لهم .

كما يَصوّر هزائم فرسان الأعداء^(٣):

ولئن نجّا فرجاله وحُمائهُ ما بين مصفُودٍ وبَينِ مُكَلِّمِ
لبسوا الحديدَ برغمهم وبودّهم أن لم يكن ذاك الجُلّيّ عليهمِ
قُدنا (البُرطيسِ) اللّعينَ وجيءَ بِـ(الـ) عَشَنِيطِ) مخفُوبِ الجوانِبِ بالدمِ
وغدا البطارقُ والزراورُ حُسراً في أسرِ ميمونِ النّقيبةِ حِضْرَمِ

فالشاعر يَصوّر جيش الأعداء بعد نجات قائدهم بنفسه ، فهم ما بين مصفود مجروح ، قد

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٦٤ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٢/٩٢ .

(٣) السابق ٣/٣٧٧ وما بعدها .

أَجْبِرُوا عَلَى لِبْسِ الْأَصْفَادِ الْحَدِيدِيَّةِ ، فَجَعَلَهَا حَلِيَّةَ لَهُمْ^(١) :

سَلْ أَهْلَ (خَرَشْنَةَ) تُجَبِّكَ نَسَاؤَهُمْ كَمْ تَأْكَلِ مِنْهَا وَكَمْ مِنْ أَيْمٍ ؟
عَهْدِي بِهَا وَالنَّارُ فِي جَنَابَتِهَا وَكَأَنَّمَا صَدْرُ الْمَشُوقِ الْمُغْرَمِ

فقد أخذ الشاعر يثبت الشجاعة والقوة للمسلمين على الروم ، وذلك من خلال نسائهم ، وكأنه يقول له : لم يبقَ فيكم رجالٌ شجعانٌ تسألهم عن أفعالهم ، وإنما تركنا نساءكم في دياركم بين ثكلى وأيم ، بل يجعل من تلك البلدة الرومية والنار تشتعل في جنباتها محبة متشوقة لمنظر قدوم الجيش الإسلامي إليها .

ثم بعد ذلك أخذ يعبر بنفسه عن منظر تلك البلدة وقت اشتداد المعركة والنار تلتهمها ، وقرن ذلك المنظر بصدر المشوق المغرم^(٢) :

فَسَائِلُ (كَلَابًا) يَوْمَ (غَزْوَةِ بَالِسِ) أَلَمْ يَتْرَكُوا النَّسْوَانَ فِي الْقَاعِ حُسْرًا ؟
وَسَائِلُ (نَمِيرًا) يَوْمَ سَارِ إِلَيْهِمْ أَلَمْ يَوْقِنُوا بِالْمَوْتِ لَمَّا تَنَمَّرَا ؟
وَسَائِلُ (عَقِيلًا) حِينَ لَازَتْ (بِتَدْمِرِ) أَلَمْ نُقْرِهَا ضَرْبًا يَقْدُ السَّنَوْرَا ؟
وَسَائِلُ (قَشِيرًا) حِينَ جَفَّتْ حُلُوقُهَا أَلَمْ نَسْقِهَا كَأْسًا مِنَ الْمَوْتِ أَحْمَرَا ؟
فَأَشْبَعِ مِنْ أَبْطَاهِمِ كُلِّ طَائِرٍ وَذئْبٍ غَدَا يَطْوِي الْبَسِيطَةَ أَعْفَرَا

فالشاعر يؤكد على الانتصارات المتوالية التي حققها على تلك القبائل ، كما يطلب للتأكيد سؤال تلك القبائل ، ولم يكتفِ بذلك فحسب ، بل وصف ما حلَّ بهم ، فقد أشبع الطيورَ والذئابَ من أبطاهم . وقد خصَّ الأبطال بالذكر ليدلّل على قوّة أعدائه ، فهم بالرغم من قوتهم ، إلا أنهم أصبحوا طعاماً للطيور والسباع ، كما يتعجب من فعل بعض القبائل ، فيقول فيهم^(٣) :

أَيَا عَجَبًا لِأَمْرِ (بَنِي قَشِيرِ) ! أَرَاعُونَا وَقَالُوا : الْقَوْمُ قُلٌّ
وَكَانُوا الْكَثْرَ يَوْمئِذٍ وَلَكِنْ كَثُرْنَا إِذْ تَعَارَكْنَا وَقَلَّوْا

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٧٨ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٩٨ .

(٣) السابق ٢/٢٨٥ .

وقال الهام للأجساد هذا يفرق بيننا إن لم تؤلوا!
فولوا للقنا والبيض فيهم وفي جيرانهم نهل وعل
ورحنا بالقلائع كل نهد مطل فوقه نهد مطل

فالشاعر يوضح المقدرة البطولية لهم على أعدائهم من بني قشير الذين استهانوا بهم ، وقالوا : إن عددهم قليل ؛ وذلك لكثرتهم ، ولكن عندما بدأ القتال ظهرت قلتهم بعجزهم عن مواجهة الفرسان الشجعان على الرغم من كثرتهم ، فلحق بهم الخزي والعار .

كما رصد الشاعر لحظات فرار أعدائه ، وذلك بقوله^(١) :

وولّى بـ(ابن عوسجة كثير) وساع الخطو في ضنك المجال
يرى (البرغوث) إذ نجاه منا أجل عقيلة وأحب مال
تدور به إماء من (قريظ) وتساءله النساء عن الرجال!
يقلن له السلامة خير غنم وإن النذل في ذاك المقال

فيصور الشاعر لحظة هروب عدوه الذي ينتهي مشهد هروبه بلقائه مع النساء اللاتي يسألنه عن الرجال ، ويعلن له السلامة خير غنيمة لك ، وفي عبارتهن ذل له ومهانة لا تليق بالفرسان .

كما أشار إلى عفوهم عن بعض القبائل^(٢) :

و(جمهان) تجافت عنه بيض عدلن عن الصريح إلى الموالي
وعادوا سامعين لنا فعُدنا إلى المعهود من شرف الفعال
ونحن متى رضينا بعد سُخط أسونا ما جرحنا بالتّوال

فالشاعر يشير في الأبيات السابقة إلى العفو عن (جمهان) عندما أظهروا السمع والطاعة ، وقد أعقبوا ذلك العفو بالعطاء الوفير لهم .

(١) ديوان أبي فراس ٣٠٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٧/٢ .

ويقول أبو فراس^(١):

وأزرت (صارخة) الخيول فيالها
أحرقّت أهليها بما فتركتهم
فكأنما عجلت ما قد أوعدوا
فكأنما امتدّت يمينك صاعداً
حتى إذا ما آب جيشك قافلاً
فنطرقوا بعض السّوادِ تلصّقا
ما قابلوك ولو رأوك تجاههم
والعوذُ أحمدُ والليالي بيننا
من زورةٍ طلعت بطيرِ أشامِ
في جمرها المتلهّب المتضرم
يوم القيامة من عذاب جهنم
في الجوِّ حتى حُزت بعض الأنجم
ضلّ الدليلُ عن الدليلِ الأقومِ
والليلُ يستُرهم بثوبٍ مظلمِ
أشبتَ منهم كلَّ نسرٍ قشعمِ
وغداً نروحُ معقّبين إليهم

فالشاعر يصور ما حلّ بالأعداء من هزائم ، حتى إنه من شدّة هول المشهد ربطه بعذاب جهنم ، وفي ذلك مبالغة من الشاعر ، وبعدها استمرّ في عرض مبالغاته المعهودة ، فَيَمِين سيف الدولة امتدّت في الجوِّ حتى حُزت بعض الأنجم . ثم بعد ذلك تعرّض إلى عرض خوف الأعداء من سيف الدولة الذي لو قابلهم لأشبع منهم النسور ، ولم يكتفِ بذلك ، فتوعدهم بالعودة إليهم .

فأبو فراس شاعر فارس استطاع رصد الوقائع التي دارت بينهم وبين أعدائهم ، فكثّر شعره الحماسي وإن كان بعيداً عن التفصيل ، وصاحبه أسامة في ذلك ، فكان " لأسامة شعر حماسي كثير افتخر فيه بشجاعته في الحروب ، وبسالته في قتال الأعداء ، ومنه ما توجه به إلى الأبطال المسلمين الذين دخلوا المعارك مع الصليبيين ، وأبلوا فيها بلاءً حسناً ، فأشاد بهم ، وامتدح بطولتهم ، وسجل انتصاراتهم " ^(٢).

و " لعلّ أسامة بن منقذ أصدق من يمثل الفروسية العربية في عصر الحروب الصليبية ، وإن لنا من حياته صفحة نرى فيها صورة للحياة الصاخبة التي عاناها المسلمون إبان القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، فقد لزم عماد الدين زنكي في حروبه ، وتقلب في

(١) ديوان أبي فراس ٣/ ٣٧٩ .

(٢) شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني ، ص ٢٤١ .

البلاط الفاطمي بالقاهرة في عهد الخليفين : الحافظ والظافر ، وشارك نور الدين في حملاته على الفرنج ، وعاش مع بني أرتق في حصن كيفا بديار بكر ، ثم عاش أخيراً في دمشق في ظلّ صلاح الدين بعد أن وطد صلاح الدين ملكه . وكان أسامة إذ ذاك قد جاوز التسعين ، فشاهد مصرع الصليبيين ووحدة المسلمين بعد تفرّقهم وتناحرهم^(١) .

وعلى الرغم من كثرة الحروب التي خاضها ، فلم يجد البحث وصفاً دقيقاً لهذه المعارك ، وإنما مجرد إشارات ، وإن ذكر بعض التفاصيل لبعض الوقائع .

يقول الدكتور حسن عباس : " اشترك أسامة في المعارك التي دارت بين الجيوش الإسلامية والصليبية اشتراكاً فعلياً ، أظهر فيه من ضروب البطولة والمغامرة ما استحقّ من أجله أن يخلد ذكره في تاريخ هذه الحروب ، وتعدّ قصائده في وصف تلك المعارك التي خاضها وثيقة تسجيلية مهمّة تجعل شعره أقرب إلى الموضوعية بما فيه من تسجيل للمواضع والأسماء ، ومراحل الصراع ونتائج الحرب ، وتتضمن هذه القصائد بعض الفخر بالقوة والبطولة عند التعرض لوصف الجيش ...

وهذا جانب تقليدي في شعر أسامة لا يختلف كثيراً ولا قليلاً عما نجده في أشعار السابقين منذ الجاهلية ، أما الجانب الذي يهمننا من شعره في الحرب ، فهو الذي يتعلق بمعارك محددة يذكر فيها تفاصيل الوقائع والأحداث^(٢) .

" والشاعر أجاد وأطال في وصف المعارك . والوصف وصفان : وصف لما حضره بنفسه ، وهذا هو الأهمّ .. ووصف على سبيل المديح بما بلغه من أنباء لهذه المعارك ، كما في مديح آل رزيك ...

أما الوصف الأول فهو أيضاً الأكثر حرارة ، والأكثر صدقاً .. والشاعر يرتقي فيه إلى منزلة شعراء عظام ، كأبي تمام ، والمتنبي ، والطرماح ، وكلّ الشعراء الذين خاضوا المعارك أو شهدوها فوصفوها .. وذاقوا لهيب الحروب ، أو اصطلوا بنارها ، فعبروا عنها .. فجاء

(١) أسامة بن منقذ صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ، تأليف : محمد أحمد حسين ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، د.ط ، ١٩٤٦م ، ص ٣٣ .

(٢) أسامة بن منقذ ، حسن عباس ٢٣٦/١ وما بعدها .

شعرهم ملاحم بطولية" (١).

ومن أشهر قصائد أسامة في وصف المعارك : قصيدته التي على لسان نور الدين ، يقول الدكتور أحمد بدوي : " ولم يكتفِ بعض أبطال الحروب الصليبية بما سجله لهم الشعراء في قصائد تمجيدهم ، فمضوا يطلبون إلى الشعراء أن يقرضوا على ألسنتهم شعراً ، يسجلون فيه معاركهم ، فهذا نور الدين محمود يطلب من أسامة بن منقذ أن ينشئ قصيدة على لسانه يفتخر فيها بأجاده ، ويتحدث عن فتوحاته ، فأنشأ أسامة قصيدة طويلة بلغت عدتها تسعين بيتاً" (٢).

فهذا الفارس القائد لم يمنحه الله المقدرة على إبراز هذه الشجاعة في الشعر ، فلجأ إلى أسامة ؛ لأنه يرى فيه نعم الفارس الشاعر الذي يصل إلى ما يريده من خلال شعره ، فهو قد وجد فيه الشاعر القادر على إظهار فروسية غيره بكل صدق وأمانة ، لذلك طلب منه هذا الطلب ، فطلبه إقرار من فارس بشاعرية أسامة ومقدرته على وصف المعارك ، لكن أسامة لم يستثمر تلك المقدرة القولية خير استثمار ، ولو أنه فعل ذلك لترك لنا أجمل القصائد الحربية .

فلم يطلب نور الدين من أسامة هذا الطلب إلا لعلمه بمقدرة أسامة الشعرية ، فهو الفارس الشاعر القادر على رصد تلك البطولة ، ومطلع القصيدة :

أبي الله إلا أن يكون لنا الأمرُ لتحيًا بنا الدُّنيا ويفتخر العصرُ

فقد بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة رائعة تدلّ على قوة الإيمان بالله ، ثم انتقل إلى وصف الجيش والمعارك التي حدثت بينهم وبين الفرنج .

يقول أسامة واصفاً جيش المسلمين (٣) :

نسيرُ إلى الأعداءِ والطيرُ فوقنا لها القوتُ من أعدائنا ولنا النصرُ

(١) أسامة بن منقذ ، قمر كيلاني ، م.د ، ١٩٨٢م ، ص ١٩١-١٩٣ .

(٢) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٥٠٢ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٥٣ .

فبأسٌ يُذيبُ الصَّخْرَ من حَرِّ نارِهِ ولُطْفٌ له بالماءِ ينبجسُ الصَّخْرُ
وجيشٌ إذا لاقى العَدُوَّ ظننتهم أسود الشَّرى عنت لها الأذمُّ والعفرُ
ترى كلَّ شَهِمٍ في الوغَى مثل سهمه نفوذاً فما يثنيه خوفٌ ولا كُثْرُ
هم الأسدُ من بيضِ الصوارمِ والقنا لهم في الوغَى النَّابُ الحديدة والظفرُ
يرونَ لَهُمُ في القتلِ خُلداً فكيفَ بألِّ لقاء لقوم قتلهمُ عندهم عُمرُ

فجيش المسلمين منتصرٌ دائماً ؛ لذلك تتابعهم الطيور لتأكل من جثث القتلى من أعدائهم . وتميزوا بقوة البأس والعزيمة الصادقة ، فعند مواجهة الأعداء يصبحون كالأسود ، ومثل السهام ، لا يردهم الخوف من مواجهة الأعداء وإن كثر عددهم ، ثم أخذ يوضح كيف اكتسبوا تلك الصورة القوية ؛ لأنهم يرون في القتل خلوداً لهم .

ثم انتقل الشاعر إلى معركة حصن العريمة التي وقعت بين نور الدين وابن الفونش^(١)، والتي انتهت بانتصار المسلمين وسجن ابن الفونش^(٢):

وفي سجننا ابن الفونشٍ خيرٌ ملوكهم وإن لم يكن خيرٍ لديهم ولا برُّ
أسرناه من حصن العريمة راغماً وقد قُتلت فرسانه فهم جزرُ
وسلَّ عنهم الوادي باقيلس إته إلى اليوم فيه من دمائهم غدرُ
همُ انتشروا فيه لردِّ رعيننا فمن تُربِه يوم المعادِ لهم نشرُ

فالشاعر بعد أن عرفَ بابن الفونش الذي اعتبره من خير ملوكهم ، مع أنهم لا خير فيهم ، إلا أنه تعرَّض للأسر وقد قُتلت فرسانه الذين شبههم بالجزر ؛ لكثرتهم .

واستمرَّ أسامة بذكر المعارك التي خاضها المسلمون^(٣):

(١) ابن الفونش : حاكم صقلية ، خرج مع ملك الألمان لبلاد الشام ، واحتلَّ حصن العريمة ، فسار إليه نور الدين سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة ، واستولى على حصنه وخربه ، وأخذ ابن الفونش أسيراً مع كل من في الحصن . الروضتين ٥٥/١ .

(٢) ديوان أسامة ، ص ٢٥٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

ونحن أسرنا الجوسلين^(١) ولم يَكُنْ
وكان يظنّ الغرّ أنّنا نبيعه
فلما استبحنا مُلكه وبلاده
كحلناه نبعي الأجر في فعلنا به
ليخشى من الأيام نائبةً تعرو
بمالٍ وكم ظنُّ به يهلك الغرّ
ولم ييقَ مالٌ يستباحُ ولا تُغرّ
وفي مثل ما قد ناله يُحرزُ الأجر

فقد تحدث الشاعر عن أسر (الجوسلين) الذي يقول فيه المقدسي : " وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدّم على الإفرنج في حروبهم ؛ لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدّة عداوته للملة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها . وأصبحت النصرانية كافّةً بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وختل بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر ، لا يقف على يمين ، ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق ، نكثَ وغدر ، وحقّ به مكره ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم"^(٢).

ثم انتقل الشاعر إلى حدثٍ آخر ، يقول عنه^(٣):

ونحنُ كسرنا البغدوين^(٤) وما لمن
فأسله اللعينُ الخائنُ الخائنُ الذي
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها
كسرناه إبلالاً يُرجى ولا جبر
لله الغدرُ دينٌ ما به صنع الغدرُ
فلم يُنجه برٌّ ولم يحمه بحرُّ

(١) جوسلين : حاكم مناطق شمال حلب ، كان شديد العداوة للمسلمين ، وكان من دهاة الفرنج وعتاقهم . أسره نور الدين سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وكان في أسره مصلحة عظيمة للمسلمين ، حيث سهل أمر الفرنج بعد ذلك . الروضتين ٧٢/١ .

(٢) الروضتين ٧٢/١ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٥٢ .

(٤) البغدوين : حاكم بيت المقدس ، اشترك مع ملوك الفرنجة بالشام في معركة حصن بارين ضدّ عماد الدين زنكي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، واستطاع عماد الدين أن يهزمهم ويستولي على الحصن . الروضتين ٣٤/١ .

أفي غدره بالخيل بعدَ يمينه
دعته إلى نكتِ اليمينِ وغدره
وقد كان لونُ الخيلِ شقي فأصبحتُ
توهمَ عجزاً حَلَمْنَا وأنا تَنَا
فلما تمادى غيُّه وضلاله
برزنا له كالليثِ فارقِ غيلهُ
وسرنا إليه حينَ هابَ لقاءنا
قتلنا البرنس^(١) حينَ سارَ بجهلِهِ
ولم يبقَ إلا مَنْ أسرنا وكيفِ بالـ
فولِّي يباري عاثراتِ سهامنا
وخلى لنا فرسانه وحُماته
وما تنشَنِ عنه أعنةَ خيلنا
إلى أن يزورَ الجوسلينَ مساهماً
ونرتجعَ القدسَ المطهَّرَ منهم

يأنجيله بين الأنامِ له عُذْرُ
بذمته النفسُ الخسيسَةُ والمكرُ
تُعَادُ إلينا وهي منَ دمهم شُقْرُ
وما العجزُ إلا ما أتى الجاهلُ العَمْرُ
ولم يُشَنِّه عن جهله النهيُ والزجرُ
وعادته كسرُ الفرائصِ والهَصْرُ
وبانَ له من بأسنا البؤسُ والشُرُ
تحفَّ به الفرسانُ والعسكرُ المجرُ
بِقَاءِ لِمَنْ أَخَنَتْ عَلَيْهِ الطُّبَا البُتْرُ
وفي سمعه من وقعِ أسيفنا وقرُ
فشطرَّ له قتلٌ وشطرٌ له أسرُ
ولو طارَ في أفقِ السماءِ به النَّسرُ
له في دياجِ ما ليلتُها فَجْرُ
فلم يبقَ منها في ممالِكهم شِبْرُ

وقد وقعت معركة أنب بين البرنس ونور الدين ، والتي انتهت بقتل البرنس الذي " كان من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدّة البأس وقوّة الحيل وعظم الخلقه ، مع اشتهاار الهيبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر " (٢).

فقد تحدث الشاعر عن نقض الصلح الذي بين البغدوين والمسلمين ، والذي نقضه البغدوين الغادر ، الذي اتخذ من الغدر ديناً له ، ثم ذكر الشاعر أسباب غدره ونكته لليمين ، كما رصد محاولات المسلمين في نهيهِ وزجره ، ولكنه لم يستمع لهم ، بل توهم أن حلمهم وصبرهم عليه إنّما هو نتيجة عجزهم عن مواجهته تلك المواجهة التي ما إن بدأت إلا وانتهت

(١) البرنس : حاكم أنطاكية ، من أبطال الفرنج المشهورين ، قتله نور الدين في الموضع المعروف بأنب سنة أربع وأربعين وخمسمائة . الروضتين ٥٨/١ .

(٢) الروضتين ٥٨/١ .

بكسره كسراً لا ينجبر ، فجيوش المسلمين هي التي ذهبت إليه ، أما هو فقد هاب هذا اللقاء ، وفي ذلك مزيداً من الإذلال له ، ثم أخذ الشاعر يصوّر لحظة هروب البغدوين بتصوير يثبت له الذلّ والخزي الذي لحق به ، فقد هرب وترك فرسانه بين قتيلٍ وأسير ، ولكنه مع ذلك لم ينجح من أيدي المسلمين ، حتى أُسرٍ وانضمّ في أسره مع الجوسلين في سجنه المظلم ، الذي ليس ليله فجر . ويعود القدس للمسلمين ، ولم يبقَ للفرنج بقية فيه .

يقول د. فيصل أصلان : " لعلنا نلاحظ كيف شغلت هموم الأمة العامة الرجلين في مراسلاتهما الشعرية بدلاً من الشؤون الخاصة . ولننظر كيف أظهر أسامة - وهو يتكلم بلسان نور الدين أيضاً - العزيمة والتصميم اللذين دعا إليهما طلائع في إهاب من معاني الفخر التقليدية ، ولكنه سرعان ما يجعل لها وجهة جديدة ، فأصل العزة والسطوة هنا طاعة الله ، لا العنجهية الجاهلية الجوفاء ، ثم يجعل هذه العزة سهماً في معركة الأمة مع أعدائها الحقيقيين ، وهم الفرنجة ، مبتعداً الخلاف الداخلي والعصبيات الجاهلية التي تفتت في عضد الأمة وتشقّ عصا وحدتها ، وآية ذلك تعليقه ما ذكر من قوة وسطوة باسترجاع القدس ، وهو بذكرها يزيل ما في نفس صاحبه من مخاوف تتصل بآثار الانثناء عن حرام في نفس نور الدين ومَن معه " (١) .

ثم انتقل الشاعر إلى ذكر فتح مدينة (الرُّها) ، التي فتحها عماد الدين زنكي " في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وكانت لجوسلين ، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم ، والمقدم على رجالهم وفرسانهم ، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً ، وأعادها إلى حكم الإسلام ، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً " (٢) ، يقول في ذلك :

فتحنا الرُّها حين استباح عداتنا حماها وسنى ملكها لهم الخترُ
جعلنا طلي الفرسان أعماد بيضنا وملكنا أبكارها الفتكة البكرُ

(١) شعر الصراع مع الفرنجة ، دراسة تاريخية تحليلية معمّقة ، الدكتور : صلاح الدين أصلان ، دار التوحيد ،

حمص ، سورية ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م ، ص ٦٠ .

(٢) الروضتين ٣٦/١ .

ثم انتقل إلى تل باشر وتل عزاز ، فقال^(١):

ونحن فتحنا تلّ باشر بعدها
أتى ساكنوها بالمفاتيح طاعة
وتل عزاز صبّحتهُ جيوشُنا
وملنا إلى بُرج الرّصاصِ وإتته
وقد عجزتُ عنه الأكاسرةُ الغرُّ
إلينا ومسراهم إلى بابنا شهرُ
فلم تحمِه عنا الرجال ولا الجُدُرُ
لكالسدِّ لكنّ الرّصاص له قَطْرُ

حيث أظهر الشاعر سرعة الحصول على هذه القلاع والحصون ، ثم صرح بأنه ما تمّ فتحه من قلاع لا يمكن أن تحصر من كثرتها ، وإنما كان هدفهم من ذلك هو الخير لأهلها ، والثواب من الله تعالى^(٢):

وكم مثل هذا من قلاع ومن قُرى
رددنا على أهل الشّام رباعهم
فناهم من عودها الخير والغنى
فكيف تسامينا الملوك إلى العلا
وإن وعدوا بالغزو نظماً فهذه
وما قولنا عن حاجة بل يسوؤنا
فقل لملوك الأرض ما الفخرُ في الذي
ومُزدرعات لا يحيط بها الحصرُ
وأملآكهم فأنزاح عنهم بها الفقرُ
كما نالنا من ردّها الأجر والشكرُ
وعزمهم سرٌّ ووقعاتنا جهرُ
رؤوسُ أعاديهم بأسيافنا نثرُ
إذا لم يكن في غزونا لهم أجرُ
تعدونه من فعلكم ، بل كذا الفخرُ

فنلاحظ أن أسامة يقترب من أبي فراس في هذه الأبيات ، فهو يرى أن الشعر عاجز عن حصر البطولة ورصدها ؛ وذلك لكثرتها ؛ يقول الدكتور محمد الهري معقّباً على هذه القصيدة : " نلاحظ أن هذه القصيدة عبارة عن استعراض تاريخي لبعض غزوات المسلمين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين ، وقد أراد الشاعر من وراء هذا الاستعراض إشعار طلائع بن رزيك بأن المسلمين في بلاد الشام قد قاموا بواجبهم الإسلامي ، وجاهدوا في سبيل الله ، واستردّوا كثيراً من بلاد المسلمين ، وأنهم ما زالوا يسلكون هذا الطريق حتى يتمّ

(١) الروضتين ٣٦/١ .

(٢) ديوان أسامة ، ص ٢٥٥ .

لهم طرد الصليبيين من بلاد الشام" (١).

ويقول د. عمر باشا : " اختتم أسامة على لسان نور الدين قصيدة القصائد التي أرحت أهمّ المعارك في هذا العصر وقد نيفت أبياتها على التسعين ، فصورت الأحداث الكبرى في صورة واحدة على لسان بطلها ، وما عرفنا شعراء الأحداث قبله من نهج هذا النهج ، كابن القيسراني ، وابن منير الطرابلسي ، وابن قسيم الحموي ، وغيرهم . وجدير بالذكر أن المناسبة التي نظمت فيها القصيدة المذكورة اقتضت أن يكون أسلوبها على هذا النمط الفريد ، ولو أن للشاعر الخيار لكان خطابه لصديقه على غير هذا الشكل" (٢).

ولأسامة قصيدة يصف فيها معركة إسلامية بدأت في البر ، وانتهت في البحر (٣) :

غزوتهم في أرضهم وبلادهم	وجحفلهم في أرضها متزاحم
فأفئيتهم قتلاً وأسراً بأسرهم	فناجيتهم مستسلم أو مسالم
فلما أبادتهم سيوفك وانجلت	عن الأرض منهم ظلمة ومظالم
غزوتهم في البحر حتى كأنما	الأساطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر فوق دهم كأنها	على الماء طير ماهن قوادم
يُصرّفها فرسانها بأعنة	جرت حيث لم توصل بهن الشكائم
إذا دفعوها قلت فرسان غارة	(سروا بجياد ماهن قوائم)
يسوق أساطيل الفرنج إليهم	حمام وطير للفرنج أشائم
دماءهم في البحر حمر سوائح	وهامهم في البر سخم جوائم
فلم يخف في فج من الأرض هارب	ولم ينج في لج من الماء عائم
وعاد الأسارى مردفين وسفنهم	تقاد كما قاد المهاري الخزائم

فقد بدأ الشاعر بوصف المعركة البرية التي خاضها الجيش المصري بقيادة الملك الصالح طلائع بن رزيك ضد الفرنج ، على الرغم من كثرة جيوش الأعداء ، إلا أن المسلمين

(١) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، ص ٢٥٤ .

(٢) أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ، د. عمر موسى باشا ، ص ٢٩٧ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٢٤ .

استطاعوا القضاء عليهم إما بالقتل أو الأسر ، ومن نجا منهم فهو مستسلمٌ أو مسالم .
ثم انتقل إلى وصف المعركة البحرية التي ظهر فيها الأسطول الإسلامي وكأنه موجٌ متلاطم من كثرته ، وفرسانه يتميزون بالشجاعة والقوة ، على ظهر سفن كأنها طيور تسير على الماء من غير قوادم ، وحياد من غير قوائم .

ثم انتقل إلى وصف أساطيل الفرنج والهزيمة التي لحقت بهم ، حتى إنه من كثرة دمائهم تحوّل لون البحر ، فلم يسلم منهم أحدٌ في البرّ ولا في البحر .

ونلاحظ على أسامة أنه حريص مثل أبي فراس على ذكر أسماء القواد الذين يحاربونهم ، والبلدان التي تحدثُ فيها تلك الغزوات ؛ وذلك لأنّها تمثل صورة صادقة من واقعهم المعيشي ، ولعلّ هذا ما قاد الدكتور سامي الدهان إلى أن يتهم شعر أسامة بأنه " أنفع للتاريخ منه للشعر نفسه"^(١).

ويرفض الدكتور حسن عباس هذا التعميم على شعر أسامة ، ويؤكد على مهمة الشاعر الفارس في رصد التجربة القتالية بقوله : " وإذا كنا نرفض تعميم هذا الحكم على شعر أسامة ، فإنه يبرز القيمة التاريخية لديوان أسامة ، ذلك الفارس الشجاع الذي قاتل في غير زمانٍ ومكان ، وأتاحت له الظروف أن ينتظم تحت ألوية مختلفة في ساحات القتال ، وأن يعمل في خدمة عدد من الحكام والسلاطين ، اختلفت منازعهم وتباينت مناهجهم في تدبير الأمور وحوك السياسات ، ومكنت له حنكته وفطنته من المشاركة الفعالة في صنع هذه الأحداث وتوجيه هذه السياسات ، وكما حمل إلينا شعر هذا الفارس صورة واضحة المعالم لحياته الاجتماعية والشعورية على السواء ، حمل إلينا أيضاً صورة جلية واضحة لأحداث عصره .

فأسامة الفارس كان أولى الناس بمتابعة أخبار الحروب وتسجيل أحداثها في شعره"^(٢).

غير أن الملاحظ أن الدكتور سامي الدهان لم يعمم القول على شعر أسامة ، بدليل أنه

(١) قدماء ومعاصرون ، سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م ، ص ١٠٧ .

(٢) أسامة بن منقذ (حياته وآثاره) ٢/٢٠٩ .

يقول عنه وعن شعره : " وقد وفق الرجل في وصف المعارك والحروب ، وانتصر في الفخر بنفسه ، فقد كان قائداً فارساً وبطلاً مغواراً ، يروي ما يرى ، ويرسم ما يقع له ، فينتهي إلى شعر جميل يلزّ بشعر الفحول القدماء ، ويذكر بأشعارهم في الغزوات ...

ولا شكّ في أن شعر أسامة متين جزل فخم ، شريف في معانيه ، يصوّر البطولة العربية في قلب المعركة ضدّ الغرب ، ومن هنا يعلو الديوان ، ويسمو الموضوع ، ويكتب لشعره الخلود"^(١).

وكما أنّ أبا فراس لم يُطلّ في وصف المعارك ، كذلك فعل أسامة . يقول الدكتور مسعد العطوي : " والمتصفح لديوانه يُفاجأ بندرة الحديث عن الحروب الصليبية ، مع أنه عاش معممته ببداية الهجوم الصليبي ، وبداية الجهاد وقوته ، وانتصار المسلمين وفتح بيت المقدس ، وأرجح أن أسباب إعراضه عن ذلك يعود لكونه شاعراً غير مداح ، ولتشرده في أقاليم الشام ومصر ، واشتغل بذاته ، ولعدم مصاحبته أبطال الحروب الصليبية كثيراً ، وإنما فترات متقطعة ، وربما للجفوة معهم ، التي لا تصل إلى حدّ القطيعة"^(٢).

فشعر أسامة ما هو إلا تمثيل شعري لواقعٍ مُعاشٍ ، إلى جانب أنه اتخذ وسيلة أخرى للإخبار عن المعارك التي عايشها ، وهي الطريقة النثرية التي يكون فيها الوصف أدقّ ، والمجال للإسهاب أوسع ، فقد جاء كتابه (الاعتبار) حافلاً بأخبار المعارك والغزوات التي خاضها بشيء من التفصيل ، وهو يُعدّ " من أنفع ما كتب في تاريخ القرن السادس الهجري . لقد كشف أسامة فيه عن الغرض الأسمى من دراسة التاريخ ؛ لأنه شرح الحوادث التاريخية بوجهة نظره فيها ، واستخلص العبرة منها"^(٣).

وعلى كلّ حال فقد تمكن أبو فراس وأسامة من وصف المعارك ، وإن وصفها بالصورة الموجزة ، فهذا الإيجاز دليل على مقدرتهم على سرد تفاصيل المعركة ببراعة ، فقد أظهرنا تلك البراعة في خوض هذا الفن من خلال قصائدهما التي اعتبرها بعض الدارسين من الملاحم ؛

(١) قدماء ومعاصرون ، ص ١٠٩-١١١ .

(٢) الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ، ص ٥١٠ .

(٣) أسامة بن منقذ صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٣٤ .

لطول النفس فيها ، أما عن مردّ هذا الإيجاز في أشعارهما فلعلّه اشتغالهما بالمعركة ، وانصرافهما عن ذكر تفاصيلها ، فهما شاعران فارسان أصبح لديهما تشبع ذاتي عن ذكر تفاصيل الحرب ، وكذلك هما أميران ترفعا بشعرهما عن التكسب به ، فلا يريدان من سرد الوقائع تقرباً من حاكمٍ أو غيره ، إنما أرادا أن يكون شعرهما شاهداً على هذه البطولة ، فصورا بألفاظ معبرة في أبيات قليلة ما يصور من خلال مطوّلة بأكملها ؛ لأنّ ذلك يتناسب مع شخصيتهما القتالية ، فقتالهما في الحرب يعجز اللسان عن وصفه ، ثم إن قوتهما القتالية غلبت قوتهما الشعرية ، فأعجزتهما عن الوقوف على تفاصيل المعركة ، لذلك جاء شعرهما في وصف المعارك مجرد إشارات تمثل واقعاً مُعاشاً ، فهما بذلك يثبتون أنهم فرسان شعراء ، جعلوا الشعر أداةً من أدواتهما الحربية .



الفصل الثاني

المخاض الفني لشعر الفروسية

ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الصورة الشعرية .

المبحث الثاني : الفنون البديعية .

المبحث الثالث : لغة الشعر (المعجم الشعري) .

الفصل الثاني

الخصائص الفنية لشعر الفروسية

المبحث الأول : الصورة الشعرية :

لقد أظهر الشعراء الفرسان براعتهم في حسن تصويرهم وجمال عرضهم لشعر الفروسية. فقد كانت الصور التي ذكروها - في أكثرها - صوراً بسيطة اعتمدوا فيها على أسلوب البيان حيث تناولوا الصور القرية من المشاهد المحسوس وهدفهم من ذلك نقل مشاعرهم والتأثير بها في نفس المتلقي .

وحظيت الصورة بأهمية كبيرة في النقد العربي ، فلقد كانت " دوماً موضوعاً مخصوصاً بالمدح والثناء ، إنما هي وحدها التي حظيت بمنزلة أسمى من أن تتطلع إلى مراقبها الشائخة باقي الأدوات التعبيرية الأخرى . والعجب أن يكون هذا موضع إجماع بين نقاد ينتمون إلى عصور وثقافات ولغات مختلفة ، ولهذا أمكن القول : إن الصورة الشعرية كيان يتعالى على التاريخ "^(١) .

" والصورة عنصر عمدة لا يخلو منه العمل الأدبي ، وطابع أصيل في أيّ إبداع شعري ، وهي وعاء الأديب الذي ينقل به مشاعره وأحاسيسه "^(٢) .

وينصّ حازم القرطاجي على أن " الأقاويل الشعرية إنما هي تصوير للأشياء الحاصلة في الوجود ... وأن المعاني التي تتعلق بإدراك الحسن هي التي تدور عليها مقاصد الشعر ، وتكون مذكورة فيها لأنفسها ، والمعاني المتعلقة بإدراك الذهن ليس لمقاصد الشعر حولها مدار "^(٣) .

والصورة الشعرية مستمدة من مدركات الشاعر ومحيطه ؛ يقول ابن طباطبا العلوي في ذلك : " واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها ، وأدركته عيانها ، ومرّت به تجاربها "^(٤) .

(١) الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، تأليف : الولي محمد ، ط ١ ، ١٩٩٠ م ، ص ٧ .

(٢) الصورة الفنية في الشعر العربي (مثال ونقد) ، إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم ، الشركة العربية للنشر ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ١٨ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبي الحسن حازم القرطاجي ، تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجه ، تونس ، ١٩٦٦ م ، ص ١٢١ .

(٤) عيار الشعر ، لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، تحقيق وتعليق : د. طه الحاجري ، و د. محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، ص ١٨ .

" الصورة مصطلح نقدي حديث ، مختلف عن مفهوم الخيال في النقد العربي القديم"^(١).

والصورة " تأتي من تشكيل الشاعر الخاص للكون عن طريق فكره المشحون بالعاطفة ، وبالتالي فتح منافذ الكون الجديد زماناً ومكاناً ؛ حتى يدخل منها الآخرون بعد أن يكونوا قد توحّدوا معه في الرؤيا والتوقع . فالمرء قد يكون إما فاعلاً مستغرقاً ، وإما مشاهداً متفاعلاً ؛ ذلك لأنّ الرؤيا هي التي تدفع الفعل عند الشاعر ، والتفاعل يحقق الرؤيا عند المتلقي أو الناقد .

إن الصورة الشعرية هي الجوهر الثابت والدائم في الشعر ، ويظل الاهتمام بها قائماً ما دام هناك شعراء مبدعون ، ونقاد يحاولون تحليل ما أبدعوه وإدراكه ، والحكم عليه"^(٢).

ولا يعد الشعر بدون الصورة شعراً ، ويحكم الدكتور عز الدين إسماعيل على الصورة في الشعر العربي القديم بأنها : " حسية ، حرفية ، شكلية ، جامدة ، دون أن يستثني عَصراً أو شاعراً"^(٣).

ولا شك أن التعميم في ذلك مجانبٌ للصواب ، وإن كان أغلب الصور الشعرية تعتمد على الإدراك الحسي ، " وهذا الإدراك الحسي يتدخل كثيراً في بناء الصورة الشعرية ، وما أكثر ما نرى في الشعر العربي من صور شعرية تروق لحاسة البصر أو السمع أو الذوق أو الشم أو اللمس ، أو من صور تروق لحاستين أو أكثر من الحواس"^(٤).

فالصورة " لا تقف عند مجرد الأشكال البلاغية المعروفة ، بل تتعدّها إلى الوصف المباشر القائم على حوار الأحاسيس مع الحواس على اختلاف أنواعها ؛ مما ينتج عنه تلك الصورة الحسية التي تؤثر تأثيراً ظاهراً في إيقاع الشعر عامة"^(٥).

(١) النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال ، دار النهضة ، مصر ، ١٩٧٣م ، ص ١٦٢ .

(٢) تطوّر الصورة في الشعر الجاهلي ، تأليف : د. خالد الزواوي ، ط ١ ، مؤسسة حورس الدولية ، الإسكندرية ، ص ١٨ .

(٣) الأدب وفنونه ، عزّ الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٨م ، ص ١٤٠ .

(٤) في النقد الأدبي ، د. عبد العزيز عتيق ، ط ٢ ، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م ، ص ٦٨ وما بعدها .

(٥) موسيقى الشعر ، د. محمود عسران ، مكتبة بستان المعرفة ، الإسكندرية ، ٢٠٠٧م ، ص ٣٤٥ .

ويعدّ أسامة الصورة الشعرية من محاسن المعاني بقوله : " محاسن المعاني ثلاثة : الاستعارة ، والتشبيه ، والمثل ، فاقصد إليها واعتمد عليها " ^(١) .

فقد اعتمد على أبرز تلك المحاسن من خلال الصور الحسية ؛ يقول الدكتور عبد الجليل عبد المهدي : " تتمثل الصورة الفنية الشعرية في شعر شعراء الشام في القرن الخامس في أشكال البيان ، من تشبيه ، واستعارة ، وكناية .. وغالباً ما تكون تلك الصور الفنية حسية ، فإما أن تكون بصرية ، أو سمعية ، أو لمسية ، أو ذوقية ، أو شمّية . وهي صور تقليدية في غالب الأحيان ، ومنها ما قد يكون مستمداً من العصر الذي يعيش فيه الشعراء ، متأثراً بالمظاهر الحضارية فيه " ^(٢) .

فقد " فطن كثير من النقاد إلى أن التصوير الحسي في الشعر أحد خصائصه الجوهرية ، فقيمة الشعر تنبثق - غالباً - من لغته التصويرية المحسوسة التي تجسد المعاني والمشاعر في هيئات وأوضاع بشرية عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو التمثيل ، ومعنى ذلك : أن الشعر إنما يقوم بوظيفته الفنية حين يقدم صوراً يدرکها المتلقي إدراكاً حسيّاً ، فتؤثر في وجدانه ، وتنفذ إلى مشاعره ، فالحواس هي أبواب المشاعر والنوافذ الطبيعية إليها " ^(٣) .

فالصور الشعرية تتميز بطابعها الحسي ، لاسيما عند الشعراء الفرسان ؛ ذلك لأنهم شعراء تعودوا الاعتماد على حواسهم في رصد تجاربهم القتالية قبل الشعرية ، إلى جانب أنهم لم يتعمدوا ولم يجهدوا قريحتهم في طلبها ؛ لأنّها طبعٌ فيهم ، فكان تركيب شعرهم معتمدة على حواسهم ومداركهم ، وما شعرهم إلا استجابة لتلك الحواس ، ولا يبالغ البحث في كون الصور الشعرية المتصلة بالحواس تكاد تظهر في كلّ بيت ؛ وذلك لمعرفةهم بأهمية هذه الصور الحسية وثباتها في الذهن أكثر من ثبات الصور المعنوية ، فإن " للإدراك الحسي أثره

(١) البديع في البديع ، في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق : أحمد أحمد بدوي ، والدكتور : حامد عبد المجيد ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م ، ص ٢٩٨ .

(٢) الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري ، تأليف : د. عبد الجليل حسن عبد المهدي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط ١ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ، ص ٣٩٥ .

(٣) المعنى الشعري في التراث النقدي ، د. حسن طبل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، ص ٧٩ .

الملحوظ في الإنتاج الأدبي ، فإذا كان هذا الإدراك قوياً واضحاً ، استطاع الأديب أن يصف ما يحس وصفاً دقيقاً مطابقاً للواقع" (١).

الصور البصرية :

" للبصر أهمية في تكوين الصورة الفنية ، وذلك بأن ينقل الشاعر ما يراه إلى المتلقي ، ذاكراً أو صافه وأحواله المرئية ، أو يبرز أمراً عقلياً في صورة أخرى مرئية ، ويذكر صفاته الشكلية أو اللونية" (٢).

كما أن " الصورة البصرية هي مخاض جميع الحواس ، وثمره كلّ الملكات ، فهي الإلهام الذي يأتي الشاعر اتفاقاً نتيجة قراءاته ومشاهداته وتأملاته ، بل تجربته التي يجيها بعمق ، فيثير عن طريقها خياله وذاكرته على السواء ؛ ليسوقاً تعبيراً مفعماً بالحركة" (٣).

فمن صور أبي فراس البصرية قوله (٤) :

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلِ الظُّلْمَاءِ يَفْتَقِدُ البَدْرُ

يصور الشاعر في هذا البيت حاجة قومه له في مشهد تصويري مبدع ، قائم على التشبيه الضمني ، ففي الليلة المظلمة يحتاج الناس إلى البدر المضيء لينير لهم حياتهم ، فكان هو ذلك البدر الذي لا يستطيعون العيش من دونه ، وإنّ فقدته يعني أنهم سيعيشون في ظلمة أبدية .

وقوله (٥) :

مَتَى تَخْلَفُ الأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتِي طَوِيلُ نَجَادِ السِّيفِ رَحْبُ المَقْلَدِ

فالشاعر يصور لهم الهيئة الجسدية التي يتحلى بها ، فهو طويل القامة ، عريض ما بين الكتفين ، وهذه الصفات خير صفات يتحلى بها الفارس ، فقد صاغها في قالب كنائي رائع يظهر من خلاله تفردة على الفرسان ، فهذه الصفات لا تتضح بكثرة

(١) في النقد الأدبي ، د. عبد العزيز عتيق ، ص ٦٨ .

(٢) الصورة الفنية في الشعر العربي (مثال ونقد) ، إبراهيم الغنيم ، ص ٨٩ .

(٣) موسيقى الشعر ، ص ٣٤٥ .

(٤) ديوان أبي فراس ٢/ ٢١٣ .

(٥) المصدر السابق ٢/ ١٦ .

بينهم ، لذلك بدأ البيت بصيغة الاستفهام .

كما يقول مصوراً فرسه^(١) :

وَجُرْدٌ كَأَمْثَالِ السَّعَالِي سَلاهِبٌ وَخُوصٌ كَأَمْثَالِ الْقِسِيِّ نَجَائِبٌ

فالشاعر يعطي صورة مميزة لخيوله ، فهي قصيرة الشعر ، وهي مثل السعالي ، وخصوص مثل القسي ، وبذلك حرص الشاعر على إعطاء صورة مركبة لخيوله ؛ وذلك لتحريك خيال المتلقي في رسم صورة للفرس .

ومن الصور البصرية الرائعة أيضاً : تصويره لأفعال الحسام في أجساد الأعداء^(٢) :

بِحَيْثُ الْحَسَامِ الْهُنْدَوَانِيَّ خَاطِبٌ بَلِيغٌ وَهَامَاتُ الرَّجَالِ مَنَابِرٌ

فشبهه السيف وهو يقطع الأعناق بالخطيب الذي يعلو المنابر ، فرصد بذلك حركة السيف ؛ ليثبت له تلك المكانة العالية .

وقوله^(٣) :

غداة يصيب الجيش من كلِّ جانب بصير بضرب الخيل والجيش ماهرٌ
بكل حسام بين حديدية شعلة بكف غلام حشو درعيه خادرٌ

يصور الفارس الشجاع الخبير بالخيول ، الماهر الذي يصيب بحسامه الذي يظهر بين حديدية شعلة عند الضرب به في كف غلام حشو درعيه رمح ، فحسد هذا الفارس يشبه الرمح .

ولم يكتفِ الشاعر بإعطاء تلك الصورة المشعة للسيف ، بل رصد له صورة أخرى ، وذلك بقوله^(٤) :

على كلِّ طيار الضلوع كأنه إذا انقض من علياء فتحاء كاسر

(١) ديوان أبي فراس ٣١/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٥٧/٢ .

(٣) السابق ١٢٠/٢ .

(٤) نفسه ١٢٠/٢ .

فقد أعطى الشاعر صورة جميلة للسيف ، فهو عندما ينقضّ على الضلوع يشبه أنثى العقاب في انقضاضها على فريستها .

كذلك لم يغفل الشاعر عن رصد لون تلك السيوف والرماح^(١) :

وحمر سيوف لا تجف لها ظبي بأيدي رجال لا يحط لها لبد
وزرق تشق البرد عن مهج العدا وتسكن منهم أينما سكن الحقد
فسيوفه حمر من دماء أعدائه ، ورماحه تسكن في قلوب أعدائه ، فالحقد لا يسكن
إلا القلوب ..

ويقول^(٢) :

يَمْنُونُ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلِيٌّ ثِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمُرٌ

في هذا البيت يصور أبو فراس الشجاعة التي تميز بها ، حتى إن من يشاهد ثيابه بعد المعركة يجدها قد تغير لونها ، فقد تحلّت باللون الأحمر ، وذلك كناية عن كثرة القتلى الذين قد تغلّب عليهم ، وترك أثر دمائهم على ثيابه ؛ لتكون شاهداً على شجاعته ، التي فقد الفرصة لممارستها فظلّ مشهدها حاضراً في ذهنه .

وقد عبر أبو فراس عن عمق المعاناة التي عاشها في الأسر بقوله^(٣) :

وَأَبْطَأَ عَنِّي وَالْمَنَائِيَا سَرِيْعَةً وَلِلْمَوْتِ ظُفْرٌ قَدْ أَطَلَّ وَنَاب

في هذه الصورة الاستعارية الرائعة يظهر أبو فراس حاله في الأسر ، فهو في الوقت الذي يبطئ ابن عمه في مساعدته بإخراجه من الأسر ، تسرع إليه المنايا ، تلك المنايا التي شبيهها بالوحش الضاري ، الذي ذكر منه : الظفر والناب ؛ ليخرج صورة بصرية رائعة تتناسب مع حالته النفسية ، فالموت الذي كان في السابق لا يخشاه ويواجهه ، أصبح اليوم له منظر مختلف عند الشاعر ، وذلك باختلاف الزمان والمكان .

(١) ديوان أبي فراس ٩٢/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢١٣/٢ .

(٣) السابق ٢٤/٢ .

ومن صورهِ البصرية لوصف المعارك ، قوله^(١):

وَأَجَلَتْ لَهُ عَنْ فَتْحِ (مِصْرٍ) سَحَابٌ
مِنَ الطَّغْنِ سُفْيَاهَا الْمَنَايَا الْحَوَاضِرُ

وصف لنا المشهد الحربي وكأنه مشهد طبيعي لظاهرة طبيعية ؛ سحاب تسقي الأرض ، ولكن تلك السحاب من الطغن لا تسقي إلا الموت .

وكتيراً ما رصد الشعراء الفرسان صور المعارك وربطوها بالطبيعة ، رغم الاختلاف في الحالة ، فهم يرون أن منظر الحرب قريب الشبه بمنظر المطر .

ومن صورهِ البصرية البليغة : تصويره لكثرة الجيش^(٢):

وقاد إلى أرضِ (السَّبْكَرِيِّ) جَحْفَلًا
يُسَافِرُ فِيهِ الطَّرْفُ حِينَ يُسَافِرُ

فقوله : (يسافر) فيه الطرف حين يسافر كناية عن كثرة الجيش ، فهو لا يغيب عن العين مهما بعد . ورصد سرعة الجيش بقوله^(٣):

عَبْرَنَ (بِمَاسِحٍ) وَاللَّيْلُ طِفْلٌ
وَجِئْنَا إِلَى (سَالِمَةَ) حِينَ شَابَا

فرسم صورة جميلة لسرعة الجيش .

فقد " أراد بقوله : (والليل طفل) أوله ، ويقوله : (حين شابا) آخره ، وهو الصباح "^(٤) ، فهو يوضح سرعة سيف الدولة في القضاء على الفتن الداخلية ، فلم يحطّ في مكان بالليل ليطلع عليه النهار إلا وهو في مكان آخر .

وقال مصوراً منظر جيش الأعداء^(٥):

وقادَ (نَدِي بِنُ جَعْفَرٍ) مِنْ (عُقَيْلٍ)
شُعُوبًا قَدْ أَسَلْنَ بِهِ الشَّعَابَا

(١) ديوان أبي فراس ١١٢/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٢/٢ .

(٣) السابق ١٤/٢ .

(٤) قراضة الذهب ، في نقد أشعار العرب ، ابن رشيق ، تحقيق : الشاذلي بويحيى ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، ١٩٧٢م ، ص ٤٦ .

(٥) ديوان أبي فراس ١٤/٢ .

ففي البيت السابق مشهد حركي رائع لمنظر هجوم الأعداء ، فالشاعر أراد أن يوضح مدى قوة الأعداء وكثرتهم ، فقائد الأعداء يقود جيوشاً من كثرتها سالت الشعاب ، وذلك كناية عن كثرتها ، فقد تحلى الشاعر بالأمانة في إظهار قوة الخصم ، بل إن من الافتخار بالنفس والاعتداد بها أن يوصف الخصم بالقوة .

ورصد الشاعر منظر الأعداء في الأسر ، فقال^(١) :

وأقبلَ بالشَّاري يُقَادُ أَمَامَهُ وللقَيْدِ فِي كِتَا يَدَيْهِ ضَفَائِرُ

فقد برزت الصورة البصرية من خلال التشبيه ، حيث شبه القيد بالصفائر . وقد صور أسامة مشاهد بصرية في شعره لا تختلف عن مشاهد أبي فراس ، فمن ذلك قوله^(٢) :

أخوضُهَا كَشَهَابِ الْقَذْفِ مَبْتَسِماً طَلَقَ الْحَيَا وَوَجْهَهُ الْمَوْتَ قَدْ كَلَحَا
بِصَارِمٍ مَن رَأَاهُ فِي قِتَامٍ وَغَى أَفْرِي بِهِ الْهَامَ ظَنَّ الْبَرْقَ قَدْ لَمَحَا

فقد رسم الشاعر لنفسه صورة رائعة ، وذلك حين شبه نفسه بالشهاب المرسل على أعدائه ، والفرح والبهجة تملأ وجهه رغم الموت المائل أمامه ؛ وذلك لأنه يصاحبه سيفٌ من يشاهده في الحرب وهو يقطع الرؤوس ، يظنُّ أو يتراءى له أن البرق لمع من قوة ضربه ، أو من سرعته ويؤكد على هذه الصفة للسيف بقوله^(٣) :

أغْدُو لِنَارِ الْوَغَى فِي الْحَرْبِ إِنْ خَمَدَتْ بِالْبَيْضِ^(٤) فِي الْبَيْضِ^(٥) وَالْهَامَاتِ مَقْتَدِحَا

فالسيف هو الأداة القادرة على إشعال نيران الحرب ، وذلك بضرها لرؤوس الأعداء . فيقول فيها أيضاً^(٦) :

أخوضُهَا كَشَهَابِ الْقَذْفِ يَصْحَبُنِي عَضْبٌ كَبْرَقَ سَرَى أَوْ ضَوْءٌ مَقْبَاسِ

(١) ديوان أبي فراس ١١١/٢ .

(٢) ديوان أسامة ، ص ٢٥٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .

(٤) البيض : السيوف .

(٥) البيض : الخوذ .

(٦) السابق ، ص ٢٦١ .

فالشاعر يرسم صورة بصرية مضيئة لسيفه ؛ وذلك ليشعر المتلقي بأهمية ذلك السيف لديه .

وله أبيات يصور فيها مشهد المعركة ، فيقول^(١) :

نرى الجمال المصحبات بيننا مَهْمَلَاتٍ وَالرَّجَالُ بَدَدَا
موقف توديع ترى البيضَ به شُهْبًا وَهَابِي النِّقَعِ لَيْلًا أَسْوَدَا
وللطعان في الكُماةِ أعيناً تَهْمِي عَلَى السَّرْدِ نَجِيعًا مُزْبَدَا
فيآله من موقفٍ رقيبُهُ كَتَائِبُ الْأَعْدَاءِ وَالْوَأَشِي الرَّدَى

فالشاعر يحاول أن يترك للمتلقي فرصة تصوير المشهد الحربي الذي دارت فيه بطولات فريدة ، فبعد رصده للتجربة وتصويره للمشهد ، ختم ذلك بقوله : (فيآله) ، تاركاً بذلك مشاهد عديدة للمتلقي أن يتخيلها .

ويقول^(٢) :

ألستُ الذي ما زال كهلاً ويافعاً له المكرماتُ العُرُ والنائلُ العَمْرُ
وخائضَ وقعاتٍ بوارقها الطِّبَا ووابلُ هاتيكَ البروقِ دمٌ همْرُ

فمنظر السيوف وهي تقطع رؤوس الأعداء ارتبط في مخيلة الشاعر بمنظر البروق ، فقد جمع الشاعر بين المشهدين ؛ وذلك ليوحى من خلال تلك الصورة بالمنظر الجميل الذي يكون محبباً للنفس ، ويعود بالخير والنفع^(٣) :

وقد كان لونُ الخيلِ شتّى فأصبحت تُعَادُ إلينا وهي من دمهم شُقْرُ
برزنا له كالليث فارقَ غيلَه وعادته كسرُ الفرائسِ والهَصْرُ
وسرنا إليه حين هابَ لقاءنا وبانَ له من بأسنا البؤسُ والشُرُ

فالشاعر يصور كيف كانت الخيول متعددة الألوان قبل بداية المعركة ، ولكنها بعد

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(٣) السابق ، ص ٢٥٢ .

الانتهاء منها أصبح لها لون واحد من دماء الأعداء . وأخذ يوضح كيف اكتسب هذا اللون ، فالفرسان كانوا كالليوث تعودت كسر فرائسها .

ويقول^(١):

أسلمتنا وسيوفُ الهندِ مُغمدةٌ ولم يُروّ سنانَ السّمهريِّ دَمُ

في هذا البيت يصوّر الشاعر حزنه الشديد على عدم مقاومة الأعداء ، والسماح لهم بالاستيلاء على الأرض دون قتال ، فقد اعتاد في مثل تلك المواقف أن يرى السيوف مجردة من أغمادها ، والرمح يتحلى بدماء الأعداء .

ويقول مشبهاً الرماح بجذوة النار^(٢):

وكلُّ أسمرٍ فيه لهذمٌ ذرِبٌ كجذوةِ النارِ لم تُقبس ولم تُقدِ

ويقول في وصف قومه^(٣):

يتهلّلون لدى النّوالِ وفي الوغى يسطونَ بالإرعادِ والإبراقِ

فالشاعر هنا شبه شجاعة قومه في الحروب بالرعد والبرق ، للدلالة على قوة شجاعتهم . وقد رسم الشاعر صورة أوضح لذلك المنظر بقوله^(٤):

فأيماننا في السّلمِ سُحبٌ مواهبٍ وفي الحربِ سُحبٌ وبلهَنٌ دَمٌ همرُ

فأيديهم في السلم تعطي وتهب الأموال ، أما في الحرب فإنها لا تمطر عليهم بغير الدم^(٥):

قومٌ إذا لبسوا الحديدَ عجتَ من بحرٍ تدافعَ في لظىٍ متوهجِ

صُبْرٌ إذا ما ضاقَ معتركُ القنا فرجتْ سيوفُهم مَضيقَ المنهجِ

فقد صور الشاعر منظر قومه وكثرتهم إذا لبسوا لباس الحرب ، وكأنهم بحر يتدافع في

لظى متوهج .

(١) ديوان أسامة ، ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(٣) السابق ، ص ١٨٤ .

(٤) نفسه ، ص ٢٥١ .

(٥) نفسه ، ص ٢٥٩ .

وقد أكثر أسامة من رصد المشاهد البصرية للمعركة^(١):

صوارِنا حُمِرُ المضاربِ من دَمٍ قوائمها من جُودنا نَضْرَةً خَضِرُ
وجيشٌ إذا لاقى العدوَّ ظننتهم أسودَ الشرى عنت لها الأدمُ والعُفرُ
ترى كلَّ سهمٍ في الوغى مثلَ سهمِهِ نُفوذاً فما يثنيه خوفٌ ولا كُثرُ
هم الأسدُ من بيضِ الصوارِمِ والقنا لهم في الوغى النابُ الحديدُ والظفرُ

فقد جمع الشاعر مجموعة من الصور البصرية ، فسيوفهم حمر من دماء الأعداء ، وشبه جيوشهم عند ملاقاتة الأعداء بالأسود ، وكذلك الفارس ، فهو كالسهم في قوة نفوذه وسطوته . وبعد ذلك عاد إلى الجيش ووضح سبب تشبيهه لهم بالأسود ، فسيوفهم ورماحهم هي أنيابهم وأظفارهم .

وقوله يصف كثرة الجيش^(٢):

سرايا كموج البحر في ليلٍ عثِيرٍ به من عواليهم نجوم نواجمُ
تعرض منها فوق غزة عارض سحب المنايا فوقه مُتراكمُ

فقد استطاع الشاعر أن يعرض صورة للجيش الإسلامي بمشهد بصري رائع تمثل في منظر ذلك الجيش الذي يشبه أمواج البحر بالليل ، وهو الوقت الذي تصعب الرؤية فيه ؛ لشدة الظلمة ، أما جيش المسلمين فقد غدا واضحاً تشاهده الأبصار ، وذلك بسبب رماحهم التي شبهها بالنجوم ؛ نظراً لإضاءتها ولمعائها ، وختم ذلك المشهد بالسحاب المتراكم الذي ظهر مع هذه الجيوش ، ولكنه لم يكن يحمل معه إلا الموت والدمار للأعداء .

كما صورّ الشاعر حال الأعداء بعد القتال ، فقال^(٣):

دماؤهم في البحر حُمِرُ سوائح وهامهم في البرِّ سُحْمُ جواثم

فقد تحوّل لون البحر إلى اللون الأحمر من كثرة الدماء التي سالت فيه ، وتطايرت

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٣) السابق ، ص ٢٧٦ .

رؤوسهم في البر فملأت أرجاء المكان .

ومن سلم من هذا المصير لم يهمل الشاعر ما حلّ به ، بل رصد ذلك المشهد بقوله^(١):

والذي لم يجن بسيفك من خو فك أمسى وعقله مخبولُ
مثل الخوف بين عينه جيشاً لك في عقر داره ما يزول

فمصير جميع الأعداء هو القتل ، ومن نجا منهم فلن ينعم براحة البال ، بل سيعيش في حالة هلع وذعر وخوف ؛ وذلك لأن منظر الجيش المرعب سوف يلاحقه حتى في عقر داره .

الصور السمعية :

" إن للسمع جلاء ، وإن للمسموع حضوراً ذهنياً أسمى مما يدرك بال نظر ، والسمع قد ينفع المرء حين لا ينفعه البصر ، واستشعار الجمال يكمن في السمع كما يكمن في البصر تماماً"^(٢). الصور الشعرية في الأصل كلها صور سمعية لأن المقصود بالصورة السمعية هو الدال نفسه أي كلام المسموع الذي يصور لذلك حرص الفارسان الشاعران على إكساب شعرهما الفروسي عدداً من الصور السمعية ، حتى ينقلوا المتلقي إلى أرض المعركة وأجوائها وأصواتها ، فمن صور أبي فراس السمعية^(٣):

وساق إلى ابن الديوداد كتيبة لها لجب من دونها وزماجر^(٤)

فالشاعر يرصد الأصوات المصاحبة للكتيبة ، وهي أصوات تعالت واختلفت من كثرة من فيها .

ويقول في التعريف عن نفسه^(٥):

وقد عرفت وقع المسامير مَهَجَتِي وشقق عن زرق النصول إهابي

فقد أصبح جسد الفارس معتاداً على صوت المسامير والمقصود بها أدوات الحرب التي كان يتعرض لها .

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٤١ .

(٢) موسيقى الشعر ، ص ٣٥٠ .

(٣) ديوان أبي فراس ١١٢/٢ .

(٤) اللجب : اختلاف الأصوات . والزماجر : أصوات الحرب .

(٥) ديوان أبي فراس ٢٩/٢ .

فقد صور الشاعر الألفة التي حصلت بينه وبين أدوات الحرب ، حتى أصبح لها وقع خاص عنده .

وقوله^(١):

ويوم تخال الرعدُ في جنباته لشدة أصوات القنا والهماهم

فالشاعر ينقل للمتلقي جوّ المعركة ، فيخبره أنه من شدة الأصوات الناتجة عن ضرب الرماح لرؤوس الأعداء يتخيل للسامع أنها أصوات رعد ؛ وذلك للدلالة على قوة الشجاعة وشدة احتدام الصراع بين الطرفين .

وقوله^(٢):

يَعِيبُ عَلَيَّ أَنْ سَمَّيْتُ نَفْسِي وَقَدْ أَخَذَ الْقَنَا مِنْهُمْ وَمِنَّا
فَقُلْ لِلْعَلِجِ لَوْ لَمْ أُسَمِّ نَفْسِي لَسَمَّانِي السِّنَانُ لَهُمْ وَكَنِّي

فقد جعل من رمحه شاهداً على فروسيته .

وقال^(٣):

ورُبَّ كَلامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسامِعي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الهَجِيرِ ذُبَابٌ

فقد صور الشاعر الأسير كيف يمرّ عليه كلام الحاقدين والشامتين كما طنّ في لوح الهجير ذباب ، فهو يتجاهلهم ، لم يسمع شيئاً ، وفي هذه الصورة إظهار للتجلد والصبر ، رغم عمق المعاناة وقسوتها ، ففي تجاهله لهم نصرٌ عليهم .

ومن صور أسامة السمعية قوله يصف حربهم مع الأفرنج^(٤):

وحرب لها الأرواحُ زاهقة لما تعانين والأصواتُ من دهش لغط

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٨٣ .

(٢) المصدر السابق ٣/٤٠٦ .

(٣) السابق ٣/٢٣ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٢٢٧ .

ويقول مصوراً لحظة هروب قائد الفرنج^(١):

فولى يُبارى عاترات سِهَامِنَا وفي سمعه من وقع أسيافنا وقرُّ
فالقائد من شدة الأصوات التي سمعها في الحرب - وخصوصاً وقع السيوف - أصابه
الصمم ، فلم يعد يستطيع السمع .

ويقول^(٢):

وأضحى عليه للسهام وللظبا ووقع المذاكي الرعد والبرق والقطرُ
ولقد هرب وحمل معه أثر تلك الحروب الممطرة التي انهالت عليه ، وأصابه الفرسان
بسهامهم وسيوفهم وأقدام خيلهم .

وقال^(٣):

إذا ضاق بالخطيِّ مُعْتَرِكُ الوغى وهال الردى وقع الظبا في الجمجم
سلِّ الموت عني فهو يشهد أنني على خوضه في الحرب ثبت العزائم
فالشاعر يحرص على إثبات الشجاعة لنفسه ، حتى إنه جعل الموت شاهداً على تلك
الشجاعة التي أظهرها الفارس وقت اشتداد الحرب ، وعبر عن تلك الشدة بوقت استخدام
السيوف التي لها وقع وصوت خاص عند قطع الرؤوس .

الصورة الذوقية :

وتجلت الصورة الذوقية عند الفارسين من خلال عرضهما لطعم الموت ، فمن ذلك :

يقول أبو فراس^(٤):

يا خائف الموت وأنت سائقه تفرّ من شيءٍ وأنت ذائقه

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

(٣) السابق ، ص ٢٦٩ .

(٤) ديوان أبي فراس ٢/٢٦٥ .

فالشاعر يتعجب من خوف الناس من الموت ، مع أنه شيء محتّم عليهم ، بل جعل له طعاماً عذباً يُقبل عليه الفرسان :

قد عذب الموت بأفواها
إنا إلى الله لما نابنا
والموت خير من مقام الذليل
وفي سبيل الله خير السبيل^(١)

فالموت له طعم عذب في أفواه الفرسان ، وتلك العذوبة منشؤها الراحة والعز ، فهو خير من الذل^(٢) :

وموت في مقام العز أشهى
إلى الفرسان من عيش بمهنة
فالفارس حريص على الموت ، والسهام موائده الشهية .
وقال^(٣) :

إذ قال : أسقوني فعوض بالقنا
من شرب عذب الماء ما أرواه
ومن أبرز صور أبي فراس الذوقية ، تلك الصورة الفريدة اللذيذة للحرب عنده^(٤) :

ولا تصفن الحرب عندي فإنها
طعامي مذ بعث الصبا وشراي
فالحرب هي الزاد الذي يتغذى به ، فلا يرى له طعاماً أحبّ وأشهى من مقارعة
الفرسان ، بل يرى أن الدماء غذاء لأبنائهم أيضاً ، فيقول^(٥) :

أبنان أم شبلان ذان فإنني
لأرى دماء الدارعين غداهما
ثبني الفراسة : أن في ثوبيهما
ليثين تجتنب الليوث حماهما

فالصورة الذوقية للحرب ممتدة حتى عند أبناء الفرسان ، فالشاعر لم يجد أفضل وأحبّ غذاء لبني سيف الدولة من دماء الدارعين ؛ وذلك

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق ٣/٤١٩ .

(٣) السابق ٣/٤٢٣ .

(٤) نفسه ٢/٢٩ .

(٥) نفسه ٣/٣٥٩ .

ليثبت لهما الشجاعة منذ الصغر^(١):

ويخوض نيران الوغى وكأنه ظمآن خاض موارد الغدران

ففي الحرب الماء الذي يعيش عليه الفارس^(٢):

والبيضُ والسمرُ لا تُروى بغير دمٍ من كلِّ جائشة الأرجاء بالزبدِ
صدّين حتى جلاها في النحورِ وفي الـ هماماتٍ أروعُ يُروى غلّ كلِّ صدِّ

وأداوتهم الحربية لا تُروى بغير الدماء .

وبذلك تغلب أبو فراس على أسامة في كثرة ورود الصور الذوقية في شعره الذاتي ، وهي صور معنوية أو مجازية ، " وفي هذا ما يشير إلى أن استعمال الشاعر للذوق قد جاء ليمنح الصورة الفنية روحاً ، وليدلّ على قوة تفاعل الشاعر مع الحدث الداعي إلى التصوير ؛ وذلك لأنّ مجرد ذكر المطعوم بطعمه الحقيقي لا يعدو أن يكون نقلاً للواقع . أما حينما يسند للحياة ، فإن الأمر يختلف ، حيث تصطبغ الصورة بروح الشاعر ، ويضفي عليها من عاطفته ما يدلّ على موقف الشاعر من المشهد ، وتفاعله معه " ^(٣).

لقد ظهرت الفروسية في صورهِ الشعرية ظهوراً بارزاً ، " وفي شعره الكثير من تغنيهِ بالحرب وطربه لها وتهليله للنصر فيها ، بل إن خياله الشعري متأثر بفروسيته ، فغالباً ما يلتقط مشبهاته من ساحات الوغى " ^(٤).

وكذلك فعل أسامة ؛ وذلك لأنّ الفروسية ومضامينها لا تفارق مخيلتهم ، فاستمدت تلك الصور " عناصرها - ألوانها وأجزائها وحركاتها - من الدماء الجارية ، والسيوف

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(٣) الصورة الفنية في الشعر العربي (مثال ونقد) ، إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم ، ص ١١٣ وما بعدها .

(٤) المنتبي الإنسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ، رسالة دكتوراه في الأدب ، إعداد : نورة صالح

الشعلان ، إشراف الأستاذ : درويش الجندي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٧هـ -

١٩٨٧م ، ص ٩٠ .

اللامعة ، والرماح المشتجرة ، والجيوش الكثيفة كقطع الليل" (١).

كما قد تتداخل الصور الحسية عندهما ، فمن ذلك قول أبي فراس (٢):

أَحْسَنُ مِنْ قَهْوَةٍ مَعْتَقَةٍ بِكَفِّ ظَبِيٍّ مَقْرَطِقٍ غَنَجِ
صَوْتُ قِرَاعٍ فِي وَسْطِ مَعْمَعَةٍ قَدْ صَبَغَ الْأَرْضَ مِنْ دَمِ الْمُهَجِّ

فقد جمع بين الصور الذوقية والسمعية والبصرية ، وجميعها تدور حول فروسيته .

وكذلك فعل أسامة بقوله (٣):

جَعَلْنَا الْجِهَادَ هَمًّا وَاشْتِغَالًا وَلَمْ يُلْهِنَا عَنْهُ السَّمَاعُ وَلَا الْخَمْرُ
دَمَاءُ الْعِدَا أَشْهَى مِنَ الرَّاحِ عِنْدَنَا وَوَقَعَ الْمَوَاضِي فِيهِمُ التَّيْئُ وَالْوَتْرُ

فقد جمع بين الصور السمعية والذوقية والبصرية ..

وبذلك يُظهر البحث حرص الفارسيين على إبراز الجانب الحسي في صورهما الشعرية ، مع تغلب أبي فراس على أسامة .

" وتشير دلالات شعر أبي فراس إلى الشأن الكبير الذي أخذته قيمة الفروسية في حياة الشاعر وفنّه ، وهذه الإشارات الكثيرة إلى موضوع الفروسية لم تكن مجرد صور شعرية ، أو مجاز فني للواقع ، بل هي واقع محسوس خالٍ من المبالغة ، ففي نصوص الحرب يبدو شعر أبي فراس مباشراً يطرق الموضوع بسرعة دون موارد أو تورية ، أو اتكاء شديد على المجاز أو المقدمات ، ومع هذا فقد حقق شعره - ولاسيما في هذا الموضوع - نجاحاً فنياً جميلاً" (٤).

ويقول إيليا أبو حاوي : " ولعلّ شدة إخلاص الشاعر وانصرافه للتعبير عن همومه

(١) الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، تأليف : أحمد الشايب ، مكتبة النهضة

المصرية ، القاهرة ، ط ٨ ، ١٩٩٠ م ، ص ٨٠ .

(٢) ديوان أبي فراس ٥٧/٢ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٥١ .

(٤) شعر أبي فراس الحمداني دلالاته وخصائصه الفنية ، د. عبد اللطيف عمران ، ص ١١٨ .

الخاصة ، جعلاه يُعنى بالتعبير المباشر عن تجربته ، يبتعد عن الاستعارات والتشبيه ، ويتوسل بالفكرة عن الصورة ، فهو شاعر انفعال ، وليس شاعر خيال ، شاعر تقرير ، وليس شاعر تصوير ، فشعره لا يتعدى البعد الواحد ، دون تثقيف أو تكثيف ، ودون رؤيا تُحوّل ما يعاني في النفس إلى شيء يُبصر ويشاهد بدلاً من أن يُفهم ويتّضح . فشعره شعر الانثيال والبساطة ، يفيض فيضاً ، ويياشر مباشرة ، دون تعقيد ودون ذهنية ، نكاد لا نشهد فيه حيلة من حيل الغلوّ الذي نشهده في شعر المتنبي ، أو مظهراً من مظاهر التكثيف والصنعة اللذين يطغيان على شعر أبي تمام ، فهو شاعر الصدق والوجدان "^(١) .



(١) في النقد والأدب ، إيليا الحاوي ، ص ٢٩١ .

المبحث الثاني : الفنون البديعية :

يقول ابن الأثير : " اعلم أن العرب كما كانت تُعنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها ، فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدراً في نفوسها ... فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها ، وصقلوا أطرافها ، فلا تظنّ أنّ العناية إذ ذاك إنما هي بألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني "^(١).

وقد اهتمّ أبو فراس وأسامة بألفاظهم واعتنوا بها ، فهما شاعران مطبوعان^(٢).

يقول حازم القرطاجني : " النظم صناعة آلتها الطبع ، والطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرار الكلام ، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها ، فإذا أحاطت بذلك علماً قويتم على صوغ الكلام بحسبه عملاً "^(٣).

فاستخدامهم للمحسنات البديعية ناتج عن علمهم بقيمتها في نفس الشاعر وما تحدّثه من تأثير فيه دون أن يتكلّفوا في طلبها .

يقول أسامة : " واعلم أن محاسن الشعر ثلاثة : التطبيق ، والتجنيس ، والمقابلة "^(٤).

ومن أبرز الفنون البديعية لديهما : الطباق ، والجناس ، والتصريع ، والتضمين ..

الطباق :

والطباق يعني : " أن تكونَ في الشّعْر معانٍ متغايرة ، قد اشتركتا في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة "^(٥).

يقول ابن رشيق : " هو الجمع بين متضادين ، سواء أكان بين لفظين من نوعٍ واحد أم

(١) المثل السائر ، ضياء الدين ابن الأثير ، دار نهضة مصر ، د.ت ، ٦٨/٢ .

(٢) الطبع في اللغة : الخليقة والسجية التي جعل عليها الإنسان . اللسان ، مادة (طبع) .

(٣) منهاج البلغاء ، لحازم القرطاجني ، ص ١٩٩ .

(٤) البديع في نقد الشعر ، ص ٤١٥ .

(٥) نقد الشعر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ،

ط ١ ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ، ص ١٦٢ .

من نوعين مختلفين ، فإذا جاوز الطباق ضدّين كان مقابلة " (١).

ويسميه أسامة : التطبيق ، وذلك في قوله : " واعلم أن التطبيق هو : أن تكون الكلمة ضدّ الأخرى " (٢).

ولقد ظهر أسلوب التضادّ عند الشاعرين ، فمن ذلك قول أبي فراس (٣) :

فَأَظْمَأُ حَتَّى تَرْتَوِي الْبَيْضُ وَالْقَنَا وَأَسْغَبُ حَتَّى يَشْبَعِ الذُّبُّ وَالنَّسْرُ

فقد طابق بين (أظماً) و (ترتوي) ، وبين (أسغب) و (يشبع) ، فهو فارس لا يرتوي حتى ترتوي أدواته ، ويجوع حتى تشبع الحيوانات من أجساد أعدائه .

وقال لما أصاب خده طعنة وبقي أثرها عليه (٤) :

حُسْنُ الثَّنَاءِ بِقُبْحِ مَا فَعَلَ الْقَنَا بِجَمَالِ وَجْهِ نِعَمِ ثَوْبِ اللَّابِسِ

فقد طابق بين كلمة (قبح) و (جمال) .

فالشاعر يرى أنّ ما حلّ بوجهه من أثر ذلك الرمح على قبحة وتغيّر شكله ، إلا أنه نراه جمالاً معنوياً ؛ وذلك لأنّه أظهر الشجاعة في مواجهة رماح الأعداء ، فلم يفترّ منها ، وإنما استقبلها وأعجب بأثرها عليه ، فأصبحت حلية الفارس التي تكسبه جمالاً وعزّاً .

وقوله عندما منعه الجهاد من الخروج للحج (٥) :

وَسُمْرُ أَعَادٍ تَلْمَعُ الْبَيْضُ بَيْنَهَا وَبَيْضُ أَعَادٍ فِي أَكْفِهِمُ السَّمْرُ

فقد طابق بين : سمر أعاد ، وبيض أعاد ، وبين البيض والسمر .

وقال ليظهر كثرتهم عند لقاء الأعداء (٦) :

(١) العمدة ١٥/٢ .

(٢) البديع في نقد الشعر ، ص ٣٦ .

(٣) ديوان أبي فراس ٢١٢/٢ .

(٤) المصدر السابق ٢٣٢/٢ .

(٥) السابق ١٨٦/٢ .

(٦) نفسه ٢٨٥/٢ .

أيا عَجَباً لأمر (بني قشير) ! أراعونا وقالوا : القوم قُلُّ
وكانوا الكثر يومئذٍ ولكنْ كثرنا إذ تعاركنا وقلّوا

فقد صور الشاعر ذلك المشهد من خلال عنصر التضاد ، حيث طابق بين :
كثرتنا ، وقلّوا .

وقوله^(١) :

عُلُوجَ (بني كعب) بأيّ مشيئة ترومون يا حُمُر الأنوفِ مقامي
نفيتكم عن جانبِ الشامِ عَنوةً بتدبيرِ كهلٍ في طِعَانِ غلامِ

فقد طابق بين : كهل و غلام ؛ ليظهر مقدرته العقلية والجسمية في التغلب على أعدائه ،
فهو يتميز برجاحة العقل رغم صغر سنّه وقوّة الجسد .

كما ظهر عنصر التضاد عنده عندما وصف بطولة سيف الدولة بقوله^(٢) :

وعادَ إلى الجميلِ لَهُمْ فعادُوا وقد مَدَّوا لِصَارِمِهِ الرِّقَابَا
أمرٌ عَلَيْهِمْ خوفاً وأمناً أذاقَهُمْ بهِ أرياً وصابا

فقد طابق بين : خوفاً وأمناً ، وبين : أرياً - وهو العسل - وبين الصاب - وهو
شجر مرّ - .

فسيف الدولة ذلك القائد العسكري الذي يتبع سياسة خاصة مع أعدائه ، فمن
عصاه عاش في خوفٍ دائمٍ ، وضاقَت عليه الحياة ، ولا يذوق لها طعماً ، أما مَنْ أطاعه
فسوف ينعم بالأمن ويتلذذ بالحياة .

وقوله^(٣) :

تَضَنَّ بِالْحَرْبِ عَنَّا ضَنَّ ذِي بَخَلٍ ومنك في كلِّ حالٍ يُعْرِفُ الْكِرْمُ

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٦٤ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٦ .

(٣) السابق ٣/٣٥٨ .

فقد طابق بين : بخل وكرم .

كما طابق بين : شرينا وبعنا في قوله^(١) :

شرينا وبعنا بالسيوف نفوسهم ونحن أناسٌ بالسيوف نُتاجرُ

ويرى الدكتور أحمد بدوي أن التوفيق يخون أبا فراس في بعض الألفاظ والأساليب ،
فمن ذلك : " كلمة (أدنى) بمعنى أقرب في قوله :

أما أنا أعلى من تعدون همّة وإن كنت أدنى من تعدون مولدا

في بعض الروايات ؛ لأنه توحى بمعنى الانحطاط ، ولعل الذي دفعه إلى استخدامها :
كلمة أعلى في الشطر الأول"^(٢) .

ومما يقع فيه أبو فراس من هنات دليل على عفويته ، يقول بعض الدارسين : " ويبدو
الطباق في شعر أبي فراس بسيطاً واضحاً ، ولم يقع فيما وقع فيه الشعراء الذين كانت الصنعة
غاية من غايات شعرهم . ولعلنا نستطيع القول : إن هذا الطباق البسيط يرتبط بأبي فراس في
ثقافته العربية الخالصة البعيدة عن التعقيد أو التناقض أو ما إلى ذلك"^(٣) .

وقد استخدم أسامة الطباق في شعره ، ولم يختلف عن أبي فراس ، فمن ذلك قوله^(٤) :

للندی مالک المباح وما ما لك إلا جردٌ وبيضٌ وسمرٌ

فقد طابق بين : البيض - وهي السيوف - والسمر - وهي الرماح - .

وقوله^(٥) :

وما في ملوك المسلمين مجاهدٌ سوانا فما يشيه حرٌّ ولا قرٌّ

(١) ديوان أبي فراس ١١٩/٢ .

(٢) شاعر بني حمدان ، تأليف : أحمد أحمد بدوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٥٢م ، ص ٩٩ .

(٣) أبو فراس الحمداني (حياته وشعره) ، عبد الجليل عبد المهدي ، مكتبة الأقيسى ، عمان ، ط ١ ، ١٤٠١هـ -
١٩٨١م ، ص ٣٧٢ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٢٢٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

فقد طابق بين : حرّ وقرّ ؛ وذلك ليؤكد على مواصلة الجهاد في كلّ الأوقات ، وإن اشتدّت وصعبت .

وقوله^(١) :

فكيف تسامينا الملوك إلى العلا وعزمهم سرّ ووقعائنا جهراً

فقد أثبت الشاعر لهم التميز والتفرد من خلال عنصر التضادّ بين كلمتي (سرّ) و (جهر) .

يقول الدكتور مسعد العطوي : " الشعراء يكثرّون منها في غير ما إسراف ولا تبذل ، وذلك شأن أسامة بن منقذ ، وأخذ بطريقة عشوائية قصيدته الميمية التي يشكر فيها الملك الصالح بن رزيك على بعثه أهله من مصر ، وهي مكونة من تسعة وخمسين بيتاً بما فيها المقدمة المفصولة عنها ، وقد بلغت الأبيات التي احتوت على التقابل ثلاثة عشر بيتاً ، وهذه نسبة متواضعة لا توحى بتكلف أو بُعد مأخذ ، ويبدو أنّه لا يسعى إلى إشارة جدلية من ورائه ...

وظاهرة الاعتدال هذه ظاهرة في جلّ شعره ، ومنه قصيدته الرائية في بطولات الجهاد لنور الدين ، التي بلغت تسعين بيتاً ، وهي من أجود شعره وأجمله تركيباً وتصويراً ، ومع ذلك لم يتكلف أو يتصنع التقابل فيها ، فأبيات التقابل ثمانية عشر بيتاً فقط "^(٢) .

وعلى هذا نلاحظ أنّ كلاً من أبي فراس وأسامة لم يتعمدا الطباق في شعرهما ؛ لذلك جاء معتدلاً في شعريهما الفروسي .

الجناس :

يرى قدامة أن الجناس يعني اشتراك المعاني " في ألفاظ متجانسة (على جهة الاشتقاق) "^(٣) . وهو نوعان : لفظي ، ومعنوي ، فالأول ما تشابهت فيه الكلمتان لفظاً واختلفتا معنى . وهو قسمان : تامّ ، وغير تامّ ، فالأول ما اتفق فيه اللفظان في أنواع الحروف ، وأعدادها ،

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٥٥ .

(٢) الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ، ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٣) نقد الشعر ، ص ١٦٣ .

وهيئتها ، وترتيبها .. وغير التام : ما اختلف فيه اللفظان في أعداد الحروف^(١) .

والمعنوي ضربان : تجنيس إضمار ، وتجنيس إشارة ، ويسميه أسامة : التجنيس ، وقسمه إلى ثمانية أنواع^(٢) .

ويعده بعض النقاد " من أبواب الفراغ وقلة الفائدة ، وهو مما لا يشك في تكلفه "^(٣) . وهذا الكلام فيه تعميم لأن الجناس متى لم يكن متكلفاً ومتى كان مما يقتضيه المقام فإنه يكون ذا فائدة بل يكون جمالياً أيضاً .

ولقد حدد عبد القاهر الجرجاني معايير للجناس وجماله ، فقال : " وعلى الجملة ، فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً ، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد عن المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته - وإن كان مطلوباً - بهذه المنزلة وفي هذه الصورة "^(٤) .

فجمال الجناس يرجع إلى ثلاثة أسباب :

" الأول : تناسب الألفاظ في الصورة كلها أو بعضها ، وهو مما يطمئن إليه الذوق ويرتاح له .

الثاني : التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً كاملاً أو ناقصاً ، فيطرب الأذن ، ويونق النفس ، ويهز أوتار القلوب .

الثالث : التلاعب الأخاذ الذي يلجأ إليه المجنّس لاختلاب الأذهان واختداع الأفكار^(٥) . ولقد برع أبو فراس وأسامة في استخدام هذا الفنّ في موضعه دون تكلف .

(١) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني ، والبيان ، والبديع) ، تأليف : الخطيب القزويني ، مكتبة الفيصلية ، مكة ، د.ت ، ص ٣٩٣ .

(٢) ينظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٢-٣٣ .

(٣) العمدة ١/٢٩٧ .

(٤) أسرار البلاغة ، تأليف الشيخ الإمام : أبي بكر عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني بجمدة ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م ، ص ١٠ .

(٥) فن الجناس ، علي الجندي ، دار الفكر العربي ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٤م ، ١/٢٩ .

فمن ذلك قول أبي فراس يصف بطولته في الحرب^(١):

ويومٌ للكمأة به اعتناقٌ ولكن التصافح بالصفاح

فقد استخدم التجنيس ليصوّر نفسه يوم الحرب وهو يعانق الفرسان ويصافحهم ،
ولكن ليس بالأيدي ، وإنما بالسيوف ، حيث جانس بين : التصافح والصفاح .

كما قال معبراً عن شجاعته^(٢):

وداعٍ دَعَانِي وَالْأَسْنَةَ دُونَهُ صَبِيتَ عَلَيْهِ بِالْجَوَابِ جَوَادِي
جَنِبْتُ إِلَى مُهْرِي الْمُنِيِّ مَهْرَهُ وَجَلَلْتُ مِنْهُ بِالتَّجْيِيعِ نَجَادِي

فقد أظهر الشاعر سرعته في الحروب من خلال التجنيس ، وهذا دليل على مقدرة
الشاعر وبراعته في انتقاء الألفاظ التي تُحدِثُ صدىً في نفس المتلقي .

وصور أخلاق القائد ، فقال فيه^(٣):

صفوح عند قدرته كريم قليل الصفح ما بين الصفاح

فهو قائد حليم كريم على أعدائه قبل الحرب ، ولكن إذا بدأت الحرب لا يعفو عنهم ،
وقد أظهر الشاعر ذلك من خلال الجناس بين كلمتي (الصفح) و (الصفاح) .

ويقول في دقة هجمات الجيش^(٤):

وكنّا كالسهم إذا أصابت مراميها فراميتها أصابا

حيث جانس بين (أصابت) و (أصابا) ، وبين (مراميها) و (راميها) .

كما أظهر الشاعر تلك المقدرة في التلاعب بالألفاظ في قوله^(٥):

(١) ديوان أبي فراس ٦٢/٢ .

(٢) المصدر السابق ٧١/٢ .

(٣) السابق ٦٥/٢ .

(٤) نفسه ١٣/٢ .

(٥) نفسه ١٥/٢ .

و(بالصباح) و(الصباح) عبداً قتلنا من لباهم اللبابا

فقد جانس بين الصباح والصباح ، فالأولى زمن الهجوم ، والثانية اسم شخص .
وقوله^(١):

شفتُ فيها (بنو بكر) حُقودا وغادرتِ (الضباب) بها ضبابا

فقد جانس بين : الضباب وضبابا .
ويقول واصفاً خيله وسهامه^(٢):

وخيلٌ يلوحُ الخيرُ بين عيونِها ونصلٌ متى ما شِمتِه نزلَ النَّصرُ

فنجد الشاعر قد جانس بين كلمة : خيل وخير ، وبين : نصل ونصر .
ولم يختلف أسامة في استخدامه للجناس عن أبي فراس ، فمن ذلك قوله^(٣):

أغدو لنارِ الوغى في الحربِ إن خمدتِ بالبيضِ في البيضِ والهلماتِ مُتدحا

حيث جانس بين : البيض والبيض ، فالأولى بمعنى السيوف ، والثانية : الخوذة أو
غطاء الرأس .
وقوله^(٤):

وهمّ الملوكِ البيضُ والسمرُ كالدمي وهمتنا البيضُ الصوارمُ والسمرُ

وقوله^(٥):

وملنا إلى بُرجِ الرصاصِ وإتته لكالسدِّ لكنَّ الرصاصَ له قَطْرُ

حيث جانس بين (برج الرصاص) وبين (الرصاص) .

(١) ديوان أبي فراس ١٥/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٨٦/٢ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٣ .

(٥) نفسه ، ص ٢٥٤ .

وقوله متحدثاً عن نفسه^(١):

ولم أَدْحِرْ للدهرِ إن ناب أو نبا

ولللخطبِ إلا صارمي وسِناني

فقد جانس بين : ناب و نبا .

كذلك قوله^(٢):

وصيد أملاك الفـرنج

وجمعهم حالاً فحالاً

فقد جانس بين : حالاً فحالاً ، جناس ترجيع ، وهي أن ترجع الكلمة بذاتها .

وقوله^(٣):

إن جُرَّتَ عن فـهـجِ الكـرامِ فـمـرشدٌ

لك مُرشدٌ بمكارمِ الأخلاقِ

فقد تلاعب أسامة بالألفاظ ؛ ليثبت مكارم الأخلاق لقومه .

فقد نهج أسامة " سبيل الأوائل في الشعر ، ولم يغرم بالجناس وسائر المحسنات البديعية ،

هو من أولئك الذين روضوا اللغة ، وولدوا اشتقاقاتها ، ووظفوها للحديث الوجداني في

قدرة اشتقاقية رائعة"^(٤) ، وكذلك فعَل أبو فراس .

التضمين :

وهو أن يتضمن البيت كلمات من بيت آخر^(٥) .

ويُعدّ من محاسن البديع عند ابن المعتز^(٦) .

وأحسن التضمين عند ابن رشيق : " ما حرف فيه البيت عن معناه الأصلي ليلائم المعنى

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٧٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) السابق ، ص ١٨٢ .

(٤) الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ، ص ٢٦٥ .

(٥) البديع في نقد الشعر ، ص ٢٤٩ .

(٦) ينظر : البديع ، لعبد الله بن المعتز ، شرحه وعلّق عليه : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة ومطبعة الباي

الخليبي ، مصر ، ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م ، ص ١٠٦ وما بعدها .

الجديد ، وبخاصة إذا كان المعنى في غرض جديد غير الغرض الذي وضع لأجله " (١) .
فالتضمين يكون ناتجاً عن التأثر ، فتأثر الشاعر بمن قبله يجعله يضمن شعره بعضاً مما
قاله الشاعر السابق ، فقد ضمن أبو فراس شعره شعر طرفة ولم يغير فيه سوى كلمة واحدة
فقط ، فقال (٢) :

عَدَاوَةٌ ذِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مِضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهْتَدِ
وقول طرفة (٣) :

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهتدِ
أما أسامة فيقول فيه حسن عباس : " ومع نموّ أسامة الفني نجده لم يتخلّ عن إظهار علمه
بالشعر القديم وإعجابه به ، أو لم يتخلّ علمه بالشعر القديم عن الظهور على سطح أعماله الشعرية ،
فيستخدم التضمين أو الاقتباس من شعر غيره ، متوخياً أن يكون الموضوع واحداً " (٤) .

فقد ضمن أسامة قصيدته بيتاً لأبي فراس ، يقول (٥) :

أطاع الهوى من بعدهم وعصى الصبر فليس له فهي عليه ولا أمرُ
فذلك مأخوذ من قول أبي فراس (٦) :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبرُ أما للهوى فهي عليك ولا أمرُ

" ... وهذا التضمين يعكس تأثر أسامة بن منقذ بأبي فراس الحمداني شاعراً ، ويدعم
من معادلة (الشعر / الفروسية) بين الشاعرَيْن الفارسيْن " (٧) .

(١) العمدة ٨١/٢ .

(٢) ديوان أبي فراس ٨٩/٢ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ص ٣٦ .

(٤) أسامة بن منقذ ٢٩١/١ .

(٥) ديوان أسامة ، ص ١٢٢ .

(٦) ديوان أبي فراس ٢٠٩/٢ .

(٧) ملامح في شعر أسامة بن منقذ ، ص ٦٧ .

كما تأثر أسامة بشعر المتنبي ، وضمّن شعره بعض أشعاره ، فمن ذلك قوله^(١) :

إِذَا دَفَعُوها قَلتَ فَرسانُ غارَةٍ سَروا بِجِياذِ ما لَهَنَ قَوائِمُ

فقد ضمن بيته الشطر الثاني من بيت المتنبي الذي يقول فيه^(٢) :

أَتوكِ يَجرونَ الحَديدَ كَأَثمِ سَروا بِجِياذِ ما لَهَنَ قَوائِمُ

ففى أسامة يضمّن قصيدته أبياتاً من قصيدة المتنبي الميمية المشهورة في عتاب سيف الدولة ، مع " أن أسامة هنا كان يستطيع التعبير شعرياً بما يتوافق مع مستوى الحدث "^(٣) ، فلم يكن هناك داعٍ لكثرة تلك التضمينات .

ويلعل له الدكتور عمر باشا كثرة التضمين بأنه نابع من إعجاب الشاعر بشخصية المتنبي وأبي فراس ، حتى جعله يجمع بين محاسن الشاعرين بقوله : " كما لاحظنا أن الشاعر قد استخدم التضمين بشكلٍ يستدعي الانتباه ، ولا سيما ما ورد منه في القصيدتين : الميمية ، والرائية ؛ أما أولاهما فسبق لنا أن أوردنا بعض أبياتها في مدح معين الدين انر وهو يعاتبه ، وفيها ضمن كثيراً من ألفاظ قصيدة المتنبي وتراكيبها وأشطرها في عتاب سيف الدولة ، وكان في بعض الأحيان يورد شطر البيت كاملاً ، وأما ثانيتهما فهي الرائية ، وكان يضمّنها بعض شعر أبي فراس الحمداني . يظهر أن الشاعر كان معجباً بالقصيدتين المذكورتين ، فأحبّ تضمين شعره بهما ؛ تنويهاً بفضلهما ، ولعلّ إعجاب به بالشاعرين جعله يقتصر عليهما في أسلوبه المذكور ، ولا نعدو الحقيقة إن قلنا : إن شخصيته جمعت بين محاسن الشاعرين "^(٤) .

ويقول حسن عباس : " هكذا نجد أسامة يقتبس شعر المتنبي ، ولكننا نقرر هنا أننا لا نحس باختلافٍ في النسيج ، أو تباين في القوة ، فأسامة يدلّ بقدرته الفنية على مجارة أعظم

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٧٦ .

(٢) ديوان المتنبي ٢/ ٣٨٤ .

(٣) أسامة بن منقذ والتراث الشعري ، ص ٧٢ .

(٤) أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ، ص ١٠٣ وما بعدها .

الشعراء ، وفي أعظم قصائدهم " (١) . فقد سار أسامة في ذلك على مبدأ يقول ناصحاً الشعراء :
" وإذا أخذت شعراً فزد على معناه ، وانقص من لفظه ، واحترس مما طعن به عليه ، فحينئذ
تكون أحقّ به " (٢) ، فكان ذلك هو مبدأ أسامة في الأخذ من سابقه .

التصريح :

وهو جعل آخر الشطر الأول من البيت الأول في القصيدة مثل القافية ، وهو دليل على
قدرة الشاعر وفصاحته (٣) . ويذكر ابن رشيّق أن السبب في التصريح هو " مبادرة الشاعر القافية ؛
ليعلم أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منثور ، ولذلك وقع في أول الشعر " (٤) . ولعل
المقصود من التصريح هو التغمي والتطريب ابتداءً .

وقد أكثر أبو فراس منه في أغلب قصائده ، فمن ذلك قوله (٥) :

إِبَاءُ إِبَاءِ الْبَكْرِ غَيْرُ مَذَلِّ وَعِزْمٌ كَحَدِّ السَّيْفِ غَيْرُ مَقْلَلِ
وقوله (٦) :

أَبْلَغُ (بَنِي هَمْدَانَ) فِي بُلْدَانِهَا كَهَوْلِهَا وَالْغُرِّ مِنْ شُبَّانِهَا
ويقول أسامة (٧) :

كُلَّ يَوْمٍ فَتَحَ مَبِينٌ وَنَصْرُ وَاعْتَلَاءٌ عَلَى الْأَعَادِي وَقَهْرُ
وقوله (٨) :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَنَا الْأَمْرُ لِتَحْيَا بِنَا الدُّنْيَا وَيَفْتَحِرَ الْعَصْرُ

(١) أسامة بن منقذ ٢٩٤/١ .

(٢) البديع في نقد الشعر ، ص ٢٩٦ .

(٣) ينظر : سرّ الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ ، ص ٢٢٢ ،
والطراز ، ليحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ، ٣/٣٣ .

(٤) العمدة ٣٢٦/١ .

(٥) ديوان أبي فراس ٢٨٦/٢ .

(٦) المصدر السابق ٤٠٠/٣ .

(٧) ديوان أسامة ، ص ٢٢٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

وقال^(١):

حَمَامِ الْأَيْكِ هَيَّجْتُنَّ أَشْجَانًا فَلَئِيكَ أَصْدُقْنَا بَشًّا وَأَشْجَانَا

التطريز :

و " هو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن ، فيكون منها كالطراز من الثوب "^(٢).

يقول أسامة : " التطريز هو أن تأتي في الأبيات مواضع متقابلة كأنه طراز "^(٣) ، وقد طبقه في شعره ، فمن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى صلاح الدين^(٤) :

لا زلت يا ملك الإسلام في نعم	قربنها ألمسعدان : النصر والظفر
تُردي الأعداي وتستصفي ممالكهم	وعونك الماضيان : السيف والقدر
فأنت إسكندر الدنيا بنورك قد	تضائل المظلمان : الظلم والضّر
أعدتَ للدّهر أيام الشباب وقد	أظله المهرمان : الشيب والكبر
وجاء غيثُ نداءك المسلمين فمن	سحابه المغنيان : الدرّ والبدر
وسرت سيرة عدلٍ في الأنام كما	قضى به الصادقان : الشرع والسور
ففقّ بنصرٍ على الكفار إنهم	يُرديهم المهلكان : الغدر والأشر
ثناهم إذ رأوا إقبال ملكهم	إليهم المزعجان : الخوف والحذر
وما الفرار بمنجيتهم وخلفهم	من بأسه المدركان : السمر والبتر
وسوف يعفو غدراً منهم بصارمه	وجيشه المخبران : العين والأثر

فقد أظهر أسامة البراعة الأدبية التي تميز بها من خلال هذه القصيدة التي طرزها بأجمل الألفاظ الخالدة .

(١) ديوان أسامة ، ص ٣٥٦ .

(٢) الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، ص ٣٣٩ .

(٣) البديع في نقد الشعر ، ص ٦٤ .

(٤) خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ١ / ٤٥٤ وما بعدها .

فمن الملاحظ عليهما : أن البديع لديهما جاء عفواً الخاطر دون تعمد أو قصد .

يقول حنا الفاحوري واصفاً أسلوب أبي فراس : " ولا يكاد الشعر يستحثُّ أبا فراس حتى ينطلق لسانه بألفاظ توافق المراد من المعاني ودقائق الشعور ، وتراكيب منسجمة قلماً أثقلتها المحسنات البديعية وعقدتها التكلف والإغراب . ولقد شغلت الشاعر عاطفته المستولية عليه عن التعمّل اللفظي ، فيشتدّ نظمه في الفخر والعتاب الصارم ، ويرقّ في الحنين والشكوى والتعزية " (١) .

فقد اقتصد أبو فراس في استخدام البديع ، فلم " يجعله هدفاً ، بل إن المعنى غالباً هو الذي يطلبه ، ولعلّ الطباق من أكثر فنون البديع التي أولع بها أبو فراس " (٢) .

ويرى الدكتور عمر باشا أن أسامة على الرغم من تأليفه لكتاب البديع ، إلا أنه لم يحفل به في شعره ، وذلك بقوله : " يتضح مما تقدّم معنا من شعر أسامة أنه لم يتخذ من مذهب الإبداع في التطبيق والتجنيس وغيرهما سبيلاً ، على الرغم من أنه ألف كتاباً في علم البديع ، وصنف فيه أقوال المتقدمين في نقد الشعر " (٣) .

ومع ذلك فقد استطاع الشعراء أن يكسبا شعرهما الفروسي حلية بديعية رائعة تتناسب مع شخصيتهما القتالية .



(١) تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاحوري ، ص ٦٦٣ .

(٢) المتنبي الإنسان بين أبي تمام وأبي فراس ، ص ٣٥٩ .

(٣) أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ، ص ٣٠٠ وما بعدها .

المبحث الثالث : لغة الشعر " المعجم الشعري " :

لغة أهمية كبيرة عند الشاعر ، فهي " ميدان الشاعر ، على أرضيته تتم ولادة القصيدة ؛ فمن خيوطها ينسج الشاعر أديمه ، ومن شرايينها تتدفق الحياة في عروقه ، وعلى قدر ثرائها تتوافر حيوية دافقة في قلب الكيان الشعري"^(١).

و" لغة الشعر تختلف باختلاف تجارب الشاعر ذاتها ، تلك التجارب التي تؤدي إلى إبداع قصيدة لها لغتها الخاصة بها ، ولا تشاركها تركيباتها لغة الشاعر في قصائده الأخرى"^(٢).

لذلك يختار الشاعر من الألفاظ والعبارات أقدرها على نقل تجاربه ومشاعره ، والمقصود بالقدرة : " أن يختار الشاعر من الكلمات أدقها في أداء المعنى الذي يجول في نفسه ، فقد تتقارب الكلمات من حيث المعنى ، ولكن بعضها يكون أدل على إحساس الشاعر من بعض ، والشاعر الموفق هو الذي يهتدي إلى الكلمة التي تكون شديدة الإبانة عما يريد"^(٣).

ف" لكل شاعر منهجه وطرائقه في التعامل مع الألفاظ ونظمها بطريقة الشاعر في بنائه ترجع إلى درجة إحاطته بالظواهر اللغوية ، كالاتقاف - مثلاً - والترادف ، والتضاد . وترجع كذلك إلى تنبئه للخصائص الدقيقة لمعجمه الشعري الذي يجعله قادراً على التوحد مع الحدث إذا استطاع أن يختار ألفاظه لتكون قريبة إلى طبيعة الإحساس الانفعالي المصاحب للمعاناة"^(٤).

فلغة الشعر " متعلقة بعالم الشاعر ، والكلمة عالم صغير منضوٍ في ظلّ العالم الأكبر الذي هو الشاعر الذي يفرغها من معناها التقليدي ويشحنها بمعنى جديد ، حتى أصبح لكلّ شاعر

(١) التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية ، د. عدنان حسين قائم ، الدار العربية للنشر ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٣٩ .

(٢) لغة الشعر العربي تأليف : أ.د. : عدنان حسين قاسم ، الدار العربية للنشر ، مدينة نصر ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م ، ص ٨٥ .

(٣) النقد التطبيقي والموازنات ، تأليف : محمد الصادق عفيفي ، مؤسسة الخانجي .مصر ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م ، ص ١٨١ .

(٤) لغة الشعر العربي ص ٨٨ .

قاموسه الخاصّ به ^(١).

فالشاعر يحرص على الألفاظ ، ويعلم بأهميتها ؛ خدمةً للمعنى الذي يريد إيصاله .

لذلك نرى أسامة يؤكد على ذلك بقوله : " ولا يُجعل كل الكلام شيئاً واحداً ، بل تُفصّلُه ؛ لتكون كلُّ كلمة مكانها ، وإلا كان كالجسد المعكوس الأعضاء . واعلم أنّ الألفاظ أجسادٌ والمعاني أرواحٌ ، فإذا قويت الألفاظ ، فلتقو المعاني ، ليحمل بعضها بعضاً ^(٢) .

فاللفظ عنده على قدر المعنى ، لا يزيد عنه ولا ينقص .

استغلّ كلا الشاعرين ما وهبهما الله ^{وَجَعَلَ} من طاقات اللغة ، فعملاً على تفجيرها عيوناً وينابيع شعرية عذبة في تناولها ، سهلة في ألفاظها ، قوية في مدلولاتها ، تتناسب مع شخصيتهما القوية ، وأنتجت مقدرة لغوية هائلة ، فلم تتغير لغة الشعر عندهما عن غيرهما من الشعراء الفرسان ، ولعلّ ذلك يرجع إلى أنّ موضوع الفروسية ليس بالموضوع الجديد على الشعر العربي ، ولكن يظلّ لهم حقّ التميز بالصياغة والتشكيل ، فالشاعر يجهد نفسه مع اللغة إلى أن يصل إلى العبارة الشعرية التي يشعر معها بالتفرد والتميز عن غيره ، أو أن يصل من خلالها إلى مراده بشكل مغاير ومختلف عن غيره من الشعراء ، فبرعا في اختيار الألفاظ ذات المدلول القوي المعبر عن الصورة البطولية التي أراد صياغتها وإظهارها بشكلٍ فريد يتناسب مع شخصيتهما .

فشخصية الشاعر ذات أثر قوي على لغته الشعرية . وبما أنهما فرسان ، فقد غلبت ألفاظ الفروسية على معجمهما الشعري ، وقد التقيا معاً في عدّة صور في استخدام اللغة .

اللغة الحربية :

ظهرت اللغة الحربية في شعريهما بشكلٍ كثيف وذلك لقربها من شخصية الشعارين الفارسين .

(١) الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، د. عبد الحميد جيدة ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، لبنان ،

د.ت ، د.ط ، ص ٣٤١ .

(٢) البديع في نقد الشعر ، ص ٢٩٦ .

كما أنها تمثل مجتمع الشعراء الفارسيين فقد كان مجتمعاً حريباً بالدرجة الأولى فوعي الشاعر بمجتمعه يفتح أعينه على مختلف الأوضاع الاجتماعية والفكرية ، فيضعها ، بعملية غير مباشرة ، في منطقة اهتماماته الحياتية ، لأن الفنان ، إذا احتلت فكرة ما حيزاً في منطقة وعيه الجمالي ، فإنه يصدر عنها بطريقة تلقائية أما الفنان الذي لا يفرد ذلك الحيز لهذه الأمور التي تخص مجتمعه فإن همته تقصر ، ولا يطال فنه عروق المجتمع فيهبها هزاً عنيفاً ، وتقوم هوة متسعة بينه وبين ذلك المجتمع" (١) .

وقد برع الشاعران في استخدام لغة الفروسية إلا أن لكل واحد منهما نظاماً خاصاً في استخدامها ومن أبرز ألفاظ الفروسية دوراناً في شعريهما لفظة الفارس وأسد الشرى والخيل والرماح والقنا والسيوف ويصعب رصد جميع الألفاظ الدالة على الفروسية في شعريهما لذلك سيقف البحث على أكثر هذه الألفاظ وروداً ودوراناً عندهما فلو نظرنا على سبيل المثال إلى ما أورد الشاعران من ألفاظ مختلفة للتعبير عن مصطلح (السيف) فهو عندهما (السيف) حيث جاءت هذه اللفظة عند أبي فراس (٩٢) مرة فمن ذلك قوله (٢) :

ظفروا بها بالسيف أول مرةٍ وبقاؤها بالسيف أصبح فيهم

وجاءت عند أسامة ما يقارب (٢٦) مرة . يقول أسامة (٣) :

فلما أبادتم سيوفك وانجلت عن الأرض منهم ظلمة ومظالم

وهو (الصارم) وقد جاءت هذه اللفظة عند أبي فراس (٢٩) مرة . يقول أبو

فراس (٤) :

تطالبي بيض الصوارم والقنا بما وعدت جدِّي في المخايل

(١) لغة الشعر العربي ص ١١٣ .

(٢) ديوان أبي فراس ٣ / ٣٧٧ .

(٣) ديوان أسامة ص ٢٧٥ .

(٤) ديوان أبي فراس ٢ / ٢٩١ .

ووردت كذلك عند أسامة (٩) مرات فمن ذلك قوله^(١) :

بصارمٍ من رآه في قتامٍ وغيٍّ أفري به الهامَ ظنَّ البرقَ قد لمحا
وهو (الهندية) و(الطُّبأ) و(البيض) و(المرهف) و(الحسام) و(المشرفيه)
و(الصمامة) و(القضب) .

ولقد وردت هذه اللفظة بمعناها الحقيقي المتمثل في الأداة التي يفتك بها الفارس أعدائه
كما حملت دلالات أخرى لديهما .

وبذلك يظهر للبحث مدى براعة الشعاعين في استيعاب المعجم الفروسي والاستفادة
منه في شعريهما مع التفاوت بينهما في استخدامه . وإن كان أبو فراس أكثر اتساعاً من
أسامة في استعماله للغة الفروسية والفرسان .

اللغة التفاخرية :

" يثير الفخر نازع : كالإعجاب بالنفس ، أو الشعور بالنقص ، أو إثارة الغامزين أو
تحدي المعارضين ... وذات المفتخر هي أولى الذوات بأن تكون ذلك المحور "^(٢) .

ولذلك نجد كلا الشعاعين تباهى وتفاحر بفروسيته فمن ذلك قول أبي فراس^(٣) :

أنا الذي لا يُصيبُ الدهرُ عِترَتَهُ ولا يبيتُ على خَوْفٍ مُجاوِرُهُ
وقول أسامة^(٤) :

أنا تاجُ فرسانِ الهياجِ، ومن بهم ثبتتُ أواخي مُلكٌ كلُّ مُتوجِّج

(١) ديوان أسامة ص ٢٥٩ .

(٢) التكرير بين المثير والتأثير ، د: عز الدين علي السيد ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، الطبعة الأولى
١٤٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ١٧٦ .

(٣) ديوان أبي فراس ٢ / ١٨٣ .

(٤) ديوان أسامة ص ٢٥٩ .

التكرار :

التكرار " أسلوب تعبري يصور انفعال النفس بمثير ... واللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان ، فالتكلم إنما يكرر ما يثير اهتماماً عنده ، وهو يجب في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه ، أو من هم في حكم المخاطبين ، ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان والديار " (١) .

غير أنه مستحسناً في موضعه . يقول ابن رشيقي : " وللتكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه " (٢) .

و " التكرار ، في حقيقته ، إلحاح على جهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها . وهذا هو القانون الأول البسيط الذي نلمسه كامناً في كل تكرار يخطر على البال . فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها " (٣) .

فيحمل بذلك دلالة نفسية للمتلقى من خلاله . ولقد ظهر التكرار عندهما بشكل ملحوظ . وذلك لأن التكرار أسلوباً (جهوري) يماشي الحياة العربية القديمة التي كان الشاعر فيها يعتمد على الإلقاء أكثر مما يعتمد على الحروف المكتوبة ، والتكرار يقرع الأسماع بالكلمة المثيرة ويؤدي الغرض الشعري " (٤) .

فمن مظاهر التكرار عندهما :

استلهاج الموروث :

ومما هو ظاهر في شعر الفروسية عند الشعراء : تكرارهما للمعاني والأوصاف ، فنجدهما يركزان على بعض المعاني والصفات المثالية وبيروانها ، وذلك كالكرم ، والشجاعة ،

(١) التكرير بين المثير والتأثير ص ١٣٧ .

(٢) العمدة ٢ / ٧٣ .

(٣) قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة ، منشورات مكتبة النهضة ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ م ، ص ٢٤٢ .

(٤) السابق ص ٢٤٧ .

والشرف ... غير أن تكرارهما لمثل هذه المعاني لا يدلّ على قصورٍ في مقدرتهما الشعرية ، وإنما يدلّ على أصالة هذه المعاني بحيث لا يمكن الاستغناء عنها ، ومع ذلك حاول الشعراء أن يُنوعوا في عرضها ، وينقلوها لنا في أشكال متعدّدة وصور متميزة ، إلى جانب أن هذا التشابه والتكرار نابع من أنهما أكثرنا من قول الشعر الفروسي ، فهو يحتلّ الجزء الأكبر من ديوانيهما ، باعتبار أن الشعر جزء من حياة الشاعر ، وحياته كلّها فروسية .

وتقليدهما لا ينقص من مقدرتهما وإنما هو دليل على تمكنهما من هذا الفن والخوض فيه فقيمة العمل الأدبي تكمن في " قدرة الأديب ، ومدى تمكنه من فنه ، وسيطرته عليه ، وإدراكه لخفايا هذه الصنعة وإلمامه بالأعمال الأدبية المعاصرة والسابقة . ومدى وعيه بها وإدراكه لها . وإذا كان هناك تأثير لمجتمع ما على أديب ما فإن هذا التأثير هو تأثير في" (١) .

فالشاعران يصوّران صورة قديمة ، وهي وجود علاقة بين الجيش المنتصر والطيور والسباع . فالطيور والسباع تلحق بالجيش ؛ لعلمها أنها سوف تنال طعامها من أجساد القتلى الذين ستركهم هذا الجيش المحارب الشجاع الذي يتبعه النصر دائماً .

وهذا المشهد يتكرّر بكثرة عند أبي فراس ، يقول :

قَرِينَا (بِالسَّمَاوَةِ) مِنْ (عُقَيْلٍ) سِبَاعِ الْأَرْضِ وَالطَّيْرِ السَّغَابَا^(٢)

وقوله :

فَأَشْبَعُ مِنْ أَبْطَاهِمُ كُلِّ طَائِرٍ وَذئْبٍ غَدَا يَطْوِي الْبَسِيطَةَ أَعْفَرَا^(٣)

وقوله أيضاً واصفاً شجاعة سيف الدولة :

فَتَطَرَّقُوا بَعْضَ السَّوَادِ تَلَصَّقًا وَاللَّيْلُ يَسْتُرُهُمْ بِشُوبٍ مُظْلِمٍ

مَا قَابَلُوكَ وَلَوْ رَأَوْكَ تَجَاهَهُمْ أَشْبَعَتْ مِنْهُمْ كُلَّ نَسْرِ قَشْعَمٍ^(٤)

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، د: محمد زكي العشماوي ، دار الشروق ، ص ٢٣ .

(٢) ديوان أبي فراس ١٥/٢ .

(٣) المصدر السابق ١٩٨/٢ .

(٤) نفسه ٣٧٩/٣ .

ويقول أسامة في وصف جيش المسلمين وانتصارهم الدائمة :

نسيرُ إلى الأعداءِ والطيرُ فوقنا لها القوتُ من أعدائنا ولنا النَّصرُ^(١)

ومن ذلك أيضاً : إنزالهما الفارس منزلة الأسد ، والسيف وغيرهما مما استمداه من موروثهما الشعري القديم .

" وقد ظهر تأثر أبي فراس بمن سبقه من الشعراء بيتاً في ديوانه ، ففي الفخر أكثر أبو فراس من الارتكاز على معاني عمرو بن كلثوم من شعراء الجاهلية ، وجرير والفرزدق من شعراء الإسلام "^(٢).

كما اتهم أسامة بالسرقة ؛ نظراً لكثرة استلهامه من الموروث . غير أن ذلك ظهر عندهما نتيجة ثقافتهما الواسعة ، وكثرة اطلاعهما وحفظهما لدواوين الشعر .

كما أن اللغة " لا تتوقع في أحضان الموروث ، ولا تخرج عليه ، إنها صلة الرحم بين مختلف المذاهب والاتجاهات ، بين الأصول والفروع ، بين الماضي والحاضر ، وبين الحاضر والمستقبل "^(٣).

ولقد استطاع أبو فراس وأسامة الأخذ من الموروث ، والحفاظة على شخصيتهما .

فـ" الشعر العربي شعر تراكمي ، بمعنى أن الشعر الجاهلي محور الاعتماد ... نجد أن الشاعر يعلم بالنماذج السلفية ، ويبنى عليها ، فتولد الأفكار ثم تزداد وتتنامي ، وكل عصر حلقة ينتمي فيها الشعراء المتتابعون ، حيث نجد التكرار في أشعار الجاهليين ، وشعراء بني أمية يقبسون ويزيدون في معاني أسلافهم ، وشعراء العباسيين يستفيدون من أسلافهم ، وهذه الظاهرة لم تغب عن النقاد العرب ، فقد عالجوها في كتب السرقات كثيراً ، واختلفوا فيها كثيراً أيضاً "^(٤).

(١) ديوان أسامة ، ص ٢٠١ .

(٢) المنتهي الإنسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ، ص ٣٦٦ .

(٣) الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، د. عبد الحميد جيدة ، ص ٣٤١ .

(٤) الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ، ص ١٣٩ .

فمثلاً قول أبو فراس :

وأهنت نفسي للرماح وإنه من لم يهن بين القنا لم يكرم^(١)

أفاد من بيت زهير بن أبي سلمى في معلقته :

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لم يُكرم نفسه لم يكرم^(٢)

هذه حكمة وتلك حكمة وإن كانتا في معنيين مختلفين ولكن تلتقيان في مفهوم الكرامة فقد أخذها أبو فراس وأضاف لها المعنى القريب من شخصيته .

لغة الماضي^(٣) :

" إن النص الشعري بطبيعة تركيبه مكثف مركز يحمل من الدلالات أكبر مما تحمل اللغة المستعملة في مجالات أخرى ... ومالا يقال في القصيدة أكثر مما يقال ، وإن الشاعر يكتبها أحياناً باللمحة الدالة والإشارة الخفية ، وقد يسهب في وصف شيء يجعله مقابلاً لشيء آخر ، ولا يعتمد إلى غرضه بطريقة مباشرة ، وقد نظن أنها كذلك . إن القصيدة بناء فني يحمل من الإشارات الكثيرة ، ولكن الدليل الذي لا دليل سواه على كل ما يريد الشاعر من قصيدته هو ما يقوله فعلاً في القصيدة ، وما يقوله هو الكلام المحكوم بعلاقات نحوية معينة أنتجت هذه الدلالات المكثفة "^(٤) فلعل ذلك ما قاد الشعارين الاتكاء على الفعل الماضي حيث ظهرت في أبياتهما لغة الماضي بشكلٍ كثيف ، فكلّ منهما أخذ يعدّد مآثره الماضية ، وتحسر على هذه المآثر بأسلوبٍ يبعث الحزن والأسى على الفروسية المفقودة ، وفارسها المنكسر لفقدها . فاستدعاء الشاعر الفارس للفعل الماضي يوحي بمقدار الألم والحسرة الحالية التي يعيشها فالهروب إلى الماضي محاولة من الشاعر لرفض الواقع .

(١) ديوان أبي فراس ٣ / ٣٧٧ .

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق : كرم البستاني ، دار بيروت - بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م ، ص ٨٨ .

(٣) المقصود بلغة الماضي : هو استرجاع الماضي والحديث عنه عن طريق الأفعال الماضية .

(٤) اللغة وبناء الشعر الدكتور : محمد حماسة عبد اللطيف ، مطبعة دار الصفوة ، ١٩٩٢ م ، الطبعة الأولى ص ٢٨ .

حيث ذهب كلُّ منهما يتحسر على ماضيه بطريقته ، فذكر الماضي كان كبلسم يشفي
جروح الفارس العاجز .

ومن ذلك قول أبي فراس :

فَلَكُمْ أَحَطَّتْ بِهَا مُغِيرَا	إِنْ زُرْتُ (خَرَشَنَةً) أَسِيرَا
تَهَبُ الْمَنَازِلَ وَالْقُصُورَا	وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّارَ تَنْتَبِرَا
لَبَّ نَحُونَا حُورًا وَحُورَا	وَلَقَدْ رَأَيْتُ السَّبِيَّ يُجْرَا
حَسَنَاءَ وَالظَّبْيِي الْغَرِيرَا	نَخْتَارُ مِنْهُ الْغَادَةَ الْوَارَا
كَ فَقَدْ نَعَمْتُ بِهِ قَصِيرَا	إِنْ طَالَ لَيْلِي فِي ذُرَا
كَ فَقَدْ لَقِيتُ بِكَ السُّرُورَا ^(١)	وَلَمَّا لَقِيتُ الْحُزْنَ فِي

فلاحظ على الشاعر تزامم ذكريات الماضي واستحضارها بشكلٍ بارز ، فهي سبيله
الوحيد للخلاص من مأساته النفسية قبل الجسدية .

وقد يكثر الشاعر من لفظة واحدة ، والهدف منها استحضار ذلك الماضي الراحل ،
فيقول :

أَصْبَحْتُ مُمْتَنِعًا عَلَى الْأَقْرَانِ	أَصْبَحْتُ مُمْتَنِعَ الْحَرَكَ وَطَالَمَا
وَلطَالَمَا أَرَعَفْتُ أَنْفَ سِنَانِ	وَلطَالَمَا حَطَّمْتُ صَدْرَ مُثَقَّفِ
قُبَّ الْبُطُونِ طَوِيلَةَ الْأَرْسَانِ ^(٢)	وَلطَالَمَا قُدَّتْ الْجِيَادُ إِلَى الْوَعْيِ

فقد كرّر الشاعر (لطالما) ؛ لما توحىه تلك الكلمة من كثرة الأفعال والأعمال التي يريد
أن يثبتها لنفسه ، فلم يكن من همّ الفارس في أسره سوى التعبير عن تلك البطولة النادرة
التي كان يقوم بها قبل ذلك .

(١) ديوان أبي فراس ٢٠٨/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٠٩/٣ .

وقوله على لسان أمّه :

(يا مَنْ رَأَى لِي بِحِصْنِ (خَرْشَنَةَ) أُسْدَ شَرِيٍّ فِي الْقِيُودِ أَرْجُلُهَا) !
 (يا مَنْ رَأَى لِي الدُّرُوبَ شَامِخَةً دُونَ لِقَاءِ الْحَيِّبِ أَطْوَلُهَا)
 (يا مَنْ رَأَى لِي الْقِيُودَ مُوثَقَةً عَلَى حَيِّبِ الْفُؤَادِ أَثْقَلُهَا)^(١)

فالشاعر يحاول رصد صورته البطولية من خلال تساؤلات أمّه المكلومة عليه . " وفي مقام إظهار الأسي والألم ، نرى أبا فراس يكرّر قوله : (يا مَنْ رَأَى لِي) في عدّة أبيات ، وهنا نرى التكرار يؤدي دور التنفيس عن كوامن الوجدان ، والتعبير عن شدة تعلق والدته به ، وسؤالها الملح عنه طوال المدة التي بقيها في الأسر ، فهي تسأل الركبان عن ابنها ، وهو أسير من أسرى المسلمين ، وأبو فراس يكرّر صيغة ذلك السؤال الذي لا يكاد يتغير ، وكأنما قد حددت هدفاً واحداً ، فهي تسأل عنه سؤالاً واحداً ليس غير ، وتودّ لو وجدت الجواب عليه "^(٢).

وعندما بلغه أنّ قومه فيهم من يكره خلاصه من الأسر ، استحضّر ذلك الماضي الذي يشهد له بأنه لا يستحقّ منهم ذلك الجفاء :

وإن حاربوا كُنْتُ الْمَجَنِّ أَمَامَهُمْ
 وإن ضاربوا كُنْتُ الْمُهْتَدُ الْيَدَا
 وإن نابَ خَطْبٌ أَوْ أَلَمَّتْ مُلَمَّةٌ
 جعلتُ لهم نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ فِدَا^(٣)

ومن ذلك قول أسامة يسترجع ماضيه الراحل :

قد كنتُ مِسْعَرَ حَرْبٍ كُلَّمَا خَمَدَتْ
 أضرمْتُها باقتداحِ الْبَيْضِ فِي الْقَلْلِ
 همّي منازلُ الْأَقْرَانِ أَحْسَبُهُمْ
 فرائسي فهمٌ مَنِّي عَلَى وَجْلِ
 أمضى عَلَى الْهَوْلِ مِنْ لَيْلٍ وَأَهْجَمُ مِنْ
 سَيْلٍ وَأَقْدَمُ فِي الْهَيْجَاءِ مِنْ أَجْلِ^(٤)

(١) ديوان أبي فراس ٣/٣٣١ .

(٢) شعر جهاد الروم ، ص ٤٣٨ .

(٣) ديوان أبي فراس ٢/٨٥ .

(٤) ديوان أسامة ، ص ٣٠٥ .

فالشاعر يحاول استحضار الماضي الذي كان يتمتع فيه بفروسيته ، فهو الفارس الذي كان يسعر الحروب ولا يخشى الأهوال ، فذلك الماضي هو الذي يخفف عنه وَقَع مصاب الحاضر .

ومن ذلك قوله أيضاً :

قد كان كَفِي مَأْلَفاً لِمَهْتَدٍ تُعْرَى القلوبُ له وتفري الهامُ
ولأَسْمَرٍ لَدُن الكعوبِ وجارُهُ حيثُ استمرَّ الفكرُ والأوهامُ^(١)

فالشاعر يتأمل في حاله الذي تغير وكأنه يتمنى لو يعود لتلك الحال لذلك يلح على استحضار تلك البطولات الزائلة وذلك في مثل قوله :

رجلايَ والسبعون قد أوهنتُ قُوايَ عن سعيي إلى الحربِ
وكنتُ إن ثوبَ داعي الوغى لبيته بالطعنِ والضربِ
أشقُّ بالسيفِ دُجى نفعها شقَّ الدِّياجي مرسلُ الشُّهبِ
أنزلُ الأقرانِ يُرديهم من قبلِ ضربي هامهم رُعبي^(٢)

وقوله :

حطمتُ قوايَ وأوهنت من نهضتي وكذا بمن طلبَ السلامة تفعلُ
كم قد شهدتُ من الحروبِ فليتنى في بعضها من قبلِ نكسي أقتلُ^(٣)

وبذلك يكون أسامة كغيره من الشعراء الفرسان الذين جعلوا من الشعر أداة لتصوير الواقع ولم تختلف ألفاظه عن ألفاظ أبي فراس الذي امتازت ألفاظه في معظمها " بأنّها مألوفة واضحة دارجة الاستعمال في الأدب واللغة ، ويندر أن تجد ألفاظاً غريبة ، وإذا ما وجدت مثل هذه الألفاظ فإنك واحدها على الأغلب في وصف الحرب ، وفي الجوّ الذي تقوم فيه وفي أدواتها ؛ من خيول ، وجيوش ، وأسلحة ، وركوب ... ويدلّ على أنّ أبا فراس لم يكن شاعراً يرصف الكلمات المطروحة التي تجري على ألسنة الناس ، وإنما كان

(١) ديوان أسامة ، ص ٣٢٢ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥٨ .

(٣) نفسه ، ص ٣٢١ .

على اطلاع راسخ باللغة ، وعلى معرفة واسعة بها ومدلولاتها" (١).

وهذا يعني أن أبا فراس يحرص على إكساب شعره معجماً خاصاً به ؛ ليثبت مدى براعته في استخدام اللغة ، فهو ممن أطال عمر اللغة (٢).

ولقد ظهر تأثير الفروسية في شعره بشكل واضح ، وفي بناء معجمه الشعري : " فالحركة الفنية سريعة ، والإشارات إلى واقع الفعل موجزة بعيدة عن الخيال والتصنع ، كما أن العنفوان والقوة والإيجاز أمور وحدت بين حياة أبي فراس وشعره ، فقد كان يستهجن المبالغة في الشعر على حساب الواقع ، ففارس اللفظ يجب أن يكون فارس الوقائع" (٣).

ولقد ظهر تأثير تلك الحياة البطولية عند أسامة أيضاً، فقد حوى معجمها لغة خاصة بالفارسان يقول الدكتور نوري حمود : " وأوشك هذا الضرب من الشعر أن يجمع معجماً من الألفاظ ، ويوحد ضرباً من الأساليب ، وينسق وحدة التعابير التي دارت على ألسن المقاتلين وهم يجاهون المعركة ، ويذوقون حرّ اللقاء ، بعد أن أخذ طريقه إلى النفوس ، وعرف دروبه بين قنوات الفنون الشعرية الأخرى ، وقد توزع قطعات متناثرة يستشهد بها عند الحديث عن المعركة ، أو الوقوف على موضوع ، أو الإشارة إلى حدث تاريخي . أما اللغة التي استخدمها الشعراء المقاتلون فكانت أقرب إلى لغة الحديث ، وأكثر صلة بما يعرف في ساحة المعركة ؛ لأن الأغراض فيه تتداخل" (٤).

وكثيراً ما يلجأ الشاعران الفارسان إلى تكرار مفردات معينة في شعرهما ، وهذه تكون إحدى سمات معجمهما الشعري ، فمن ذلك قول أبي فراس :

فسائل (كلاباً) يوم (غزوة بالس) ألم يتركوا النسوان في القاع حُسراً ؟
وسائل (نميراً) يوم سار إليهم ألم يوقنوا بالموت لما تنمّرا ؟

(١) لغة الشعر في بلاط سيف الدولة بجلب كما يمثلها شعر أبي فراس الحمداني ، محمود حسني . مغالسة

دراسات المجلد التاسع عشر (أ) ، العدد الأول ، ١٩٩٢ م ، ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) ينظر : الموازنة بين الشعراء ، زكي مبارك ، دار الجيل ١٩٧٥ م ، القاهرة ، ص ٣١٠ .

(٣) شعر أبي فراس الحمداني دلالاته وخصائصه الفنية ، د. عبد اللطيف عمران ، ص ١١٧ .

(٤) شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، ص ١٤ .

وسائل (عقيلاً) حين لاذت (بتدمر)
وسائل (قشيراً) حين جفت حُلوفُها
وَقَوْلُهُ :

وسل آل (برداليس) أعظمكم خطبا
وسل سبطه (البطريق) أثبتكم قلبا
هَبْنَا بِيضَ الْهِنْدِ عَزَمَ هَبَا
وسل آل (منوال) الجحاحجة الغلبا
وسل (بالبرطسيس) العساكر كلها
وَقَوْلُ أُسَامَةَ :

فسل كُماة الوغى عني لتعلم كم
كرب كُشفتُ وكم ضيق بي أنفسحا^(٣)
وَقَوْلُهُ :

سل بي كُماة الوغى في كل معركة
يضيقُ بالنفس فيها صدرُ ذي الباس^(٤)

فنلاحظ عليهما تكرّر جملة (سل) ؛ لما تحويه تلك اللفظة من إثبات القوة والشجاعة لهما من خلال سؤال الأعداء عن تلك البطولة ، وكذلك وجود رغبة قوية لدى الشعارين إلى التفات المتلقي لقوتهما . وكذلك تعبير عن الحرقة والألم الذي أصابهما " إنها المعاني ذاتها التي يرددها في كثير من شعره .. كأن الحرقة في قلبه لا يطفئها إلا الشعر "^(٥) .

ومن ذلك أيضاً : كثرة ذكرهم لأسماء قادة الأعداء وأماكن اللقاء ، ولعلّ الضرورة هي التي قادتهم لذلك " حتى يكون لشعرهم في النفس أثر كبير ، وحتى تتحقق له القيمة التاريخية "^(٦) ،

(١) ديوان أبي فراس ١٩٨/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٧/٢ .

(٣) ديوان أسامة ، ص ٢٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٥) أسامة بن منقذ ، قمر كيلاني ، ص ١٩٧ .

(٦) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ، ص ٢٤١ .

إلى جانب ما في ذلك من تحقير وانتقاص للأعداء فمن ذلك قول أبي فراس :

بَناهَنَ بَناںِ الثَّغَرِ والثَّغَرُ دارِسٌ
ونازلَ منه (الديلمي) (بأرزن)
وذلتَ له بالسيفِ بعدَ إباثِها
وشقَّ إلى ثَغَرِ (الدَّمسْتَق) جِيشُهُ
سقى (أرسناساً) مثلهُ من دِمائِهِمْ
وقوله :

وأبنَ (بقسطنطين) وهو مكبَلٌ
وولّى على الرِّسَمِ (الدَّمسْتَق) هارِباً
وقول أسامة :

وفي سجننا ابن الفؤوشِ خيرٌ مُلوَكِهِمْ
قتلنا البرنس حين سارَ بجَهلِهِ
ومن ذكرهم لأسماء المدن ، قول أبي فراس :

ولي مَنَّةٌ في رِقابِ (الضِّباب)
عشيَّة رَوْحَنَ من (عرقية)
وقد طال ما وردتُ (بالجباة)
قددن (البيعة) قد الأديـ
وجاوزن (حمص) ؛ فلم ينتظر
و(بالرستين) استلبتُ مورداً
وجُزن المروجَ وقرني (حماة)
وأخرى تخصّ (بني جعفر)
وأصبحنَ فوضى على (شيزر)
وعاودت الماءَ في تدمرِ
م والغربُ في شبه الأشقرِ
نَ على موردٍ أو على مصدرِ
كورِدِ الحمامةِ أو أنزَرَ
و(شيزر) والفجرُ لم يُسفرِ

(١) ديوان أبي فراس ١١٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ١١٨/٢ .

(٣) ديوان أسامة ٢٥٢ وما بعدها .

وغامضت الشمس إشراقها فلفّت (كفرطاب) بالعسكر^(١)

وقول أسامة :

فتحنا الرّها حين استباح عداتنا حماها وسنى ملكها لهم الختر
ونحن فتحنا تلّ باشر بعدها وقد عجزت عنه الأكاسرة الغر^(٢)

وما ذلك الاستشهاد الواقعي منهما إلا كونهما أدبيين استطاعا أن يُعبّرا عن عصرهما خير تعبير ، فـ " الأدباء هم الذين يستطيعون ابتكار الألفاظ في دلالتها الجديدة عندما يضعونها في إطار جديد يحدد معناها ، ويجعلها تنمّص روحاً جديدة ، وليس معنى هذا أن الأديب أو الشاعر يخترع لفظاً جديداً بعينه ، أو يعدل عن لفظ قديم بعينه ، فاللغة تعبير اجتماعي يتغير مفهومه بتغير المجتمع ، لذلك يختلف حظّ الألفاظ من الشيوع والاستعمال في كلّ عصر حسب ملاءمتها لمقتضياته " ^(٣).

وبذلك يكون أبو فراس وأسامة قد برعا في إظهار لغة الحماسة بلفظها السهل البطولي ، البعيد عن الافتعال والتكلف " لغة الحماسة التي ندرکها في مشاكلة التعبير للانفعال لفظاً وإيقاعاً وصورة وإيجاء " ^(٤).



(١) ديوان أبي فراس ١٩٩/٢ .

(٢) ديوان أسامة ، ص ٢٠١ .

(٣) النقد التطبيقي والموازنات ، ص ١٨٨ .

(٤) مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ص ١٠٨ .

خاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي أنعم عليّ بإتمام البحث وهذه أهم النتائج والمعطيات التي خرج بها :

- ١/ أن الفروسية غرض أصيل في الشعر العربي يكاد يتخلل جميع الأغراض الشعرية .
- ٢/ قلة الشعراء الفرسان بعد العصر الإسلامي ، ولهذا القلة أسباب وقف البحث عليها .
- ٣/ خلو الشعر العربي من فن الملاحم ، وأن ما وجد في شعر العرب يعد من المطولات وذلك لأسباب ذكرها البحث .
- ٤/ يشترك أبو فراس وأسامة في شعر الفروسية ، فهما فارسان محاربان لم يصفيا الحرب من بعيد ، وإنما هما من أبطالها الذين اصطلوا بناورها ، وخاضوا غمارها ، فكان لهذا الاتصال الوثيق أثر واضح في شعريهما ، فهو عن تجربة وممارسة ، لا عن اجتهاد وتأثر .
- ٥/ أن أفكارهما متقاربة متشابهة ، ومنبع التشابه يعود إلى أنهما فارسان - كما ذكرت سابقاً - ، فإن هذه الخصلة - الفروسية - لدى الشاعر تجعل منه قائداً في شعره كما كان قائداً في حربه .
- ٦/ أن الشعر الفروسي عند أبي فراس أكثر منه عند أسامة ، فالمقدرة الشعرية عنده أكبر مقارنة مع عمره الزمني ، فبرغم من قصر عمر أبي فراس ، إلا أنه يتسم بكثرة في النتاج الشعري ، بعكس أسامة الذي يعدّ شعره قليلاً مقارنة مع عمره الزمني .
- ٧/ لم يأت أغلب شعر الفروسية عندهما في قصائد مستقلة ، وأكثر أغراضهما في ذلك : الفخر .
- ٨/ أظهر أبو فراس صوراً متعدّدة للفارس أكثر من أسامة ، إلا أن صورته كانت قاصرة ، أما أسامة فقد كانت الصورة عنده أعمّ وأشمل ، فقد أظهر صورة فرسان قبيلته ، ولم ينسَ التعرض لذكر قواد المسلمين والفرسان المشهورين ، واتفقا في إظهار صورة الفارس المتفرد والمتعالي على غيره ، فقد برزت لديهما صورة الأنا بشكلٍ

واضح ، كما أظهرها صورة الفارس العاجز أو المنكسر ، فاشتركا في المعاناة والألم ، في مرحلة الانكسار ، مسترجعاً أيامها الزائلة ، مع اختلاف بينهما في قوة التعبير عن ذلك . وقد احتلت تلك الصورة مكانة كبيرة في ديوان أبي فراس ، ولم يغفلها أسامة ، لكنه لم يصل إلى حدّ تعبير أبي فراس ، وربما مردّ ذلك إلى أنّ أبا فراس يأمل العودة ، فأظهر صورة العاجز الآمل أما أسامة فقد أظهر صورة العاجز اليائس .

٩/ كما أبدعا في تصويرهما لأدواتهما الحربية ، وإن كنت أجد اختلافاً في تصويرها من حيث استعمالها إذ ظهر التفاوت بينهما في الاحتفاء بتلك الأدوات وإن كانا أغفلا الأدوات الدفاعية إذ لم تفرد بذكرٍ خاص ، وإنما جاء التعبير عنها من خلال الإشادة ببطولتهما .

١٠/ الميل إلى الإيجاز ، وهذا يتناسب مع طبيعة الفارس الذي لا يجد المتسع من الوقت للحديث عن بطولاته ، وللنظرة المتعالية التي عُرفت لدى الفرسان ، فهم يرون أنهم ليسوا بحاجة إلى الإطالة في أمرٍ واضح ووضوح الشمس ؛ لأنّهم اكتفوا بالعبارات القصيرة التي تحوي المعاني الغزيرة ، فكان وصفهما للمعارك على وجه الخصوص مجرد لمحات وإشارات تبتعد عن تفصيل مجريات المعركة ، فلا تجد قصيدة تصور معركة كاملة من أولها إلى آخرها وصفاً دقيقاً ، وإنما الغالب عليهما هو الإشارة إلى البطولة فقط .

١١/ اصطبغ الشعر الفروسي عند أسامة بصبغة إسلامية ، فقد احتوى على المعاني الإسلامية للجهاد أكثر من أبي فراس . وقد نلتمس في شعريهما التلاحم الوثيق بين القول والفعل ، فهو شعر صادق يروي قصة البطولة لديهما دون تزييف للوقائع .

١٢/ لقد أبدع الشاعران في تصوير الفروسية ومضامينها ، فرسما أجمل الصور الحسية ؛ من بصرية ، وسمعية ، وذوقية .. وقد كان أبرز الصور لديهما : الصورة البصرية ، فقد ظهرت عن طريق اللون والحركة ، وذلك لأنّ منظر القتال يرسم لدى الفارس صورة مشاهد حية يحاول إظهارها للمتلقي في شعره ، ولقد ابتعدت صورهما عن الإغراق في الخيال ؛ لارتباطه بالواقع .

١٣ / لم يكن للبديع حضور بارز في شعريهما ، إلا ما جاء عفو الخاطر دون تعمّد أو قصد ، بعيداً عن التصنع ، فلم يقصد به الزخرفة والبهرجة الزائفة .

١٤ / المعجم الشعري لدى الشاعرين متقارب إلى حدّ كبير ، فشعر الفروسية لديهما اقتصر على ما يتعلق بالحرب ؛ من كلمات ، ونغمات مستمدة ممن سبقهما ، فهما يرددان ما قاله الشعراء قبلهما في أمر الفروسية ، واستنفدا كلّ الثروة اللغوية التي لديهما تقريباً من أجل إظهار هذه الفروسية وإبرازها بما يتناسب معهما ، ولذلك يلاحظ البحث عليهما قلة التجديد في هذا الشعر ، فقد اتفقا على الأخذ من معاني القدماء وتكرار هذه المعاني ، وأخصّ أسامة بالذكر ، فقد جاءت معانيه مقارنة لمعاني أبي فراس وغيره من الشعراء ، غير أن هذا التقارب في المعاني والألفاظ ليس مقتصرًا على أبي فراس وأسامة ، رغم أنهما خبيران بالحروب سابقان لها بالسيف قبل الشعر ، ويمتلكان مقدرة شعرية عالية وثقافة واسعة .

وأودّ أن أشير إلى أنّ ديوان أسامة لم يحتوي على جميع ما قاله من شعر ، فهناك أشعار متفرقة في كتبه وفي كتب أخرى .

وحرصاً منّي على اكتمال هذا الشعر لهذا الفارس ، وإبرازاً لمكانته الشعرية مثلما برزت مكانته الثرية ، أمل في إعادة تحقيق ديوانه ، والعمل على جمع أشعاره المتناثرة في الكتب ، رغم أنني لا أنكر لعدد كبير من النقاد جهودهم في جمع شعر أسامة ولكن يظل للديوان أهميته فليس بمقدور الجميع الاطلاع على تلك المؤلفات .

وأخيراً ، لقد ابتعدت في هذه الدراسة عن إصدار الحكم النهائي على هذين الفارسين الشاعرين ؛ لأنني أرى فيهما صورة الفارس المسلم الشاعر ، الذي دافع عن دينه ووطنه بفروسيته وشعره ، وكان شعرهما نابعاً من دافع عزيمتهما الصادقة .

كما يرجع ذلك إلى طبيعة تذوق الأدب الخاضع لمعايير كثيرة ، منها : العاطفة التي تختلف من شخصٍ لآخر ، وقلة الخبرة لديّ ، فلستُ بناقداً ، وإنما أنا باحثة ، قليلة الخبرة ، وقلة الخبرة لدي تجعلني منجرفة أمام إبداع هذين الشاعرين ، ولكني أعترف بأنني قد شعرت بإعجابٍ كبيرٍ لشعرهما البطولي ، والذي نفتخر بالاطّلاع على مثله في هذا العصر .

وإني لأعترف بالنقص في هذه الأطروحة ، فهي عمل بشري يعتربه النقص ، ولا أقول
إلا كما قال أسامة عن شعره : " وفيه بعد ذلك عيوب يشهد بها إقرارى وإنصافى ، ويشفع
فى سترها اعترافى واعتذارى وفيه ما فىه مما لا أنكره ولا أخفيه ، فمظهره قائل صدق
وعدل ، وساتره أحو كرم وفضل "^(١).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) ديوان أسامة ص ٤٧ وما بعدها .

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث النبوية .
- فهرس الشعراء .
- فهرس المصادر والمراجع .
- فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات القرآنية

ص	رقم الآية	السورة	طرف الآية
١	١٧٠-١٦٩	آل عمران	﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ... ﴾
٦٤	١٨٥	آل عمران	﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... ﴾
١٥٢، ١٥٠	٦٠	الأنفال	﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ... ﴾
١٨٤	٦٠	الأنفال	﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴾
١٥	١١١	التوبة	﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ... ﴾
٦٤	٣٨	الرعد	﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ... ﴾
٤٦	٥٦	الذاريات	﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ... ﴾
١٥	١٩	الحديد	﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ... ﴾
١٥٢	٣-١	العاديات	﴿ وَالْعَدِيدِ تِ ضَبْحًا ... ﴾



فهرس الأحاديث النبوية

ص	طرف الحديث
١٥	(الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر
١٥٢	« أعرافها أذفاؤها ، وأذناها مذاها
أ	« إنَّ في الجنةِ مائةِ درجةٍ أعدّها اللهُ للمُجاهدين في سبيلِ الله
٢٧	« إنَّ من الشعرِ لحكماً
١٥	« ما من عبدٍ يموت له عند الله خيرٌ يسره



فهرس الشعراء*

ص	الشاعر
٣٩	ابن أبي ربيعة
٢٠٨	ابن القيسراني
٢٠٨	ابن قسيم الحموي
٢٠٨	ابن منير الطرابلسي
١٥٥ ، ١٥٣	أبو دؤاد الإيادي
٢٩ ، ٢٨ ، ١٩	أبو محجن الثقفي
٢٣٢ ، ٤٥ ، ٣٩ ، ٢٢	أبي تمام
١١	أبي قيس صيفي بن الأسلت
٣٩	أبي نواس
٢٧	الأديب الغزّي
١٥٢ ، ٨	امرؤ القيس
١٧٦ ، ١٦٧	أوس بن حجر
٣٩ ، ٢٢	البحثري
٣٢	بسامة النهشلي
٦	بسظام بن قيس

* بإستثناء أبي فراس وأسامة .

ص	الشاعر
٣٢	بشر بن أبي خازم
١٤	تأبط شراً
٢٧	ثابت بن قيس
٣٩	جرير
٢٧ ، ١٩ ، ٤ ، ٣	حسان بن ثابت
٢٢	حسان بن مرة
١٢ ، ١١	خفاف بن ندبة
١٥٦ ، ١١ ، ٧	دريد بن الصمة
٣٩	ذي الرمة
١٥٤	ربيعة بن مقروم
٢٥٤ ، ٦١	زهير بن أبي سلمى
١٣	السليك بن عمرو
٣١	السمؤال بن عاديا
٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٣٥	سيف الدولة
٢٤٢	طرفة بن العبد

ص	الشاعر
١٥٣	الطفيل الغنوي
٢٠٩ ، ١٧٥ ، ٨٨ ، ٨٣ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٤٤	طلائع بن رزيك
١٥٠ ، ٢٤ ، ٧ ، ٦	عامر بن الطفيل
٢٥ ، ١٩ ، ١٢ ، ١١	العباس بن مرداس
١٩	عبد الله بن الزبيري
٢٩	عبد الله بن المبارك
٣٣ ، ١٩ ، ١٦	عبد الله بن رواحة
٢٠	عبيد الله بن قيس الرقيات
٩	عبيد بن الأبرص
٦	عتيبة بن الحرث
١٥١ ، ١٣	عروة بن الورد
١٧	عروة بن زيد الخيل
١٠٤ ، ١٩	علي بن أبي طالب
٢٩	عمرو بن الإطناية
٩	عمرو بن كلثوم
١٧٦	عمرو بن معد
١٨٠ ، ١٥٥ ، ٣١ ، ٢٢ ، ١٠	عنتر بن شداد
٢٥٢ ، ٨	قريط بن أنيف
٣٣	قيس بن الخطيم
٣٩	كثير

ص	الشاعر
٢٧ ، ١٩	كعب بن زهير
٢٨ ، ١٩ ، ١٦	كعب بن مالك
٢٢	كليب بن ربيعة
٢٦	ليبد
١٥١ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٤ ، ٢٢ ٢٤٣ ، ٢٣٢ ، ١٩٥ ، ١٧٧ ، ١٦٨	المتبي
١٣٧ ، ٥١	مرشد بن منقذ
١٠	المهل
١٥٣	النابعة الجعدي
٧	وداك المازني
١٥٤	يزيد العبدي



فهرس المصادر والمراجع

● القرآن الكريم .

- ١- أبو فراس الحمداني (حياته وشعره) ، عبد الجليل عبد المهدي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط ١ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ٢- أبو فراس الحمداني ، الموقف والتشكيل الجمالي ، تأليف : د. النعمان القاضي ، دار الثقافة ، د.ط ، د.ت .
- ٣- أبو فراس الحمداني ، دراسة في الشعر والتاريخ ، جورج غريب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧١م .
- ٤- أبو فراس الحمداني فارس النضال ، د. ميخائيل مسعود ، الشركة العالمية للكتاب ، ط ١ ، ١٩٩٧م .
- ٥- أبو فراس الحمداني فتوة رومنسية ، خليل شرف الدين ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- ٦- الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، د. عبد الحميد جيدة ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، لبنان ، د.ت ، د.ط .
- ٧- الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ، د. مسعد بن عيد العطوي ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- ٨- أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني ، مظهره وسماته الفنية ، إعداد : الجوهرة عبد العزيز المعيوف ، إشراف : نورة صالح الشمالان ، جامعة الملك سعود ، د.ط ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- ٩- الأخبار الطوال ، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري ، مطبعة السعادة - مصر ، ط ١ ، ١٣٣٠هـ .

- ١٠- أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ، د. عمر موسى باشا ، دار الفكر الحديث ، د.ط ، د.ت .
- ١١- الأدب وفنونه ، عزّ الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، ١٣٧٩هـ — - ١٩٥٨ م .
- ١٢- أدباء العرب في الأعصر العباسية ، بطرس البستاني ، دار نظير عبود ، طبعة جديدة منقحة .
- ١٣- أروع ما قيل في الفخر والحماسة ، إعداد : إميل ناصف ، دار الجيل ، ط ١ ، ١٤١٣هـ .
- ١٤- أسامة بن منقذ ، بقلم : عباس محمود العقاد ، العربي ، العدد الثاني ، جمادى الآخرة ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩ م .
- ١٥- أسامة بن منقذ ، قمر كيلاني ، د.م ، ١٩٨٢ م .
- ١٦- أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية ، تأليف : جمال الدين الألوسي ، مطبعة أسعد ، بغداد ، د.ط ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ م .
- ١٧- أسامة بن منقذ حياته وآثاره ، تأليف : حسن عباس ، تقديم : محمد مصطفى هدارة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط ، ١٩٨١ م .
- ١٨- أسامة بن منقذ صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ، تأليف : محمد أحمد حسين ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، د.ط ، ١٩٤٦ م .
- ١٩- أسامة بن منقذ والتراث الشعري (دراسة في التأثير الشعري) ، إعداد : د. عبد الله إبراهيم يوسف الزهراني ، منشورات نادي الباحة الأدبي ، ط ١ ، ١٤٢١هـ — - ٢٠٠٠ م .
- ٢٠- الأسر والسجن في شعر الحرب (تاريخ ودراسة) ، د. أحمد مختار البرزة ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق - بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .
- ٢١- أسرار البلاغة ، تأليف الشيخ الإمام : أبي بكر عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م .

- ٢٢- أسس النقد الأدبي عند العرب ، تأليف : أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، ط٣ ، ١٩٦٤ م .
- ٢٣- الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، تأليف : أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٨ ، ١٩٩٠ م .
- ٢٤- الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، الناشر : دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٥ م .
- ٢٥- الإكليل ، لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، تحقيق : محمد بن علي الأكوغ ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠ م .
- ٢٦- أيام العرب في الجاهلية ، تأليف : محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ط١ ، ١٣٦١هـ - ١٩٤٢ م .
- ٢٧- الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني ، والبيان ، والبديع) ، تأليف : الخطيب القزويني ، مكتبة الفيصل ، مكة ، د.ت .
- ٢٨- البداية والنهاية ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٦ م .
- ٢٩- البديع ، لعبد الله بن المعتز ، شرحه وعلّق عليه : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥ م .
- ٣٠- البديع في البديع ، في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق : أحمد أحمد بدوي ، والدكتور : حامد عبد المجيد ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠ م .
- ٣١- التأثير النفسي للإسلام في الشعر ودوره في عهد النبوة ، د. عبد الرحيم محمود زلط ، دار اللواء ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .
- ٣٢- تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري ، المطبعة البولسية ، د.ط .

- ٣٣- تاريخ الأدب العربي ، د.ر. بلاشير ، ترجمة الدكتور : إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- ٣٤- تاريخ الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام ، محمد حسن درويش ، مؤسسة نبع الفكر العربي للطباعة ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .
- ٣٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، للحافظ المؤرخ : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، حوادث ووفيات (١٨١هـ - ١٩٠هـ) ، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- ٣٦- تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .
- ٣٧- تاريخ مدينة دمشق ، تصنيف الإمام أبي القاسم علي بن الحسن ، المعروف بابن عساكر ، دراسة وتحقيق : عمر بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- ٣٨- تاريخ ملوك العرب الشعراء ، إعداد : علي المصري ، دار الكتاب العربي ، د.ت .
- ٣٩- التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية ، د. عدنان حسين قاسم ، الدار العربية للنشر ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
- ٤٠- تطوّر الصورة في الشعر الجاهلي ، تأليف : د. خالد الزواوي ، ط ١ ، مؤسسة حورس الدولية ، الإسكندرية .
- ٤١- التكرير بين المثير والتأثير ، د. عز الدين علي السيد ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ٤٢- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، تأليف : أبي زيد القرشي ، تحقيق : علي محمد البجادي ، دار نهضة مصر - القاهرة ، ط ١ ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

- ٤٣- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر نهضة الإسلام ، تأليف : آدم متز ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريذة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٢ ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م .
- ٤٤- حلية الفرسان وشعار الشجعان ، لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل ، تحقيق : محمد عبد الغني حسن ، دار المعارف ، د.ط ، ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩ م .
- ٤٥- الحماسة ، تأليف : أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، تحقيق : د. عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان ، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م .
- ٤٦- الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري ، تأليف : د. عبد الجليل حسن عبد المهدي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط ١ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧ م .
- ٤٧- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، تأليف : أحمد أحمد بدوي ، ط ٢ ، دار نهضة مصر ، د.ت .
- ٤٨- الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط ١ ، ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥ م .
- ٤٩- خريدة القصر وجريدة العصر ، للعماد الأصفهاني ، قسم شعراء الشام ، تحقيق : د. شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية بدمشق ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م .
- ٥٠- دراسات نقدية في الشعر العربي ، د. بهجت عبد الغفور الحديثي ، المكتب الجامعي الحديث ، ٢٠٠٤ م .
- ٥١- دراسات ومقالات في الأدب العربي ، د. حمد بن ناصر الدخيل ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م .
- ٥٢- الدولة الحمدانية ، د. أحمد عدوان ، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع ، د.ت .

- ٥٣- ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح أبي البقاء العكبري ، المسمى بالتيبان في شرح الديوان ، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ — - ١٩٧٣ م .
- ٥٤- ديوان أبي فراس الحمداني ، اعتنى به وشرحه : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٧هـ — ٢٠٠٦ م .
- ٥٥- ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق : سامر الدهان ، المعهد الأفرش بدمشق ، بيروت ، ١٣٦٣هـ — ١٩٤٤ م .
- ٥٦- ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي ، دراسة وجمع وتحقيق : د. حسن باجودة ، مكتبة التراث ، ١٩٧٣ م .
- ٥٧- ديوان أسامة بن منقذ ، حققه وقدم له : د. أحمد أحمد بدوي ، و د. حامد عبد المجيد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣ م .
- ٥٨- ديوان السليك بن السلكة ، شرح : د. سعدي الضناوي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥هـ — ١٩٩٤ م .
- ٥٩- ديوان العباس بن مرداس ، جمعه وحققه : د. يحيى الجبوري ، دار الجمهورية - بغداد ، ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨ م .
- ٦٠- ديوان أوس بن حجر ، تحقيق : د. محمد يوسف نجم ، دار بيروت ، بيروت ، ط ٢ .
- ٦١- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، تحقيق : د. عزة حسن ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ — ١٩٧٢ م .
- ٦٢- ديوان تأبط شراً وأخباره ، جمع وتحقيق : علي ذي الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤ م .
- ٦٣- ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق : د. سيد حنفي حسنين ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤ م .

- ٦٤- ديوان دريد بن الصمة الجشمي ، قدّم له الدكتور : شاكر الفحّام ، جمع وتحقيق : محمد خير البقاعي ، دار قتيبة ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ٦٥- ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق : كرم البستاني ، دار بيروت - بيروت ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .
- ٦٦- ديوان طرفة بن العبد ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
- ٦٧- ديوان عامر بن الطفيل ، دار بيروت ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .
- ٦٨- ديوان عبد الله بن رواحة ، دراسة وجمع وتحقيق : د. حسن محمد باجودة ، دار التراث ، مطبعة السنّة المحمدية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٢م .
- ٦٩- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق وشرح الدكتور : محمد يوسف نجم ، دار بيروت ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م .
- ٧٠- ديوان عبيد بن الأبرص ، دار المعارف بمصر ، د.ت .
- ٧١- ديوان عروة بن الورد ، شرح ابن السكيت ، حققه : عبد المعين الملوحي ، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، د.ط .
- ٧٢- ديوان عمرو بن كلثوم ، تحقيق : أيمن ميدان ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ط ١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- ٧٣- ديوان عنتر ، تحقيق وشرح : عبد المنعم عبد الرؤوف شلي ، وقدم له : إبراهيم الأبياري ، طبع شركة فنّ الطباعة بالقاهرة ، د.ت .
- ٧٤- ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، دراسة وتحقيق : سامي مكّي العاني ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ط ١ ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .
- ٧٥- ديوانا عروة بن الورد والسموأل ، دار بيروت ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- ٧٦- الروضتين في أخبار الدولتين ، تأليف : الشيخ الإمام شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي ، دار الجليل ، بيروت .

- ٧٧- زهر الآداب وثمر الألباب ، لأبي إسحاق الحصري ، ضبط وشرح : د. زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٤ .
- ٧٨- سرّ الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ .
- ٧٩- سير أعلام النبلاء ، تصنيف : شمس الدين محمد الذهبي ، تحقيق : نذير حمدان ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ١١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
- ٨٠- سيف الدولة ، أو مملكة السيف ودولة الأقاليم ، د. مصطفى الشكعة ، عالم الكتب ، بيروت ، مكتبة المتنبي ، القاهرة .
- ٨١- شاعر بني حمدان ، تأليف : أحمد أحمد بدوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٥٢م .
- ٨٢- شرح ديوان امرئ القيس ، تأليف : حسن السدوي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٩٣٩م .
- ٨٣- شعر أبي فراس الحمداني (دراسة فنية) ، ماجدولين بسيسو ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .
- ٨٤- شعر أبي فراس الحمداني دلالاته وخصائصه الفنية ، د. عبد اللطيف عمران ، دار الينابيع ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٩م .
- ٨٥- الشعر الجاهلي ، يحيى الجبوري ، بيروت ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ٨٦- شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، تأليف : د. محمد علي الهرفي ، دار المعالم الثقافية ، د.ط ، د.ت .
- ٨٧- شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، د. نوري حمود القيسي ، عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٨٨- شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأمويّ والعباسي إلى عهد سيف الدولة ، د. زكي المحاسني ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، سنة ١٩٧٠م .

- ٨٩- شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج ، د. محمد العيد الخطراوي ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- ٩٠- شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني ، د. السيد محمد ديب ، مطبعة السعادة ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- ٩١- شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ (العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع) ، تأليف : د. نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط ١ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
- ٩٢- شعر الصراع مع الفرنجة ، دراسة تاريخية تحليلية معمقة ، الدكتور : صلاح الدين أصلان ، دار التوحيد ، حمص ، سورية ، ط ١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
- ٩٣- الشعر العربي بين الجمود والتطور ، تأليف : محمد عبد العزيز الكفراوي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ط ٢ ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م .
- ٩٤- شعر الفتوح الإسلامية في عصر صدر الإسلام ، النعمان عبد المتعال القاضي ، مصر ، ١٩٦٥م .
- ٩٥- الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه ، جورج غريب ، دار الثقافة ، ط ٣ ، ١٩٧٩م .
- ٩٦- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م .
- ٩٧- شعراء العرب الفرسان في الجاهلية وصدر الإسلام ، تأليف الدكتور : محمود حسن أبو ناجي ، مؤسسة علوم القرآن ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ .
- ٩٨- الشعراء الفرسان ، بطرس البستاني ، دار الكشوف ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٤٤م .
- ٩٩- شعراء فرسان تحت راية الإسلام (تاريخ وظواهر فنية) ، د. علي أحمد علام ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، ط ١ ، ٢٠٠١م .

- ١٠٠- صحيح البخاري ، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ضبطه ورقمه : د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط ٥ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .
- ١٠١- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، تأليف : الولي محمد ، ط ١ ، ١٩٩٠م .
- ١٠٢- الصورة الفنية في الشعر العربي (مثال ونقد) ، إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم ، الشركة العربية للنشر ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- ١٠٣- طبقات فحول الشعراء ، تأليف : محمد بن سلام الجمحي ، قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر .
- ١٠٤- الطراز ، ليحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٠هـ .
- ١٠٥- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، زكريا القزويني ، تحقيق : فاروق سعد ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ١٠٦- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٢م .
- ١٠٧- عيار الشعر ، لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، تحقيق وتعليق : د. طه الحاجري ، و د. محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
- ١٠٨- عيون الأخبار ، تأليف : أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، المجلد الأول ، كتاب الحرب ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م .
- ١٠٩- الغربية في شعر أسامة بن منقذ ، حلمي إبراهيم عبد الفتاح الكيلاني ، مؤتة للبحوث والدراسات ، المجلد الثامن ، العدد الثاني ، ربيع ثاني ١٤١٤هـ - أيلول ١٩٩٣م .
- ١١٠- الفروسية ، لشمس الدين أبي عبد الله ، تحقيق : أبي عبيدة مشهور ، دار الأندلس ، ط ٢ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
- ١١١- فن الجناس ، علي الجندي ، دار الفكر العربي ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٤م .

- ١١٢- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، تأليف : د. مصطفى الشكعة ، عالم الكتب ، بيروت ، د.ط ، ١٩٨١ م .
- ١١٣- في الأدب العباسي ، عز الدين إسماعيل ، الرؤية والفن ، عز الدين إسماعيل ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٥ م .
- ١١٤- في الأدب والحرب ، حسين سرحان ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي ، ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣ م .
- ١١٥- في التذوق الجمالي لقصيدة (أبي فراس الحمداني) : (أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... ولا أمر) ، دراسة نقدية إبداعية ، د. محمد علي أبو حمدة ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، د.ط ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م .
- ١١٦- في النقد الأدبي ، د. عبد العزيز عتيق ، ط ٢ ، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢ م .
- ١١٧- في النقد والأدب ، إيليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ١ ، د.ت .
- ١١٨- في صحبة الأميرين : أبي فراس الحمداني ، وعبد القادر الجزائري ، د. أحمد درويش ، مؤسسة جائزة الملك عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، د.ط ، ١٤٢١هـ - أغسطس ٢٠٠٠ م .
- ١١٩- قدماء ومعاصرون ، سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ م .
- ١٢٠- قراصة الذهب ، في نقد أشعار العرب ، ابن رشيق ، تحقيق : الشاذلي بويحيى ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، ١٩٧٢ م .
- ١٢١- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، منشورات مكتبة النهضة ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .
- ١٢٢- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، د. محمد زكي العشماوي ، دار الشروق .
- ١٢٣- الكامل في التاريخ ، للإمام عمدة المؤرخين ، أبي الحسن علي الشيباني ، المعروف بابن الأثير ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م .

- ١٢٤- الكامل في اللغة والأدب ، لأبي العباس محمد بن يزيد ، المعروف بالمبرد ، مكتبة المعارف ، بيروت .
- ١٢٥- كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها ، لأبي عبد الله محمد الأعرابي ، تحقيق ودراسة : د. محمد عبد القادر أحمد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م .
- ١٢٦- كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية المخضرمين ، للخالدين : أبي بكر محمد ، وأبي عثمان سعيد ابني هاشم ، تحقيق الدكتور : السيد محمد يوسف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- ١٢٧- كتاب الاعتبار ، لأسامة بن منقذ ، حرّره : فليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ م .
- ١٢٨- كتاب السلاح ، تأليف : أبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق : حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .
- ١٢٩- كتاب الصناعتين ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر ، ١٩٧١ م .
- ١٣٠- كتاب العصا ، تأليف : أسامة بن منقذ ، تحقيق : حسن عباس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط ، د.ت .
- ١٣١- لغة الشعر العربي تأليف : أ.د. عدنان حسين قاسم ، الدار العربية للنشر ، مدينة نصر ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦ م .
- ١٣٢- لغة الشعر في بلاط سيف الدولة بجلب كما يمثلها شعر أبي فراس الحمداني ، محمود حسني مغالسة ، دراسات المجلد التاسع عشر (أ) العدد الأول ، ١٩٩٢ م .
- ١٣٣- اللغة وبناء الشعر ، د. محمد حماسة عبد اللطيف ، مطبعة دار الصفوة ، ١٩٩٢ م ، الطبعة الأولى .
- ١٣٤- المتنبي الإنسان والشاعر بين أبي تمام وأبي فراس ، رسالة دكتوراه في الأدب ، إعداد : نورة صالح الشعلان ، إشراف الأستاذ : درويش الجندي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م .

- ١٣٥- المثل السائر ، ضياء الدين ابن الأثير ، دار نهضة مصر ، د.ت .
- ١٣٦- المخصص ، تأليف أبي الحسين علي إسماعيل ، المعروف بابن سيده ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .
- ١٣٧- المدينة في العصر الجاهلي الحياة الأدبية ، د. محمد العيد الخطراوي ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- ١٣٨- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، تأليف : عبد الله الطيب ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٠هـ .
- ١٣٩- معجم البلدان ، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ، دار بيروت ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .
- ١٤٠- معجم التراث السلاح ، سعد بن عبد الله الجنيدل ، دار الملك عبد العزيز ، د.ط ، ١٤١٧هـ .
- ١٤١- معجم شعراء الحماسة ، د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- ١٤٢- المعنى الشعري في التراث النقدي ، د. حسن طبل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- ١٤٣- المفضليات ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، ط ٧ ، ١٩٨٣م .
- ١٤٤- مفهوم الصدق في النقد القديم ، د. حمود بن محمد الصميلي ، من إصدارات نادي جازان الأدبي ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ١٤٥- مفهوم الفروسية في التراث العربي وأثره في فروسية القرون الوسطى في أوروبا ، فوزية بومزار ، الموسوعة الصغيرة ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق ، ١٩٨٦م .

- ١٤٦- مقدمة العلامة ابن خلدون عبد الرحمن ابن خلدون ، ط ٤ ، ١٣٩٨هـ — -
١٩٧٨ م .
- ١٤٧- مقدمة في النقد الأدبي ، د. محمد حسن عبد الله ، مطبعة الحرية ، بيروت ، دار
البحوث العلمية ، د.ط ، د.ت .
- ١٤٨- مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ، د. مصطفى عليان ، دار المنارة ، جدة ، د.ط ،
د.ت .
- ١٤٩- ملامح في شعر أسامة بن منقذ ، تأليف : د. عبد الله أحمد باقازي ، مطبوعات
نادي مكة الثقافي الأدبي ، د.ط ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م .
- ١٥٠- المنصفات في الشعر الجاهلي ، دراسةً ونقداً ، إعداد : ثابت محمد صغير ، إشراف :
فتحي محمد أبو عيسى ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م .
- ١٥١- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبي الحسن حازم القرطاجني ، تحقيق : محمد الحبيب
ابن الخوجه ، تونس ، ١٩٦٦ م .
- ١٥٢- موسوعة شعراء العصر العباسي (٣٥١هـ - ٩٦١م) ، إعداد : عبد عون الروضان ،
دار أسامة .
- ١٥٣- موسيقى الشعر ، د. محمود عسران ، مكتبة بستان المعرفة ، الإسكندرية ،
٢٠٠٧ م
- ١٥٤- النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال ، دار النهضة ، مصر ، ١٩٧٣ م .
- ١٥٥- النقد التطبيقي والموازنات ، تأليف : محمد الصادق عفيفي ، مؤسسة الخانجي بمصر ،
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م .
- ١٥٦- نقد الشعر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة
الكليات الأزهرية ، ط ١ ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م .
- ١٥٧- وصف الخيل في الشعر الجاهلي ، كامل سلامة الدقس ، دار الكتب الثقافية ،
الكويت ، د.ط ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م .

١٥٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأبي العباس شمس الدين بن خلكان ، تحقيق :
د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

١٥٩- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي ، تحقيق : محمد
محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت .

فهرس الموضوعات

ص	الموضوعات
أ	مقدمة
١	مدخل : علاقة الفروسية بالشعر
٢٠٩-٣٧	الفصل الأول : مضامين الفروسية
٣٨	المبحث الأول : صورة الفارس
٤٥	- صورة الفارس المحارب
٩٦	- صورة الفارس المفقود
٩٩	- صورة الفارس الأسير
١٣٦	- صورة الفارس العاجز
١٤٩	المبحث الثاني : أدوات الحرب (الفرس ، السيف ، الرمح ، السهم)
١٥١	- الفرس
١٦٥	- السيف
١٧٤	- الرمح
١٨٠	- السهم
١٨٤	المبحث الثالث : المعركة ونتائجها
٢٦١-٢١٠	الفصل الثاني : الخصائص الفنية لشعر الفروسية
٢١١	المبحث الأول : الصورة الشعرية
٢١٤	- الصور البصرية
٢٢٢	- الصور السمعية

ص	الموضوعات
٢٢٤	- الصورة الذوقية
٢٢٩	المبحث الثاني : الفنون البديعية
٢٢٩	- الطباق
٢٣٣	- الجناس
٢٣٧	- التضمين
٢٤٠	- التصريح
٢٤١	- التطريز
٢٤٣	المبحث الثالث : لغة الشعر
٢٤٤	اللغة الحربية
٢٤٦	اللغة التفاخرية
٢٤٧	التكرار
٢٤٧	استلهام الموروث
٢٥٠	لغة الماضي
٢٥٨	خاتمة
٢٦٢	الفهارس
٢٦٣	● فهرس الآيات القرآنية
٢٦٤	● فهرس الأحاديث النبوية
٢٦٥	● فهرس الشعراء
٢٦٩	● فهرس المصادر والمراجع
٢٨٤	● فهرس الموضوعات

